سمير عبده

دور المسيحيين في الحضارة العربية - الإسلامية

منشورات دار حسن ملص





www.
al-maktabeh
.com
مكتبة
المهتدين

دور المسيحيين في الحضارة العربية الإسلامية



- دور المسيحيين في الحضا رة العربية - الإسلا مية
- **Title:Role of Christians in the Islamic Arabic civilization**
- **تأليف: سمير عبده**

Author: Samir Abdoh

- **الطبعة الأولى: ٢٠٠٥**

First Edition : 2005

دار حسن ملص للنشر

Hasan Malas Publishing House

دمشق - سوريا - ص. ب ٦١٧٤

Damascus- Syria P.O. Box 6174

هاتف: ٤٤١٩٦٥٣

Tel: 4419653

فاكس: ٤٤٢٨٠٠٥

Fax: 4428005

E. mail - Mohaiman @net .sy

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

التنضيد الضوئي والإخراج: مايا أدهم

موافقة وزارة الإعلام رقم ٧٧٩٨٥ تاريخ ٢٠٠٤/١٠/١٩

دار حسن ملص للنشر

جميع الحقوق محفوظة من غير المسموح نسخ أي جزء من هذا الكتاب ،أو تخزينه في أنظمة الحفظ والإعادة،أو نقله بأي شكل من الأشكال وبأي واسطة تقنية أو آلية،أو تصويره ضوئياً، أو تسجيله ،أو نسخه، دون الحصول على موافقة مسبقة خطية من المؤلف.

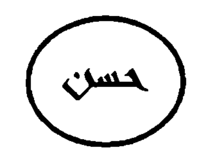
Hasan Malas Publishing House

All PRIGHT RESERVED.NO PART OF THIS BOOK MAY BE REPRODUCED OR STORED IN A RETRIEVAL SYSTEM OR TRNSMITTED IN ANY OR MEANS,ELECTRONICAL MEACHANICAL,PHOTOCOPYING,RECORDING OR OTHERWISE,WITHOUT THE PRIOR PERMISSION OF THE AUTHOR.

Copyright © 2005 .

سمير عبده

دور المسيحيين
في الحضارة العربية - الإسلامية



منشورات دار حسن ملص


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

مقدمة

حاولنا عبر مادة هذا الكتاب أن نقدم بعض الشيء ما أسهمته المسيحية في الحضارة العربية – الإسلامية، وهو ما يبين أساسية العنصر المسيحي في تركيبة الشرق الحضارية في القرون الأولى للمسيحية والإسلام وحتى الآن. ويعني تناولنا هنا الإنجازات والإضافات العلمية والفكرية والطبية والأدبية والفنية التي قدمها الكثير من المسيحيين لتشييد صرح الحضارة العربية ورفع شأنها وإعلاء مكانتها من خلال ثلاثة أدوار لهم: في العصرين الأموي والعباسي الأول ببغداد، وفي مطلع القرن الثامن عشر بحلب، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر بلبنان ومصر. (أليس أول من رفع شعار العروبة في القرن التاسع عشر، رداً على النزعة التركية والسيطرة العثمانية ، نصارى لبنان؟) . (١)

إن دخول التاريخ هو فعل من أفعال المجد والخلود، وسواء أكان ذلك من باب الخير أو من باب الشر، فإن نسيان الملايين من أفاضل البشرية وعمومها وبقاء الضوء الأبدي حول هؤلاء هو تكريم لا تحقير في واقع الحال (٢) ذلك أن (المعرفة التاريخية المستندة إلى وعي تاريخي عميق تساهم بشكل أساسي في بلورة طرق الاستفادة من كل منعطفات التاريخ وتحولاته الدائمة) . (٣)

وعنوان الكتاب يوحي للقارئ أن ليس كل العرب مسلمين كما أنه ليس كل المسلمين عرباً، رغم الاعتراف الكامل بين نسيج العروبة وشخصية الإسلام،وفي ذلك قيل (كانت الحضارة العربية- الإسلامية بوتقة تاه في زحامها ما هو عربي لكي يصبح واحداً من أبرز مكونات الثقافة الإسلامية منذ نشأتها حتى اليوم. ولقد نسينا في غمار ذلك كله أن قبائل عربية سكنت التخوم الفاصلة بين شمال الجزيرة العربية وجنوب الشام وظل بعضها على مسيحيته وقوميته وعروبته في الوقت ذاته،وبذلك أصبحت قوميتهم سابقة على ديانتهم ،وبقي ولاؤهم للعروبة شديد الصلابة وقوي التأثير رغم غياب البعد الإسلامي في جانبه الروحي مع بقائه في جانبه الثقافي) . (٤) ويخالف هذا الرأي وليد جنبلاط حيث يقول : لا عروبة بلا إسلام. (٥)

إن البعض اعتبر الفكرة العربية موجودة عبر التاريخ. فيما قال البعض الآخر (ان العربي هو الشخص الذي ينتمي للثقافة العربية- الإسلامية،ويجعل إنتاجه كله أو أهمه ، باللغة العربية ، سواء كانت لغة البيت عنده عربية أو لم تكن . وهذا المدلول يشمل ذوي الأصل الفارسي والتركي وغيرهم، كما يشمل المسلم والمسيحي والصابئ وكل مواطن عربي الثقافة في أي بلد عربي) . (٦)

http://www.al-maktabeh.com

أما أين يسكن هذا العربي وهل هو من دم عربي خالص فإن د. أحمد سليم سعيدان يرى أن البلاد التي تعارفنا على تسميتها البلاد العربية ليست كلها في الأصل عربية الدم. ففي أكثرها امتزج الدم العربي بدماء علية، واتخذت العربية لسان المعاملات ، وانحسرت اللغات الأصلية إلى لغات بيت، واتخذ الإسلام دين الكثرة، واحتفظت قلة بمعتقداتها. ولكنهم جميعاً انصهروا في بوتقة الإسلام والعروبة،ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، آمالاً وآلاماً ومقدرات،ولكن بقي لهم طوعاً أو كرها، طابع خاص مميز حرصوا عليه. (٧)

لم يكن المسيحيون والمسلمون بعيدين عن بعضهم البعض، فهم من منطقة واحدة، وأحياناً من عشيرة واحدة . فورقة بن نوفل ابن عم خديجة زوجة الرسول كان أسقف مكة ،واكثر من ثلاثين امرأة مسيحية تزوجهم خلفاء. وحتى عندما قام الخليفة هارون الرشيد من مرضه دعا الله أن يحفظ طبيبه جبرائيل بختيشوع،فكان بذلك أول صنيع يقوم به خليفة، وعندما استغرب بنو هاشم الأمر قائلين (يا سيدنا، جبرائيل ذمي، فقال نعم، ولكن صلاح بدني وقوامه به، وصلاحُ المسلمين بي، فصلاحهم بصلاحه وبقائِه، فقالوا صدقت يا أمير المؤمنين) . (٨) حتى غدا لسان المسيحي ليس عربياً وحسب بل إسلامياً أيضاً. يقول خالد القشطيني: عندما يقسم المسيحي يقول (والله) وعندما يخطئ يقول (استغفر الله) وعندما يستاء ويكره شيئاً يقول (أعوذ بالله) تسمعه يبسمل ويحوقل ويكبر كأي مسلم (بسم الله) و (لاحول ولاقوة إلا بالله) و(الله أكبر) وهو يستشهد في كل كلامه بآيات القرآن الكريم اكثر مما يستشهد بالكلمات الإنجيلية (إذا ضربك شخص على خدك الأيسر فأدر له خدك الأخر)... كلمة يستشهد بها المسلمون ولم أسمعها قط من مسيحي . (٩)

فيما يقول الأديب جبرا إبراهيم جبرا- وهو مسيحي أسلم- إن عبارة (بسم الله الرحمن الرحيم) تبدو لنا تكرار في كلمتي : الرحمن الرحيم ... لكن حقيقة الأمر ليست كذلك، فالرحمن في السريانية تعني (المحب) وهي تأتي واضحة في الترجمة الإنكليزية Passionate وهذا يؤكد أن الله (محبة)، إذ هي (المحب الرحيم). وكذلك الأمر بالنسبة لكلمة (قرآن) ، هي (قريانو) وتعني بالسريانية القراءة. (١٠)

إن الأصل في الحضارة المتميزة أن تكون إنسانية تنأى عن التعصب والانغلاق وتبحث عن منطقة الجدل والتلاقي مع الآخر قبولاً أو حواراً، سعياً إلى الوصول إلى النموذج والمثال في حركة الفكر أخذاً أو عطاء.

والأصل في الحضارة العربية بشهادة أهلها وغيرهم من المستشرقين المعتدلين أنها أخذت وأعطت وتجادلت وتفاعلت منذ قبلت الترجمة منها أو إليها، حتى كثر فيها دخيل اللغة وتعددت فيها مشاركات علماء الدنيا من بخارى وسمرقند وخراسان وجرجان وغيرها من شرق العالم الإسلامي ورواده الذين ملؤوا الأرض علما وفكراً تحت مظلة الحضارة العربية بصرف النظر عن أصولهم غير العربية .

-رفضت التعصب الديني فلم تعرف حجراً على نصراني أو يهودي، بل كثرت المرويات حول استعانة خلفاء الدولة الإسلامية برجال من كل الديانات دون تفريق أو طرد أو تمييز أو تحقير أو امتهان كرامة إذا تجاوزنا معاملة الموالي في عصر بني أمية بحكم تغليب المصالح السياسية العليا التي دفعت الأمويين إلى التعصب لأمويتهم ضد بقية العناصر العربية فكان للتعصب أن يمتد وقتئذ ليشمل غير العرب.(١١)

قبلت الحضارة العربية – الإسلامية الآخر برحابة وعمق وسماحة جعلتها إنسانية بالمعنى المعمق لهذا الوصف حيث فتح فيها باب الاجتهاد والتفكير، فلم تحجر على عقل، ولم تُعطل فكراً بقدر ما استوعبت وتقبلت من صيغ التعددية الفكرية التي جعلتها تعيش في تصالح وسلام مع عطاء الثقافات السريانية واليونانية والفارسية والهندية القديمة .

وثابت عند العلماء الألمان أن البحث في مواضيع الحرية والجبر والخالق والأدلة على الخلق، هذا الكلام الفلسفي في الدين هو من صنيعة المسيحيين وأخذه المسلمون لاحقاً وإلى ماهناك من زخرف وكل الصناعات الحرفية. (١٢)

كيف لنا أن نقيم الثقافة المسيحية في هذه المنطقة... إنه سؤال أجاب عنه الأب سليم عبو قائلاً: الثقافة المسيحية هي التي تأخذ بيد المسيحي إلى المستقبل ،هي ثقافة تأخذ بخصائص العقلانية، وتنفتح على المعرفة العلمية،تستقبلها وتوظفها وتنقلها وتساهم في تطويرها بالسياجات، ثقافة تجاوزت دائرة الاجترار الذاتي وتواكب عصر المعلومات الإلكترونية ، ثقافة المجتمع القبلي والطائفي وترسخ أساسيات المجتمع.. الثقافة هي التي تقرر الفرق بين التقدم والتأخر). (١٣)

ولا تختزل الهوية الثقافية بإدراكها ، بل هي أيضاً مسار من الخبرات المعاشة والمستمرة. ويمكن سبر الثبات والتحول في تأويلات الأفراد والجماعات لواقع تبادلهم الثقافي مما يعطي الفرد الشعور أنه يتغير في تواصله مع الآخر محافظاً في آن واحد على ذاتيته ، حيث أنه لا يوجد عملياً مجتمع وطني متجانس ثقافياً فإن الهوية الثقافية لأي مواطن هي، في حصيلتها، ملتقى تعددية هويات خاصة هي بذاتها خصوصيات متحركة، فإذا أعطى المواطن في ظرف خاص لإحدى انتماءاته الأفضلية ،فهذا يعني انه يفاوض ذاتياً بين غنى مكونات هويته الكلية ويعيد تأويلها كي تنسجم بنجاح مع وضعه الحاضر.

يقول جاك سوستيل (ليس دين الهندي المكسيكي دين أجداده وقد أضاف إليه زخرفة سطحية وليس دينه مسيحية أوربا اللاتينية) إنه الإثراء في الهوية الذي توفره المثاقفة وما يرافقها من تأويل فردي وجماعي.

يحمل التأكيد على الهوية الثقافية بحثاً عن الاعتراف بالذات. الهوية الثقافية تعبير عن حاجة بالاعتراف والقبول والتقدير والمحبة للإنسان كما هو في تمايزه....

إنـه رغبة في رغبة الآخر . في الهويـة الثقافية جدلية الذات والآخر حيث الذات أكثر ذاتية في انفتاحها على الآخر.ما يفسر هذه المفارقة هي البنية التواصلية للوجدان الإنساني في انتمائه إلى البشرية جمعاء. (١٤)

● ● ● ●

يتضمن الكتاب بعد المقدمة ملاحظات حول المصادر وهي غنية جداً فاقت بعددها صفحات الكتاب

ويشمل الفصل الأول الوضع السكاني والديني الذي كان سائداً في المنطقة العربية- الجزيرة وسوريا الطبيعية – وهو استهلال للفصل التالي حيث تم تناول التركيبة المسيحية – الإسلامية في المنطقة العربية من خلال العرب المسيحيون- المسلمون الذين مهدوا الأرضية العربية لنشوء الإسلام ، مع التعريف بالأرضية المسيحية المصاحبة لذلك، وعلى ضوء هذه المعطيات تم التطرق إلى كيفية نظرة الإسلام إلى المسيحية حيث لعبت القبائل العربية المسيحية دوراً مهماً في تركيبة الإسلام الديموغرافية اللاحقة، واختتم الفصل بتناول تبعات الفتح العربي- الإسلامي وكيفية تكيف المسيحيين مع الوضع الجديد.

وتناول الفصل الثاني إسهام المسيحيين في الحضارة العربية- الإسلامية في القرون الأولى للإسلام حيث التقت الثقافة المسيحية بالحضارة العربية- الإسلامية من خلال عدة معطيات منها: تعامل السريان مع العرب- المسلمين، والأرضية السورية في منظومة الحضارة العربية- الإسلامية ،واثر السريانية في مفردات العربية- الإسلامية، ومن الأمثلة على ذلك: التطرق إلى كون القلم العربي ناشئ عن السرياني، وتداخل السريانية بالعربية إلى إيراد الألفاظ المسيحية الواردة في القرآن الكريم وشرح للفواتح القرآنية والتفسير السرياني لها. وتم التطرق إلى قيمة الترجمة التي تمت للعربية حيث كان السريان روادها ،ومن هم هؤلاء الأشخاص، والمساهمة المسيحية في الطب العربي وأمور أخرى مما قل تناوله في مراجع أخرى.

وشمل الفصل الثالث دور المسيحيين في عصر النهضة العربية الحديثة حيث كان لهم إسهام كبير في ذلك من عدة نواح: العلم والعلمنة والقومية العربية،متجلياً دورهم بشكل خاص في سوريا الطبيعية.

وتم تقسيم الفصل إلى بابين تناول الأول التحولات العقائدية والفكرية لدى المسيحيين العرب، بدءاً من التحولات في الكنيسة العربية، والامتيازات الأجنبية التي حصل عليها المسيحيون، والعلاقة بين الدين والتطورات الاقتصادية والسياسية،إلى الوصول إلى دور المسيحيين في القومية العربية العلمانية، ودور مدارس العلم في التحول العقلي والفكري لدى المسيحيين ،ودورهم في النهوض بالاعلام العربي.

أما الباب الثاني فتناول التحولات العقائدية والفكرية لدى المسلمين العرب ، بدءاً من هيكلية العلم العربي، إلى أثر الترجمة في الحقل الديني وما نشأ عن ذلك من

فرق إسلامية تحترم العقل وما جوبهت به من أخصامها، وهو ما مثل رفضاً للفلسفة وما يتبعها والوقوع في التخلف، إلى مناداة البعض عن أصوله الحضارية قبل إحلال العروبة في بلاده ومن هؤلاء توفيق الحكيم مدافعاً عن حضارة مصر الفرعونية مقللاً من شأن الحضارة العربية.

ويضع الفصل الرابع والأخير سؤالاً مهماً عن دور المسيحيين في هذه المنطقة في الألفية الثالثة الميلادية؟ هل بقي لهم من دور بعد أن لعبوا أفضل أدوارهم في مرحلتين من مراحل الحضارة العربية الإسلامية كما تم بيانه في الفصول الماضية، وبعد أن كانوا الواجهة الثقافية والعلمية والفكرية في وسط مجتمع بدوي ارتقى برقيهم إلى أن تساوت العقول وضعفت المحفزات والفرص الماضية فبات همهم الهجرة والهروب من واقع لا يعطيهم حافزاً لطموحاتهم الذهنية، حتى أن إحدى الدراسات تؤكد تلاشيهم في غضون أربعين سنة في فلسطين ،كما لم تعد من طائفة مسيحية في بلاد الشام والعراق يفوق ساكينها بلاد الاغتراب ،دون أن نذكر الطائفة القبطية في مصر ، فاغتراب مواطنيها جرى حديثاً.

كل هذه المواضيع تم التطرق إليها عبر صفحات هذا الكتاب.

إن طالعة الأثر المسيحي في الحضارة العربية- الإسلامية يفوق التصور، تاريخاً وإرثاً، ليكون المغزى في هذه الدراسة التي تجيء عزاء لتاريخ لقي من دهر الباحثين عنتاً ولقي من كتبة التاريخ تغافلاً، وما أوردنا في هذا الكتاب سوى لمعةِ لخطوطه العريضة نأمل أن يستجدُ سعيُ خالصُ يفي التاريخ حقه، وينصف من لم ينصف في كتابة تاريخ هذه المنطقة. لأننا نرى في العنوان الذي اتخذناه لكتابنا هذا الاتساع فيه بحيث يستحيل على المرء أن يحيط به أو يبحث في كل تفاصيله من خلال بحث كهذا ، بالرغم من توفر بعض المراجع لنا في هذا الشأن ،والتي كتبها باحثون مخضرمون من العرب، مسيحيين ومسلمين، والمستشرقين الذين انكبوا،بدأب وجدية وجلد لامثيل لها على البحث في المخطوطات الموزعة على مكتبات العالم، لاستخراج وجمع المعلومات والبيانات المتعلقة بالتراث العلمي والفكري واللاهوتي للعرب المسيحيين في إطار الحياة العقلية والاجتماعية العربية الإسلامية ونشرها.

لقد سبق وصدر لنا أربعة كتب عن مسيحيي سوريا وهم عماد مسيحية العالم وهي (المسيحيون السوريون خلال ألفي عام) ٢٠٠٠ و (المسيحيون السوريون: قديماً وحديثاً) ٢٠٠٠ و (المسيحيون في سوريا على عتبة الألف الثالث) ٢٠٠٢ و (الطوائف المسيحية في سوريا: نشأتها- تطورها- تعدادها) ٢٠٠٣ ويأتي كتابنا هذا ليكمل ما سبقه من كتب في هذا الشأن.

سمير عبده
ص.ب ٩١٤ ــ دمشق

ملاحظات حول المصادر

لعل المصادر والمؤلفات التي تناولت دور المسيحية في الحضارة العربية الإسلامية قليلة وشحيحة بالنسبة لغيرها من المصادر، وهي في معظمها مما كتبه مستشرقون أو مسيحيون عرب، وندر ما كتبه مسلمون، إلا ماخص السريان حديثاً مثل كتاب (السريان والحضارة الإسلامية) (١٥) و (إسهام السريان في الحضارة العربية) (١٦) و (إسهام السريان في العلوم العربية) (١٧).

وهناك في نهاية الكتاب ثبت دقيق منصف بأسماء هذه المصادر والمؤلفات المسجلة قدمت، باستثناءات قليلة ثبت لحوادث أكثر من تقديمها الدور الرائد للمسيحيين في هذه المنطقة. وقد وجدت نفسي منساقاً نتيجة لذلك، إلى الاعتماد على كثير من الأوراق التي أدون عليها ما يهم مثل هذا الموضوع على مدى أربعين عام. والمصادر التي سأذكرها تهم القارئ العربي كثيراً في الرجوع إليها إذا ما أراد التوسع في هذا الشأن.

إن أبرز ما يمكن ذكره مما أرخ لموضوعنا هو كتاب المستشرق الألماني جورج غراف G.Graf عن (تاريخ الأدب العربي المسيحي إلى آخر القرن الثاني عشر الهجري) بمجلداته الأربعة ،حيث بدأ ذلك بنشر خلاصة باسم (الأدب العربي المسيحي) ثم عكف على إعداد العدة لمؤلف مستفيض جامع يدور حول هذا الأدب الذي وقف حياته على التنقيب عنه والتعريف به، فأسفر جهده الدائب عن كتاب ضخم يقع في أربعة أجزاء كبيرة وهو الذي نوهنا عنه. ويشير الأكسرخوس يوسف نصر الله ((إلى أن هذا العمل نشر في مجموعة مكتبة الفاتيكان المعروفة باسم دروس وشهود. فالجزء الأول يضم التراجم (١٩٤٤ ، ٤٦ + ٦٢٢ ص)، والثاني الكتاب حتى منتصف القرن الخامس عشر (١٩٤٧ ، ٣١ + ٥٢١ ص) ، والثالث الكتاب الملكيين والموارنة من منتصف القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن التاسع (١٩٤٩، ٣٣+ ٥٢٥ ص)، والرابع الكتاب السريان والأرمن والأقباط ،وأدب الرسالة ، من منتصف القرن الخامس عشر حتى نهاية التاسع عشر (١٩٥١ ، ٣٦ + ٣٤٢ ص) ثم أضيف جزء خامس يحوي فهارس جامعة مفيدة (١٩٥٣ ، ١٩٦ ص) (١٨)))

ويقع هذا الكتاب في ٢٤٠٠ صفحة وهو جرد للمصنفات العربية الدينية ويمثل تراث عربي مسيحي بكل معنى الكلمة. وفي هذا السياق هناك كتاب جان فايه(أحوال النصارى في خلافة بني العباس)، كما أن كارل بروكلمان وأ. بو مشتارك خصصا الأدب العربي المسيحي بصفحات تبين بعض جوانبه، وكتاب جان كوربون (كنيسة المشرق العربي) (١٩) من الكتب الهامة في موضوعه، والأب جورج قنواتي في (المسيحية والحضارة العربية) (٢٠) ومؤلفات الأب لويس شيخو تبرز ملامح الأدب العربي المسيحي وتذيع آثار أعلامه وقد قال عنه إكراتشوفسكي (إنه أعظم

المطلعين في مجال الأدب العربي). وهذه المؤلفات هي (النصرانيه وادابها بين عرب الجاهلية) (٢١) و(تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر) (٢٢) و (تاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين) ص ٢٠٨ (٢٣) و(شعراء النصرانية) (٢٤) وسبق ووضع كتاب عن (المخطوطات العربية للكتبة النصرانية) ص ٢٨٦ (٢٥) ومعظم هذه الكتب ظهر في مقالات على صفحات مجلة المشرق التي كان محررها منذ أعدادها الأولى عام ١٨٩٨ ولازالت تصدر ، وهذه الكتب من المصادر المهمة في أي دراسة توضع حول هذا الموضوع.

إضافة إلى هذا وذاك نذكر ما كتبه الآباء قسطنطين باشا وبولس سباط وفرديـنان توتل واسحق أرملـه والبطريرك أفرام برصوم (٢٦) والبطريرك أغناطيوس يعقوب الثالث (٢٧) والمطران يوحنا إبراهيم من خلال الكثير من الكتب التي وضعها أو كتب مقدمتها الطوال. مع عدم إغفال كتب فيليب حتي وخاصة (تاريخ العرب) (٢٨) والفيكونت طرازي، وماكتبه حبيب الزيات وعيسى اسكندر المعلوف وفؤاد أفرام البستاني، والكتابات المتأخرة للأب سمير خليل.

ونرى في المخطوطات والكتب التراثية العربية بعض الذكر لدور المسيحيين في قيام الحضارة العربية- الإسلامية ، ومن هذه (تاريخ الحكماء) (٢٩) و (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) (٣٠) و (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) (٣١) و(كتاب الفهرست) (٣٢) و(طبقات الأطباء والحكماء) (٣٣) و (تاريخ مختصر الدول) (٣٤) وغيرها مما سيأتي ذكره في سياق الكتاب.

ومهما عددنا مصادر البحث فإننا نقر ونعترف أننا لم نصل إلى النهاية في كل ما نطمح إليه من مصادر، خاصة في بلد كبلدنا،يقتضي البحث عن مصدر كهذا مكتبات متخصصة ،فإن وجد بعضها كان الإجحاف في الاطلاع عليها من قبل القيمين عليها، وإذا لم نتمكن من الإطلاع على (كافة) المصادر فسينبري أحدهم ليذكرنا بمصدر فاتنا أو فاصلة لم نضعها مجهضاً كل جهدنا.

http://www.al-maktabeh.com

حواشي المقدمة

وملاحظات حول المصادر

١- مجلة المسرة – حريصا ك ٢ – حزيران السنة ٧٦ / ١٩٩٠ ص ٢٦٢ الأب سمير خليل
٢- صحيفة الحياة- لندن ٢٠٠٣/٩/١٦ أحمد المسلماني
٣- مجلة الكلمة- بيروت العدد ٨/٣٢ صيف ٢٠٠١ محمد محفوظ
٤- صحيفة الأهرام – القاهرة ٢٠٠١/٦/٢٦ مصطفى الفقي
٥- صحيفة الشرق الأوسط- لندن ٢٠٠٢/١١/١٥ من تصريح وليد جنبلاط إلى ريما ميداني ص ١٠
٦- مجلة المستقبل العربي- بيروت العدد ٢٧٥ ٢٠٠٢/١
٧- سعيدان، د أحمد سليم: مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١٣١ ص ١٨٨
٨- أصيبعة، ابن أبي ،موفق الدين أبو العباس : عيون الأنباء في طبقات الأطباء تحقيق نزار رضا بيروت: دار مكتبة الحياة ١٩٦٥ ص ١٩٢
٩- صحيفة الشرق الأوسط – لندن ٢٠٠٣/١٢/١٤ خالد القشطيني
١٠- صحيفة سومر- بيروت العدد ١١-١٢ كانون الثاني ١٩٩٣ من مقابلة مع جبرا إبراهيم جبرا
١١- صحيفة الأهرام- القاهرة ٢٠٠٢/٧/٧ عبد الله التطاوي
١٢- صحيفة النهار – بيروت ٢٠٠١/٣/٢٤ المطران جورج خضر
١٣- صحيفة النهار- بيروت ٢٠٠٢/٩/٢٧ الأب سليم عبو
١٤- مجلة الاجتهاد- بيروت العدد ٢٠٠٢/٥٤ الفضل الشلق
١٥- زغلول، الشحات السيد: السريان والحضارة الإسلامية الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥
١٦- الحمد، محمد عبد الحميد: إسهام السريان في الحضارة العربية حلب: دار الرها ٢٠٠٢
١٧- الحمد، محمد عبد الحميد: دور السريان في العلوم العربية حلب: دار الرها ٢٠٠٢
١٨- مجلة المسرة- حريصا السنة ٦٢ تموز – كانون الأول ١٩٧٦ الأكسرخوس يوسف نصر الله.
١٩- كوربون، جان: كنيسة المشرق العربي ترجمة المطران (ومن ثم البطريرك) أغناطيوس هزيم بيروت: منشورات النور ١٩٨٠

٢٠- قنواتــي، الأب الدكـتور جـورج شـحاته: المسـيحية والحضــارة العربـية بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٢١- شيخو، الأب لويس: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية الجزء الأول ١٩١٣، **الجزء الثاني ١٩٢٣ بيروت : المطبعة اليسوعية**
٢٢- شيخو، الأب لويس: تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر بيروت : المطبعة اليسوعية ١٩٢٤
٢٣- شيخو، الأب لويس : تـاريخ الآداب العربـية فـي الـربع الأول مـن القـرن العشرين بيروت: المطبعة اليسوعية ١٩٢٦
٢٤- شيخو، الأب لويس: شعراء النصرانية بيروت: المطبعة اليسوعية ١٩٢٦
٢٥- شـيخو، الأب لويـس: المخطوطـات العربـية لكتـبة النصـرانية بـيروت: المطبعة اليسوعية ١٩٢٤
٢٦- برصـوم، الـبطريرك مـار اغناطـيوس أفرام الأول: الألفـاظ السـريانية فـي المعاجم العربية دمشق: مطبعة الترقي ١٩٥١
٢٧- يعقـوب الثالـث، الـبطريرك اغناطـيوس : البراهيـن الحسـية علـى تقـارض السريانية والعربية جونيه: مطابع الكريم الحديثة ١٩٦٩
٢٨- حتــي، فيليـب : تـاريخ العـرب تـرجمة إدوار جرجـي، د. جبرائـيل جـبور بيروت : دار غندور ١٩٧٤ ص ١٣١
٢٩-ابن القفطي، تاريخ الحكماء تحقيق أمين الخانجي مصر ١٩٠٨/١٣٢٦
٣٠-ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء مرجع سابق
والمومـى إلـيه طبيـب مـؤرخ ولـد بدمشـق بعـد عـام ٥٩٠ هـ/ ١١٩٤ درس الطـب ومارسـه فـي المستشـفى الـنوري بدمشـق والمستشـفى الناصـري فـي القاهـرة . ألـف كتـباً مخـتلفة فـي الطـب ولكـنها فقدت واشـار إلـيها فـي كـتابه المـنوه عنه أعـلاه، ومن تلك المؤلفات: إصابة المنجمين، التجارب والفوائد، حكايـات الأطـباء فـي علاجـات الـدواء، معالم الأمم وأخبار ذوي الحكم . وله شعر كثير.
٣١-ابـن خانكـان: وفيات الأعيان وأنباء أبـناء الـزمان تحقيق إحسـان عبـاس ٨ أجزاء بيروت ١٩٦٨-١٩٧٢
٣٢-ابن النديم: أبو الفرج محمد بن اسحاق النديم: كتاب الفهرست طهران: طبعة رضا تجدد ١٩٧١
٣٣-ابن جلجل: أبـا داود سليمان: طـبقات الأطباء والحكماء القاهرة: طبعة فؤاد سيد ١٩٥٥
٣٤- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول بيروت : دار المسيرة ١٩٥٨


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الأول

التركيبة المسيحية - الإسلامية
في المنطقة العربية

http://www.al-maktabeh.com



العرب المسيحيون- المسلمون

تقول الأسطورة إن أول من نطق بالعربية كان يعرب بن قحطان ،ووصلت إلينا لغة قريش التي قيل أنها كانت تجتبي، أي تختار، من أفضل لغات العرب حتى صارت لغتها أفضل هذه اللغات حيث نزل بها القرآن الكريم.

وأقدم خط عربي مكتوب ومكتشف يعود إلى ملك لخم في القرن الثالث للميلاد. فقد عثر على قبر الملك امرئ القيس، وهو غير الشاعر امرئ القيس، في النمارة في حوران، وعليه بالخط العربي الأول (تي نفس مز القيس ملك العرب كله ذو أسر التاج) وترجمته (هذا ضريح امرئ القيس ملك كل العرب صاحب التاج).

لم ترد إشارات على الوجود العربي إلا في فترة متأخرة نسبياً، حيث وجدت في نقوش آشورية ترجع إلى الفترة ما بين ٨٥٧ ق.م ، ونهاية القرن السابع ق.م وتشير تلك النقوش إلى وجود العرب على طريق التجارة في بادية الشام، بين الفرات والعقبة وحول دومة الجندل، وثمود وسبأ ، وتتحدث عن ملكات وملوك وكيانات تجارية حربية. ومع أن الباحثين اختلفوا حول الموطن الأصلي للعرب إلا أن الاتجاه السائد لدى المؤرخين يشير إلى أن الجزيرة العربية كانت منشأهم، ومنها انتشروا إلى المناطق المجاورة. (١) ومنذ البداية شكلت اللغة العربية عاملاً حاسماً في الفصل بينهم وبين الأقوام الأخرى. وأصبح التمييز بين العرب وغيرهم معتمداً على اللغة ،ولذلك اعتبر من لم يتكلم العربية أعجمياً (٢).

وكانت الوحدة المعنوية للعرب في حال البداوة وحال التحضر وحدة إتنية،سابقة للوطن وللتمدن، مستمرة فيهما وفي سواهما من أشكال التكوين الاجتماعية. هذه الوحدة الأتنية هي التي سيغذيها الإسلام بمضمون جديد (الوحدة الإسلامية) دون أن يمس بالهوية العربية للعرب، الذي نهض منهم نبي أمين كريم،بقرآن عربي يخاطبهم ،ومن خلالهم يخاطب العالم كافة.

وتلازم الإسلام بالعروبة منذ لحظة بزوغه ،وكانت السورة الأولى (اقرأ)،أكبر تجسيد لذلك التلازم ،ففعل الأمر بالقراءة، أوحي به بلغة محدودة ،هي اللغة العربية ●/ ١ وقد تتالت النصوص القرآنية بعد ذلك مؤكدة ذلك التلازم ، كما جاء في الآيات القرآنية الكريمة التالية:

((إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون (٣)))

((قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون (٤)))

((إنا جعلناه قرآناً عربياً لقوم يعلمون(٥)))

((كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لعلكم تعقلون (٦)))

((لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين (٧)))

((وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا (٨)))

((وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم (٩)))

لقد أجمعت هذه الآيات الشريفة في مواضع مختلفة على عروبة القرآن

الأرضية العربية لنشوء الإسلام

تقول إيزابيل الليندي: هناك من يقولون إن المحيط الجغرافي يحدد شخصية الإنسان (١٠) وواقع الأمر أن البيئة العربية عشايا الإسلام، وهي بيئة صراع لأجل الحياة،وإن كل الأشكال البنيوية للعصبيات (عصبية الدم- القرابة- اللغة- الثقافة- الديانات) – تم للإسلام كأيدلوجيا جديدة، بل كمألوفة توحيدية، هي في جوهرها الاجتماعي التاريخي تعبيرات عن توحدات داخلية، مكنت العرب من تحقيق قومية الأقوام العربية،ومن مواجهة غزوات الإمبراطوريات المجاورة (الروم- الفرس- الأحباش)، ومن انتصار التوحيد العربي، بصيغته الإسلامية، في ما يتعدى التوحيد اليهودي- النصراني، توحيد بني إسرائيل والنصارى العرب، في ذلك الزمن.

لقد أورد يوسف شلحت، الباحث الأثنولوجي السوري، الصارم، في كتابه (مدخل إلى علم اجتماع الإسلام) (١١) إن بيئة الإسلام ونبيّه لها عنوان مفرد: العربية أو العروبة . ففي هذه البيئة العربية، البنية – أو المنزلة هي مفتاح التفسير السوسيولوجي لما يحدث، ففيها السببية الاجتماعية تجعل تاريخ الأحداث مفهوماً فهماً عقلانياً، ومشفوعاً بكل تسويفاته التاريخية ومنها أن هذا الصراع لأجل الحياة في كل الآنات هو المحرك الداخلي للعرب، الذين تحضروا وحضّروا من خلال تطورهم الاجتماعي التاريخي فانتقلوا تدريجاً من الطور البدوي إلى الطور المدني، ومن الطور اللاقومي (الانفلاشي والأرواحي) إلى الطور القومي ، ومن طور المحلي إلى طور الدين الشمولي العالمي (الإسلام).

وجرى الانتقال أيضاً من الفرد إلى الشخص ، والشخصية، التي خاطبها القرآن الكريم بقوة،عندما ظهر الإسلام بوصفه (ربيع الصحراء) فكانت الشخصية الاجتماعية للعربي من هبات الصحراء والمدنية معاً، وكان الإسلام نفسه فتحاً عربياً، قبل أن يصبح فتحاً خارجياً وإمبراطورياً، إنه فتح عربي، بقدر ما تعامل عقلانياً (العقلانية الإسلامية) مع العقليات العربية، محترماً خصيصتها الكبرى، وهي أنها عقلية عملية، شديدة الانفتاح على آخر، لكن في نطاق الشرف، والاستقلالية والسيادة . وانطوت هذه العقلية العربية على راسب بدوي /حضري،معقد، أي مكثف ، ومستمر في تكوين شخصية العربي ذات القطبين المتكاملين : الفوضى والانضباط.

ويرى شلحت (١٢) أن هذا النسيج الازدواجي للشخصية العربية، نجده مبرمجاً في علاقة المجتمع بالسلطة التي ينتجها: السلطة المفردنة ، الدنيوية، قبل الإسلام، السلطة الجماعية، المقدسة ، مع الإسلام. فقبل الإسلام ،عرف العرب نظام المجلسين: مجلس الشيوخ (القبائل) ●/٢ ومجلس الملأ (مكة والمدن) ، ناهيك

بمجلس السدنة (أو الكهنة). فالكاهن كان مضافاً إلى السيد،تابعاً له،هذا حين لا يكون سيد القوم هو كاهنهم أو سادنهم أيضاً. وقد تلازمت مبادئ الحياة العربية مع مبادئ التطور الاجتماعي للعرب ،فمع استقرار البدو في الأرض، ولد الموطن والمجتمع،وولدت السلطة في المجتمع، واستقرت الديانة، مع تمركز أكبر للسلطة،أو بالأولى للسلطات : سلطة البدو وسلطة الحضر، اللتين ستتفاعلان لتولد السلطة العربية، وفي هذا السياق التطوري كان مولد الدين في المجتمع. وهنا من المفيد التوقف عند أشكال السلطات عند العرب عشايا الهجرة وقيام المدنية الجديدة،والإسلام:

آ- سلطة فرد يساعده مجلس البدو (مجلس الشيوخ- مجلس الكبار): في مجلس القبيلة هناك شيخ رئيس،ولكن هناك الشورى أيضاً.

ب- سلطة جماعة عنوانها مجلس الحَضَر (الملأ/ مكة) هو مجلس المدينة، وأداؤها يقدم على سلطة مجلس، حيث كل عضو فيه يمثل جماعته، أي هو سلطة مندوبين (عقال القوم)، هذه السلطة الجماعية يديرها أمين أو كبير، من خلال جمعية سيادية ذات سيادة .

ت- على مستويين ،ولد الدين لدى العرب من عبادة الجد (الأصل) إلى عبادة الله (اصل الأصول) ،وللدين عندهم ،قبل الإسلام، وجهان: وجه الدين القبلي، ووجه الدين الحَضَري (حيث كان الصنم، مثلاً، يرمز إلى وحدة القبيلة أو المدينة الاجتماعية).

كانت السلطة الدينية- السياسية قبل الإسلام تتراوح بين الحازي (الحاوي) والكاهن والحاكم، وكان إصلاح المجتمعات العربية ينتظر نبيّه ، هاديه ومصلحه مع ولادة المدينة (الحاضرة) عند عرب الجزيرة العربية الغربية (مكة – المدينة- الطائف) ،كانت ولادات أخرى في المجتمع الحَضري: النفوذ، الرأسمالية المالية (التجارية)، الديانة القومية- التي سيقلبها الإسلام إلى ديانة توحيدية شمولية، عالمية، بلا أصنام وبلا حدود،سوى حدود الله.

وكان ابن خلدون متنبهاً إلى تحدي البدو للحياة الحضرية والمتمدنة .فهو يقول أنهم ،إذا تغلبوا على الأوطان أسرع إليها الخراب، إذ طبيعتهم منافية للعمران، ولاتفيهم الشريعة والقوانين ،وهم يتنافسون على الرئاسة لأنهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض إلا إذا سهل الدين انقيادهم واجتماعهم (١٣).

وقد كان البدو طليعة الجيوش الإسلامية في فتح بلاد الشام لأنهم حفظوا حفظاً تاماً، المثال والخلق المختصين بالشعب العربي (ولا يمكننا القول نفسه عن حضر الحجاز، لأنهم على رغم ماكان يجدد عناصرهم من البدو الطارئين عليهم من الصحراء ،كانوا لا يخلون من التأثر بالمؤثرات الأجنبية، بل كان يتسرب إلى عروق الكثير منهم دم غير عربي تظهر آثاره بما لاسبيل إلى إنكاره. فكانت الطائف

قريبة إلى اليمن. أما مكة فكانت قد أصبحت وسطاً متعدد المظاهر لا صبغة حجازية له، يؤمه تجار الخارج، ويقصده النخاسون بعبيدهم خصوصاً من بلاد إفريقية .وكان في مكة طائفة من الأحباش. وأما المدينة فكانت نصف يهودية، وقد احتل أبناء إسرائيل أكثر واحاتها إن لم نقل كلها. هذا ولم يكن شيء من هذه المؤثرات الخارجية يفعل في البدو، وقد حمتهم قفارهم من الأجانب ،ومنعهم انفرادهم عن تسرب العادات الغريبة) (١٤) .

وحين حل الإسلام حل معه الشعور بدور العرب الخاص في التاريخ.. فالنبي كان عربياً، والقرآن نزل باللغة العربية، والبدو الأعراب كانوا (مادة الإسلام) ،أي وسائله البشرية لفتح العالم. وقد استمر وعي العرب (القومي) هذا، لابل ازداد، بفضل العناية التي كان السلاطين العثمانيون يحيطون بها المدارس السنية والشرع.

لكن هذا الوعي لم يتجل في النزعة نحو وجود سياسي منفصل، بل ظهر في الاعتزاز باللغة والثقافة والأجداد وفي الشعور بالمسؤولية نحو الإسلام .وعلى هذا الشكل تزعمه ونطق باسمه العلماء المحليون، وبوجه أعم، العائلات الكبرى في مدن الولايات ، تلك العائلات التي صانت تقاليد الدراسة الدينية، واللغة العربية وعلومها،وذكريات ما قام به العرب في سبيل الإسلام. (١٥)

الأرضية المسيحية المصاحبة لظهور الإسلام

انتشرت المسيحية في أرض اليمن والجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام ،ففي أوائل الزمن المسيحي كانت اليمن تحت حكم الحميريين. ويقول تقليد قديم أن المجوس الثلاثة كانوا من اليمن وماتوا شهداء في صنعاء بعد أن عمدهم القديس توما قبل سفره من عدن إلى الهند حيث بشر بالسريانية هناك.

كان للهاربين من المملكة البيزنطية بسبب الاضطهاد (الهرطقي) فضل كبير في نشر المسيحية في البلاد العربية ،في القرنين الرابع والخامس للميلاد، وامتدت جذور المسيحية إلى أقصى جنوبي غربي الجزيرة إلى الجزيرة السعيدة ، فقد أشار تاريخ الكنيسة إلى أن الإمبراطور قسطنطين قد أرسل في عام ٣٢٠ م تيوفيل الهندي، الذي تربى في القسطنطينية تربية مسيحية أريوسية بعد أن سيم أسقفاً، إلى اليمن ، إلى (الحميريين) القبيلة المتحضرة، وذلك لتأمين حرية المعتقد للتجار المسيحيين .وقد نجح هذا الرسول واستطاع أن ينصر رئيس القبيلة على الطريقة الآريوسية. (١٦) أما النساك ساكنو القفار، والرهبان ، فقد استطاعوا تنصير الكثير من القبائل البدوية ،نذكر منهم الناسك موسى الذي نصّر بعض البدو حتى أن ملكة إحدى القبائل (مافي) والتي كانت بحروب مع الرومان طلبت تنصيبه أسقفاً عند عقد الصلح معهم عام ٣٧٢، وكذلك فعل البار افتيموس في بداية القرن الخامس الميلادي، فقد نصر قائد إحدى القبائل العربية، وعمل على سيامته أسقفاً تحت اسم بطرس (للكنائس الحربية). (١٧) والمقصود بالكنائس الحربية القبائل الغازية وغير

المستقرة .هذا فضلاً عن رهبان جبل سيناء وما قاموا به من بشارة بين من حاورهم من القبائل العربية. وسمعان العامودي ناسك حلب أدهش البدو بورعه وتقواه فتنصّر الكثيرون (١٨)

وإذا راجعنا كتبة العرب مثل الطبري وياقوت الحموي وابن خلدون نجد أن أهل نجران تنصروا على يد رجل اسمه فيميون عرف بصلاحه واجتراحه المعجزات لكن ملكهم الذي كان متعصباً للدين اليهودي فقد اضطهدهم وأحرق حوالي عشرين ألفاً منهم. وتم الاستنجاد بالإمبراطور البيزنطي بستينوس الذي أمر ملك الحبشة بمحاربة الملك اليهودي الذي هزم وقتل فانتقل حكم اليمن إلى الأحباش حوالي نصف قرن من سنة ٥٢٥ إلى سنة ٥٧٥

كما أن التاريخ يذكر وجود المسيحية في عمان والبحرين حيث كانت هذه البلاد مليئة بالكنائس والأديرة حتى بعد ظهور الإسلام (٦٧٦م).

وضعف التواجد المسيحي في اليمن وعمان والبحرين بعد انتشار الدين الإسلامي خصوصاً بعد أن أمر عمر بن خطاب بإخراجهم من الجزيرة العربية، لكن المسيحيين استمروا في اليمن على ما جاء في التاريخ الكنسي لابن العبري الذي يورد ذكر أسقف على نجران وصنعاء في القرن الثامن اسمه بطرس. أما ابن النديم فيروي أنه اجتمع سنة ٩٨٨ براهب من نجران كان أوفده بطريرك النساطرة إلى الصين(١٩)

أما ما يخص وجود المسيحية في الحجاز ونجد فقد أورد الطبري في تاريخه الكثير من ذلك حيث يقول (وكان ممن توجه من الحواريين ابن تليما إلى العربية وهي أرض الحجاز). كما يروي الطبري أيضا قصة عن رسول السيد المسيح إلى العرب فيقول: كان على امرأة منا نذر لتظهرنَ على رأس الجماء ، جبل بالعقيق ناحية المدينة، فظهرتُ معها حتى إذا استوينا على رأس جبل إذا قبر عظيم عليه حجران عظيمان، حجر عند رأسه وحجر عند رجليه فيهما كتاب.. (هذا قبر رسول الله عيسى بن مريم عليه السلام إلى أهل هذه البلاد). وهذا ما يشهد على مجيء أحد رسل السيد المسيح إلى الحجاز من المدينة .واللافت أن هذه الكتابة تعتبر (عيسى ابن مريم) إليها ●/٣

ويروي مؤرخو العرب ابن الأثير وابن خلدون وأبو الفداء أن سادس ملوك دولة بني جرهم كان عبد المسيح بن باقية بن جرهم ،وهذا يؤكد أن المسيحية دخلت مكة بعد موت المسيح بقليل.

ويشار إلى أن المسيحية دخلت إلى المدينة بعد موت المسيح بقليل ،وانتشرت في أنحائها بدع عرفت بالبدع اليهودية – المسيحية كالناصريين والأبيونيين والكسائيين .وقد أتى على ذكرهم الكتبة الكنسيون في القرون الأولى كاوسابيوس القيصري وأوريجانوس ويوستينوس والقديس أبيفانوس وتاودوريطس والقديس هيرونميوس.

http://www.al-maktabeh.com

لقد دعي أهل المدينة (بأهل الكتاب) للدلالة على مسيحيتهم كما روى الشهرستاني و القسطلاني.وكان أحد زعماء الأوس أيام هجرة الرسول إلى المدينة يدعى (أبا عامر الراهب). وهذا يثبت مسيحيته .وبقي المسيحيون في المدينة بعد وفاة الرسول، كما قال حسان بن ثابت في داليته التي رثى بها النبي.

كيف نظر الإسلام للمسيحية

حين قامت الدعوة الإسلامية كانت المسيحية في أوج ازدهارها في سوريا الطبيعية والعراق وبعض الجزيرة العربية، وأتت تسمية المسيحيين نسبة إلى المسيح،وسمي كذلك لأنه مُفرز ومكرس للخدمة والفداء (٢٠) ودعي المسيح (ناصرياً) لأن الملك بشر به، مريم أمّه في مدينة الناصرة (٢١) ، وإلى هذه المدينة عاد يسوع مع مريم أمّه ويوسف خطيبها من مصر(٢٢) . وفيها صرف يسوع القسم الأكبر من الثلاثين سنة الأولى من حياته (٢٣) ، ولهذا لقب ناصرياً، نسبة إليها (٢٤)، ولهذا لقب أيضاً تلاميذه بالناصريين ومن بعدهم وإلى يومنا هذا عُرف المسيحيون بهذا الاسم . إن بطرس دعا يسوع ناصريا ً(٢٥) ، وكذلك بولس (٢٦)،وكتب فوق رأسه على خشبة الصليب (يسوع الناصري ملك اليهود) (٢٧). هذا عن تسمية أتباع المسيح كما ورد في الكتاب المقدس.

فيما القرآن الكريم سماهم النصارى ،وقد ذُكر اسمهم في سورة البقرة (٢٨) ثماني مرات، وفي سورة المائدة (٢٩) خمس مرات،ومرة واحدة في سورتي التوبة والحج (٣٠) (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) .

ويذكر سفر أعمال الرسل، وهو تاريخ تأسيس المسيحية (وفي إنطاكية أولاً دُعي التلاميذ مسيحيين) (اع ١١: ٢٧) ومنذئذ شاع هذا الاسم مع الدعوة في أقطار الدولة الرومانية، ثم في أقطار الأرض كلها، فالمسيحيون هم من الأميين أي من غير أهل الكتاب، حيث النصارى في عرف القرآن هم حصراً الطائفة من بني إسرائيل التي آمنت بالمسيح، فهم اليهود النصارى، الأمة الهادية العادلة من قوم موسى، الطائفة الصحيحة من آل عيسى، فالقرآن يحصر إذن اسم (النصارى) بالمسيح من اليهود، وهو يقسم العرب إلى أهل الكتاب والأميين (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميّين : أأسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا) . (٣١)

ويذكر أحد المؤرخين (٣٢) عن عائشة في قصة بدء الوحي أن (ورقة بن نوفل) – وهو ابن عم خديجة- كان امرأ ً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب. وقوله (يكتب الكتاب العبراني) هو مصدر كالكتابة ،أي الكتابة العبرانية. وشهادة الحديث الصحيح أن ورقة نصراني ويكتب الإنجيل بالعبرانية ، ويترجمه إلى العربية. فالإنجيل الذي بيد ورقة بن نوفل (رئيس النصارى) بمكة هو الإنجيل بالحرف العبراني . ولا نعرف

من الأناجيل القانونية إنجيلاً دوّن بالعبرانية إلا الإنجيل بحسب متى الذي ترجم إلى اليونانية.ومن شهادة الآثار المسيحية أن هذا الإنجيل كتب بالحرف العبراني المقدس،لكن باللغة الآرامية السريانية وهو إنجيل (النصارى) وهذا يعني بأن أهل الإنجيل بمكة كانوا النصارى من بني إسرائيل. فالمصادر المسيحية كلها، في عهد الفترة، تشهد بأن النصارى من بني إسرائيل كانوا وحدهم يتلون ولا يقبلون إلا (الإنجيل بحسب العبرانيين) ، أو بحسب حرفه ، أو بحسب متى ، أما المسيحيون فكانوا يستخدمونه بترجمته اليونانية القانونية، وهو الإنجيل بحسب مرقس، وبحسب لوقا، وبحسب يوحنا ، لأن الإنجيل واحد عندهم ، لكن بأحرفه الأربعة، وبسبب تشيّع النصارى من بني إسرائيل، كان إنجيل النصارى موضع شبهة عند المسيحيين،فلم يتعبدوا بتلاوته.

وفي التواريخ الإسلامية نرى أن اسم النصارى هو الشائع كأنه يطلق على السريان فيما بقية النصارى يسمون روم كأن النصارى ليسوا جميع المؤمنين بالمسيح، وليس التعبير مرادفاً للمسيحيين كما هو شائع .فالقرآن يحصر اسم (نصارى) بالطائفة من بني إسرائيل (الصف ١٤) ، بالأمة من قوم موسى (الأعراف ١٥١) التي آمنت بالمسيح، وتؤيدها الدعوة القرآنية. ويطلق اسم نصارى على المسيحيين، على التوسع تجاوزاً (التوبة ٣١).

ويرى الأستاذ الحداد أن هذا كان مصدر التشابه الذي ورط المسلمين والمستشرقين في مرادفة نصارى بمسيحيين،مع أنهم في موقف الشيعة من السنة المسيحية. والقرآن يثني دائماً على النصارى ويندد بالمسيحيين بسبب (غلوهم) بأمر المسيح وأمه. (٣٣)

ومن الملاحظ أن النبي الكريم ●/٤ لم يتصل إلا بوفد نجران، وإجماع المفسرين أن هذا الوفد كان من السريان النصارى وهذا يؤكد ماكنا ذهبنا إليه من وضع المسلمين للنصارى كسريان من أصل يهودي والروم كمسيحيين .

القبائل العربية المسيحية

كثيرة هي القبائل العربية التي دخلت المسيحية ومن ثم تحولت إلى الإسلام.وقد وجدت النصرانية سبيلاً إلى عدة قبائل عربية كانت تقيم في نجد والحجاز وقرب الحيرة وبر الشام ، نذكر منها على سبيل المثال قبائل بكر وتغلب (٣٤) وكندة. فمن بكر كان جساس ومن تغلب كليب وأخوه المهلهل، وجساس وكليب وهما سبب حرب البسوس التي عملت على تفتح عبقرية المهلهل الشعرية فكان كما قيل عنه أو من قصّد القصائد وأطالها.. وإذا صحت هذه الرواية فيكون المهلهل الشاعر النصراني من أقدم شعراء العربية الذين طبقت شهرتهم الآفاق .

أما كندة فقد أنجبتنا امرأ القيس أمير شعراء الجاهلية والذي قال فيه الفرزدق (امرؤ القيس أشعر الناس) (٣٥) .

وعنترة العبسي ويظهر أنه انتمى إلى النصرانية (٣٦) فقد خلدت ذكره ملحمته التي لا يزال العرب وعلى مر عصورهم يتناشدونها وهي نموذج البطولة والفروسية.(٣٧) .

●كندة: عُرفت بكندة الملوك لأن أبناء كندة ملكوا على قبائل عدنانية وأخرى قحطانية ،وكان ملوكهم عمالاً للتبابعة على الحجاز. وقد ملكوا على بكر وتميم وقيس وتغلب وأسد (٣٨) وأشهر هؤلاء الأولاد حجر والد الشاعر امرؤ القيس(٣٩) الذي ملك على بني أسد فقتلوه، فقام ابنه امرؤ القيس يطالب بدمه. وحجر هذا هو الملقب بأكل المرار (٤٠) . وبقيت على مسيحيتها بعد ظهور الإسلام كما يروي ابن هشام (٤١). أتى (النبي) كندة في منازلهم فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه. (٤٢).

● بكر: من القبائل الكبيرة المضاهية لتغلب في قوتها، كان سكناها في الجزيرة ونسبت إليها مدينة ديار بكر نسبة إلى هذه القبيلة على الأرجح، وكان منهم جساس.

● تميم: روى أبي هشام (٤٣) في السيرة النبوية أن قوم من تميم أتى إلى الرسول الكريم، وكان أحد زعمائهم، الزبرقان بن بدر، يفتخر بالكنائس التي بناها قومه.كما كان من تميم في الجاهلية أسقف يدعى محمد بن سفيان أبي مجاشع بن دارم التميمي.

● تغلب: من أشهر القبائل العربية المسيحية التي بقيت على دينها المسيحي حتى القرن الرابع بعد الإسلام، وقد دخل التغالبة على عمر بن عبد العزيز فأعلنوا بنصرانيتهم. وكان منهم كليب وأخوه المهلهل الذي يعد الشاعر النصراني الأقدم بين شعراء العربية الذين طبقت شهرتهم الأفاق.

● تنوخ: يرجع البعض موطنها إلى إحدى قبائل اليمن، وورد في كتب السريان ذكر لأسقف التنوخيين،فيما يذكر أحد المصادر (إن التنوخيين الذين تركوا الحيرة بعد مقتل النعمان بن المنذر كانوا في هذه الدفعة على دين النصرانية) (٤٤).

● عبس وذبيان: نبغ منهم أحد شعراء العربية الكبار النابغة الذبياني

● شيبان : كان سكناهم في الجزيرة السورية

● ربيعة: أحد القبائل العربية المشهورة بمسيحيتها في الجاهلية

● بلي: ذكر الطبري (٤٥) المؤرخ الإسلامي أن هذه القبيلة حاربت جيوش المسلمين

● حمير: قبيلة يمنية تحدث عن مسيحيتها كثير من المؤرخين (٤٦)

● جرهم: من القبائل المسيحية التي كان لها أسقف في مكة

● قضاعة: دخلوا في دين النصرانية فملكهم ملك الروم على من ببلاد الشام من العرب

- ثعلبة: تحدث عن مسيحيتهم كتبة سريان ويونان ورومان
- الأوس: عرفوا في يثرب بأهل الكتاب بعد احتلالهم لها
- جرم: قديمة هذه القبيلة بمسيحيتها حيث كان للسريان دير بناه رهبان في ديار جرم منذ أواسط القرن الرابع
- سليح: قال المسعودي (٤٧) إن هذه القبيلة عربية سبقت الغساسنة في الشام وقد (وردت سليح الشام فتغلبت على تنوخ وتنصرت فملكها الروم على العرب الذين بالشام).
- العباد: سموا (آل عباد الله) لأنهم حاربوا سابور ملك الفرس وكان سكناهم في الحيرة.
- كلب: هم من أعرق العرب في المسيحية وأقدمهم عهدا فيها، منهم ميسون بنت بحدل بن أنيف زوجة معاوية بن أبي سفيان ، وكان والدها يدير كنيسة في دمشق، ونائلة زوجة عثمان بن عفان .يقول ابن هشام في سيرة الرسول (إن محمد دعا إلى الإسلام قوماً من كلب يعرفون ببني عبد الله فلم يقبلوا منه) وقد أكد نصرانية بني كلب ياقوت الحموي وابن عساكر وابن خلدون.ومع ظهور الإسلام لم ينكر بنو كلب دينهم بحسب ابن هشام وياقوت الحموي والجاحظ. وقد دعا المؤرخون هذه القبائل بالمستعربة ،كما طلب البيزنطيون مساعدتهم ضد خالد بن الوليد. ويروي ابن البطريق عن الإمبراطور هرقل أنه (استجلب المستعربة من غسان وجذام وكلب ولخم وكل من قدر عليه من الأعراب وأمر عليهم قائداً من قواده يقال له ماهان).
- النبط: مسيحيون كما أثبت ذلك الكتبة السريان واليونان والعرب وكانت لهم كنائس كثيرة.
- القين: عرف هؤلاء بمسيحيتهم حين قاتل الإمبراطور البيزنطي هرقل المسلمين في اليرموك، وكان معه عدة قبائل مسيحية مستعربة منها القين.
- ناجية: قبيلة عرف أفرادها بتمسكهم بدينهم المسيحي، ومنهم كان الشاعر الفرزدق
- إياد: قبيلة عربية مسيحية ذكر ذلك ابن دُريد والفارابي، وتعد من أقدم القبائل العربية التي اعتنقت المسيحية
- طي: أصل القبيلة من اليمن وهي من اكبر القبائل التي سكنت في نجد حيث بنيت أديرة للرهبان، منهم عدي بن حاتم الطائي، ولما جاء الإسلام دخل في الدين الجديد.
- غسان: إحدى القبائل المسيحية التي ساعدت في دخول الإسلام إلى سوريا نظراً لوشائج القربى مع أهلها في الجزيرة العربية. وقد بنى ثاني ملوك غسان عمرو بن جفنة عدة أديرة منها دير هند ودير حالي ودير أيوب. (٤٨)

إن أكثرية هذه القبائل العربية كانت مسيحية كما يؤكد ابن العبري الذي يقول

(إن كل قبائل العرب التي كانت في البادية كانوا معارضين للمجمع الخلقيدوني ولا يرضون بمشاركة الخلقيدونيين).

ويقول اليعقوبي في القرن العاشر (وأما من تنصر من أحياء العرب فقوم من قريش ومن الخياطى وبهراء وسليح وتنوخ وغسان ولخم).

على ذلك فقد عرفت المسيحية طريقها إلى القبائل العربية قبل مجيء الإسلام،وباعتبار أن هذه القبائل كان لها امتدادها على مدى الجزيرة العربية وسوريا الطبيعية والعراق فقد ساعدت كثيراً دخول الإسلام إلى هذه المناطق. فمسيحي بادية الشام كان بينهم عدد كبير من الذين عارضوا قرارات مجمع خلقيدونية ●/٥ –كما ذكر – والدولة البيزنطية التي سعت لارتدادهم بالقوة،مما سهل على العرب دخول المنطقة في القرن السابع مستفيدين من انقسامات المسيحيين فيها. فالرابطة القبلية كانت ولازالت إلى الآن عند القبائل أقوى رابطة، وعلى سبيل المثال فإن قبيلة شمر في سوريا تتبع السنة فيما العراق غالبها من المذهب الشيعي.

علينا التذكير هنا أنه كان لأسقف بصرى●/٦سلطة على عشرين أسقفاً بعضهم يتنقل مع القبائل ويسكن الخليج، فدعي هؤلاء بأساقفة الخليج وكانوا يوقعون على أعمال المجامع بألقاب مثل (أسقف أهل العرب) أو (أسقف القبائل الشرقية المتحالفة).

لقد أعطى النظام القبلي الحرية لرؤساء القبائل في إدارة قبائلهم ،لكنه افترض الخضوع إلى حكم خارجي.وبذلك قدّر هذا النظام للقبائل أن تتعرف إلى المسيحية وأن تتأثر بها. وهكذا وصلتنا أخبار عن مسيحية بعض زعماء القبائل. فمثلاً يروي المؤرخ سوزومينوس، الذي عاش في أوائل القرن الخامس الميلادي، حادثة رئيس قبيلة يُدعى (خومو) – أي زقوما – اعتنق المسيحية بفعل تأثير أحد الرهبان عليه. فهذا الراهب أخذ بالاستشفاع إلى الله ليجود بابن على رئيس القبيلة . فتقبل الله دعاء الراهب الزاهد فتنصر الشيخ وقبيلته وصاروا من أصدق القبائل طويةً وأصفاها نيةً في ولائها للمسيحية ،وفي مساندتها لبلاد الروم في تصارعهم مع الفرس.

ويذكر المؤرخ اليوناني كيرلس البيساني (في القرن السادس الميلادي) واقعة اهتداء هذه القبيلة العربية. ففي سرده لسيرة أفثيموس يشير إلى شفائه لابن رئيس هذه القبيلة بعد أن فشلت فيه حيل الأطباء ورقي الراقين المشعوذين. فلما طفر الصبي يمشي اهتدى أبوه وقبل المعمودية وأمسى رسولاً عربياً يُبشر القبائل العربية بيسوع الناصري .ومن ثم بشر أفتيموس أفراد القبيلة وعمدّهم وأقام لهم شيوخاً ومذبحاً للرب. ومما يذكر أيضاً أن رئيس هذه القبيلة ويُدعى صخراً رُفع إلى المقام الحبري ●/٧ ولعله اشترك في مجمع أفسس (٤٣١ م) وكان على رأس وفد جاء يزور البطريرك الأنطاكي يوحنا. أما ابنه وحفيده فخلفاه في رئاسة القبيلة .ولقد تتلمذ لأفثميوس عرب كثيرون من أهمهم إلياس بطريرك أورشليم ، الذي رفض مقررات

http://www.almaktabeh.com

مجمع خلقيدونية ، وأسطفانوس الذي خلف لأفثيموس في رئاسة الدير وذلك في أوائل القرن السادس الميلادي. (٤٩)

إن النسيج العربي الذي بدا في سوريا كان بفعل السوريين والعرب المسيحيين،وهو ما أدى لاحقاً إلى توحيد الفكر بين المسلمين والمسيحيين ،بإظهار العوامل الحضارية المشتركة بين العرب كافة، مسيحيين كانوا أم مسلمين .

ويؤكد الأب سمير خليل ((على لفظ (العرب)) أملاً أن نعتز جميعاً (مسلمين ومسيحيين) بعروبتنا ،كما نعتز بمصريتنا وبقومياتنا المختلفة داخل الوطن العربي)). (٥٠)

تبعات الفتح العربي- الإسلامي

مع الفتح العربي- الإسلامي الذي بوشر في حياة الرسول الكريم ،تم فتح الشرق الأدنى في النصف الأول من القرن السابع: الجزيرة العربية أولاً، ثم سوريا الطبيعية والعراق وأخيراً مصر التي سقطت بين ٦٤٠-٦٤١

وجد الفاتحون أنفسهم عندئذ أمام شعوب ثقافتها أغنى بكثير من ثقافتهم فكانت لهم الحكمة في احترامها، بل صاروا تلاميذ لها، واكتفوا بالسيطرة عليها إدارياً واقتصادياً وسياسياً.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الشعوب كانت مسيحية (باستثناء بعض المزدكيين في منطقة حران، الذين عُرفوا بالصابئة حوالي العام ٨٥٢) . فقد كان لهذه الشعوب ثلاثة تقاليد ثقافية : الإغريقي (في مدن الساحل) السرياني (داخل سوريا والعراق) والقبطي (في مصر).

فتحت هذه البلدان أبوابها للمسلمين بموجب عهود أبرمت بينها وبينهم، وكانت هذه العهود متقاربة سارت على نمط واحد، واقتبست أهم شروطها عن العهد الذي أبرمه الرسول مع أهل نجران النصارى عام ٦٣١م وهو لم يرغمهم على الدخول في الإسلام بل اكتفى بأن فرض عليهم الجزية وتعهد بالمحافظة على دينهم وحياتهم وأرزاقهم ●/٨ وأشهر العهود من بعده هو العهد الذي عقده الخليفة عمر بن الخطاب مع صفرونيوس بطريرك القدس سنة ٦٣٨م عندما تسلم منه مفاتيح المدينة المقدسة. وقد ساعدت هذه الشروط السمحة مع عدم ولاء السريان للبيزنطيين ،على إضعاف مقاومة المدن أمام الفاتحين وعلى تثبيت الفتح العربي- الإسلامي.

سمحت هذه العهود لمن شاء من السكان والرهبان والموظفين بالهجرة إلى الأراضي البيزنطية ،فغادر الدولة الإسلامية عدد وافر من نصارى سوريا وأقاموا في بلاد الروم وفي جنوب إيطالية وجزيرة صقلية. وحافظ الباقون على كنائسهم وأموالهم وحريتهم الدينية وشرائعهم الخاصة.

وعرف منذ ذلك الوقت أن المسيحيين واليهود هم في ذمة المسلمين، أي في عهدهم وحماهم وأنهم أهل الذمة أو العهد والأمان. ويعني ذلك أن للذميين حق الأمان

علـى نفوسـهم وأموالهم ،وحـق الحمايـة والسكن ، ومزاولة الأعمال المختلفة. فلا قيد عليهم إلا فـي تغيير الدين، فإذا غيّروا دينهم فـإلى الإسـلام وحده، وفـي الزواج فلا يحـق لهم الـزواج من مسلمة . وعليهم واجبات وهـي دفـع الجزيـة، وعـدم الاجتماع علـى قتال المسلمين، وعدم فتن المسلم عن دينه، وقطـع الطـريق عليه أو قتله، أو معونـة المشـركين عليه في القتال أو التجسس، أو الإيواء، أو التعرض لدينه أو بنيه أو كتابه المقدس.

لـم يكـن العهـد الذي عقده الخليفة عمـر بـن الخطـاب مـع البطـريرك المسيحي ليسلم من الانـتهاكات ، فقد (أسـرف المتـوكل علـى الله، الخليفـة العباسـي في إعنات النصارى وإذلالهم ، وابتدع أشياء لم تكن من قبله ، وسار على أثره الخلفاء والملوك والسـلاطين والأمـراء، ولاسـيما فـي الدولـة المصـرية، وبلغـوا الغايـة فـي العسـف والتضـييق. فـأراد الفقهـاء والـرواة أن يجعلـوا لمجمـوع هـذه المظالـم أصلاً راسخاً في الشـرع ويصـححوا نسبتها إلـى السنة فاسـتعاروا لهـا سـلطة الإمـام عمـر بـن الخطـاب وأوهموا أنه هو من سنها ووضع قواعدها). (٥١)

وبلغـت حالـة الاسـتعلاء فـي عهـد بعـض الخلفـاء الأمـويين حـد مواصـلة أخـذ الجزية ممن أسلم من غير العرب. واستمر ذلك منذ عهد الخليفة هشام بن عبد الملك حتى تم إلغاؤها علـى يد الخليفة عمر بن عبد العزيز مشيراً في ذلك إلى أن الله بعث محمد هادياً. (٥٢)

مـع أن هـذا الخليفة كان أول من تشدد علـى النصـارى ومنـع أن يستعان بهم في الكتابة والتدبير وجباية الأموال، واشترط عليهم هيئات خاصـة في المشي والركوب فعرفت هذه الأوامر بالعمرية استناداً إليه. (٥٣)

ويلخص البطريرك إغناطيوس الرابع هزيم مجمل هذا الوضع بالقول:

باتـت العهـود التـي أعطيـت لأهـل الكتـاب أشبه بإطـار عـام لمنظومات قانونية تحـدد حقـوق أهـل الذمــة وواجـباتهم وتشـتمل الأولـى علـى الحفـاظ علـى الأبـدان والأرزاق واحـترام حـرية العبادة والعقيدة والإبقـاء علـى الكنـائس والأديـرة القائمـة والسـماح بترمـيمها ،مـن دون الحـق فـي بـنـاء غـيرها، أمـا الواجـبات، مقـابل هـذه الحقوق،فتتضـمن خضـوعاً للسلطة ممثلة بالخليفة وعامله ومعاونيه وتأكيداً للولاء مـن خـلال الامتـناع عـن الاتصــال بـالعدو بـل مراقـبة تحـركاته لمصـلحة الدولـة الإسـلامية.وتتضـمن أيضـاً استضــافة المحاربيـن لمـدة ثلاثـة أيـام وتأميـن بعـض المساعدات لهم على صعيدي التموين والنقل.

ويتابع القول: لكن أهـم الواجبات تأديـة الجزية، وهـي ليست كالصدقة التـي يدفعها المسلمون والضريبة العادية (بالمعنى الحديث للكلمة) فالجزية، لغة ، تتحمل معنى الجزاء ويرتبط ذكرها في القرآن بالصـغار، وهذا يفسر اعتراض عدد من المسيحيين العرب ، الذين لم يعتنقوا دين بني قومهم الجديد ، على معاملتهم كالعلوج.

ومن المعروف أن الخليفة عمر تجاوب مع اعتراض بني تغلب ،أخذاً بالحسبان عددهم ومكانتهم في العربية،فأعفاهم منها. (٥٤)

واستمر عهد الجزية إلى أكثر من ألف سنة،حيث ((ألغت الدولة العثمانية في عام ١٨٥٥ ضريبة الجزية،ولكنها ألزمت هذه الأقليات بدفع ضريبة (البدل) في مقابل عدم تأديتها للخدمة العسكرية ، وهي الضريبة التي عرفت بين العامة باسم (عسكرية – عسكر) بالعربية)) . (٥٥)

وكان قد سبق ذلك قيام حركة إصلاحات سياسية واجتماعية واسعة النطاق بين ١٨٠٨- ١٨٣٩ أدت إلى قيام السلطات بمنح المسيحيين واليهود حق المساواة مع الآخرين .وكان هذا مظهراً من مظاهر خضوع الدولة لضغوط القوى الأوربية الهادفة إلى تحسين وضع المسيحيين واليهود بهدف نيل تأييد القوى الأوربية التي أيدت الدولة إبان حربها مع روسيا (حرب القرم) خلال عامي (١٨٥٣-١٨٥٦) وقد أعلن حق المساواة لأول مرة في (خط شريف جولجانا) عام ١٨٣٩، الذي أعلنه السلطان عبد المجيد (١٨٣٩- ١٨٦١) وقد ورد مزيد من التفاصيل حول هذا الإعلان في الأمر السلطاني الصادر عام ١٨٥٦ (٥٦) .

تكيف المسيحيين مع الوضع الجديد

يذكر محمد جميل بيهم أن البيزنطيين فتحوا قبل العرب بلاد الشام ومصر والمغرب جميعه ، ولكنهم لم يفتحوا ، في الواقع ،إلا الأرضين رغم استعمالهم العنف، لأن الرعايا في تلك الأمصار لم يزدادوا في عهد الروم إلا تمسكاً بأديانهم و مذاهبهم ولغاتهم وتقاليدهم ،ولم يزدادوا أيضا إلا كرها لهم ومناوأة لهم .وأما العرب فما أن أقبلوا هذه الأقطار وغيرها حتى سارع الناس إلى الدخول في دينهم، أفواجاً أفواجاً، دون إكراه واختاروا لغتهم وشاركوا في بنيان حضارتهم.(٥٧)

وقد لعب المسيحيون دوراً هاماً في ظل الدولة العربية- الإسلامية إبان القرن الأول الهجري، حيث برزت مساهمة القبائل المسيحية (خاصة السريانية) في الفتوحات العربية وفي تثبيت أركان الحكم العربي. وبقيت جماعات كثيرة على دينها مثل أقباط مصر وموارنة لبنان وتغالبة الجزيرة وغيرهم. وكان نصارى الشام من القبائل التغلبية وهم سند معاوية والأمويين في الجيش وفي الأسطول. وبقيت إدارة الدواوين في أيديهم ، وسمح الخلفاء والولاة لهم ببناء كنائس جديدة وإبداء شعائرهم الدينية بالرايات والصلبان.

لم يعان المسيحيون في بلاد الشام الكثير من تبدل الأوضاع في السنوات العشر التي عقبت الفتح الإسلامي، فلم يلجأ الفاتحون إلى الشدة ليفرضوا على المغلوبين معتقداتهم الإسلامية بل لبثت سوريا بلداً مسيحياً فيها كنائس رائعة ذائعة الصيت على نحو كنيسة القيامة وكنيسة اللد والرها. (٥٨) وحافظت على طابعها

حتى نهاية الحقبة الأموية. وكان السواد الأعظم من سكان المدن مسيحياً. غير أن إلغاء معسكرات الجابية وعمواس ودابق دفع بعدد من المسلمين إلى الإقامة في المدن، في الأحياء المهجورة خاصة . لكن معظمهم مال إلى الإقامة في المدن الصحراوية الصغيرة كالرصافة وتدمر، فيما ظلت دمشق وإنطاكية وحمص والقدس محافظة على خصائصها القديمة. أما القبائل المسيحية- باستثناء التنوخيين والتغلبيين- فلم تتمسك بالمسيحية بل استميلت من غير إكراه ظاهر إلى اعتناق الإسلام.ورغم ذلك حافظ الكثيرون من أبنائها على عاداتهم المسيحية ولم يأنفوا من تعلق ذويهم ونسائهم بدينهم الأول. (٥٩)

منذ العام ٦٣٤م رحب المسيحيون بالفاتح المسلم ترحيبهم بحامل لواء التحرير، أو بأحد الأخوة ، وذلك ضد المحتل البيزنطي . نظراً للقرابة التي ربطت القبائل العربية المسيحية مع بعضها البعض بين الجزيرة العربية وسوريا الطبيعية.

ربما كان لهذا الأمر أنه في العصر الأموي ، كانت كل الإدارة المالية والمحاسبية في أيدي المسيحيين حتى الأسطول البحري . يقول المطران خضر (تصوروا مثلاً أن منصور بن سرجون الذي هو جد القديس يوحنا الدمشقي وهو المسيحي الذي يصلي يوم الأحد ويتناول ، أرسله البلاط الأموي إلى ميناء طرابلس كي ينشئ أسطولاً ضد البيزنطيين) ويضيف المطران خضر(لم يكن عندنا مشكلة مع الحكم لأننا كنا الأكثرية الساحقة بل كان هناك نوع من الافتخار المسيحي في بلاد الشام، حيث كان الأخطل يدخل بصليبه الكبير على الجامع الأموي، لم يكن عند المسيحيين عقدة نقص) (٦٠)

وخلال القرن الأول للهجرة ، وكانت الذمة تلعب أول أدوارها، ماكان ولاء الشعوب المسيحية تشوبه شائبة. وبالرغم من اضطهادات عبد الملك في أوائل القرن الثامن، والتدابير المؤذية التي ولدها التعصب الديني، والتي اتخذها عمر الثاني بعد ذلك التاريخ بعشرات السنين وبالضبط عندما بدأت في بيزنطة أزمة الأيقونات اعتباراً من (٧١٧م) ما كان المسيحيون ليتخلوا عن ولائهم للمملكة العربية الأموية. وكثير منهم دفعوا دماءهم ثمناً لذلك على يد العباسيين المجتاحين اعتباراً من السنة ٧٥٠ وما يليها . وفي آخر المطاف يمكن لنا أن نؤكد أن ولاء العرب المسيحيين للأمويين هو الذي جعل خلفاء بغداد يعتبرونهم طابوراً خامساً. وهذا التوتر بين العرب والمستعربين الذين تغلبوا على يد العباسيين خطوة أولى نحو موقف المسيحيين من غزوات القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر وهي غزوات الصليبيين والمغول. فيما أنهم ألغوا وضعهم كأقليات خاضعة للسلطة الحاكمة، ولم يفقدوا الرغبة في أن يصبحوا هم أيضاً أهل استقلال، صاروا يلعبون لعبة الوصولية ويخسروا في النهاية على كل الجهات (٦١)

إذا أعدنا قراءة الأحداث التي تخص المسيحيين في ظل الحكم العربي-

الإسلامي نرى أن أوضاعهم في نهايات القرن السابع الميلادي أخذت تتغير مع تعريب عبد الملك لغة الدواوين والاستغناء عن كثير من الموظفين النصارى والضغط الذي تعرض له بني تغلب لحملهم على الدخول في الإسلام. وتعهد الفقهاء حقوق الذميين وواجباتهم بالذكر والشرح والتفصيل، مع الازدياد في القيود. وبقي الخلفاء والولاة أكثر منهم تسامحاً، فكثيراً ما قربوا إليهم المسيحيين واستعانوا بهم وقدّروا علمهم وخدمتهم في الطب والفلسفة والكتابة.

ومن الأمثلة على ذلك ما نذكره (حين بويع عبد الملك ابن مروان سنة ٦٨٤ أقر أخاه عبد العزيز عاملاً على وادي النيل وعين أثناسيوس برجوميا السرياني الرهاوي كاتباً ومدبراً له. فكان في يده الحل والعقد وظل فيها هو وأولاده واحد وعشرين سنة. وابتنى كنيستين في الفسطاط وهو على ما نعلم أول موظف مسيحي تولى الإدارة في القطر المصري بعد الإسلام) (٦٢) فيما نكل بهم المتوكل واضطهدهم وحظر عليهم تدريس اللغة العربية ودخول المدارس العامة.وقد عرف ما اتصف به هذا الخليفة من ضيق الفكر والتعصب الشديد لآرائه، فاضطهدوا النصارى كما اضطهد جماعة المعتزلة من المسلمين.

ومع أن هذه القيود أضعفت من نفوذ النصارى وقللت عددهم فقد بقي لهم شأن يذكر حتى نعموا بالحرية التامة في ظل الدولة الطولونية، مع تمتعهم بنفوذ عظيم، حيث شغلوا المناصب العالية في عهد الفاطميين بمصر. وشذ عنهم الحاكم بأمر الله الفاطمي ، فاضطهد النصارى وهدم كنيسة القيامة في القدس عام ١٠٠٩ ثم رجع عن غيه قبل دنو أجله.

واختلط المسيحيون بالمسلمين في المجتمع العربي- الإسلامي، واصطبغت علاقاتهم المتبادلة إجمالاً بصبغة المودة. وما توترت إلا نادراً كما حدث ذلك بعد انتصار الروم في القرن العاشر على الجيوش الإسلامية، فهدم المسلمون بعض كنائس النصارى . ولم تكن القيود والمضايقات إلا لفترة وجيزة ، فكانت تزول كالعاصفة ، فيعود الصفاء ، ويرجع المسلمون والنصارى إلى الألفة وحسن الجوار.(٦٣)

ويمكن القول أن النصارى نعموا في العصور العربية- الإسلامية الزاهية، رغم القيود وعدم المساواة في الحقوق، باحترام المسلمين وتقديرهم، فكان لهم شأن في الدولة تمكنوا به من المحافظة على معظم كنائسهم وديورتهم.

كسب المسيحيون الكثير من القرون الثلاث الأولى لمجيء الإسلام إلى ديارهم،وبقدر ماكسبوا فقد أكسبوا إخوانهم المسلمين ثقافة العلم والأدب والفن، واصبح هناك تبدل جذري في الفكر والسلوك نقل العرب من البدائية إلى مراتب الرقي الذاتي والتحرر الإنساني تمثل بعدة ميزات حية.

ولعل أهم ما أكسب المسيحيين ثقتهم بنفسهم هو ترحيب الخلفاء بهم وبجهدهم،

http://www.al-maktabeh.com

وهو ما جعلهم قريبين منهم ،مع إعطائهم الأمان وتقدير الجهد، وتجلى هذا الجهد فيما أسهمه هؤلاء في الحضارة العربية الإسلامية.

ويمكن لنا أن نتخيل موقفاً مغايراً بعد ألف عام حين احتقر موسوليني (١٨٨٣-١٩٤٥) دكتاتور إيطاليا، الفكر والعقل والثقافة . فلقد صرح في خطاب له (٧/٩/١٩٣٤): (إن عصر الفاشية سوف يشهد نهاية النشاط الفكري ، ونهاية المفكرين العقم والذين يشكلون خطراً على الأمة!) (٦٤) ولاعجب، فالعالم قد عرف على مدى حقبات التاريخ مثل هذه النزوات التي تبغي من وراء قتل الفكر وطمس العلم قمع كل حركة نقد وإعادة نظر في الأمور الفكرية والعلمية والدينية.



حواشي الفصل الأول

١- علي ، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام عشرة أجزاء ج ٢ بيروت: دار العلم للملايين ١٩٧٨ ص ٢٢٦-٢٣٠

٢- الدوري، عبد العزيز: التكوين التاريخي للأمة العربية... دراسة في الهوية والوعي ط ٣ بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٦ ص ١٩

٣- القرآن الكريم سورة يوسف الآية ٢

٤- القرآن الكريم سورة الزمر الآية ٢٨

٥- القرآن الكريم سورة الزخرف الآية ٣

٦- القرآن الكريم سورة فصلت الآية ٣

٧- القرآن الكريم سورة النحل الآية ١٠٣

٨- القرآن الكريم سورة الأحقاف الآية ١٢

٩- القرآن الكريم سورة إبراهيم الآية ٤

١٠- الليندي، إيزابيل : باولا (رواية) ترجمة صالح علماني حمص: دار جفرا للدراسات والنشر ١٩٩٦ ص ٦٣

١١- هناك عرض قيّم لهذا الكتاب ترجمه وقدمه د. خليل أحمد خليل في صحيفة السفير- بيروت١٦/٩/٢٠٠٢

١٢- صحيفة السفير ١٦/٩/٢٠٠٢ مصدر سابق

١٣- ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون بيروت: دار إحياء التراث العربي طبعة ٣ ص ٢٧٠

١٤- مجلة المشرق- بيروت السنة ٣٠ شباط ١٩٣٢ ص ١٠١ الأب هنري لامنس

١٥- حوراني، ألبرت: الفكر العربي في عصر النهضة بيروت: دار النهار ١٩٧٧ ص٥٠

١٦- أفغراف، سمير نوف: تاريخ الكنيسة تحقيق وترجمة ألكسندروس مطران حمص وتوابعها للروم الأرثوذكس حمص : مطبعة الفجر ط ٩ عام ١٩١١ ص ١٩٤

١٧-أفغراف، سمير نوف: مصدر سابق

١٨- أفغراف، سمير نوف: مصدر سابق ص ١٩٥

١٩- راجع كتاب: يعقوب الثالث ، البطريرك أغناطيوس : الشهداء الحميريون العرب في الوثائق السريانية دمشق (بدون تاريخ واسم الناشر) ففيه المزيد عن انتشار المسيحية في هذه الرقعة من العالم.

٢٠- نخبة من الأساتذة : قاموس الكتاب المقدس بيروت: مكتبة المشعل الطبعة السادسة ص ٨٦٠ مصدر سابق
٢١- لوقا ١: ٢٦
٢٢- متى ٢: ٢٣
٢٣- لوقا٣ : ٢٣ ومرقس ١: ٩
٢٤- متى ٢١: ١١ ومرقس ١: ٢٤
٢٥-أعمال ٢ : ٢٢
٢٦- متى ٢٦: ٩
٢٧- يوحنا ١٩ : ١٩
٢٨-البقرة ٢: ٦٢ و ١١١ و ١١٣ و ١٢٠ و ١٣٥ و ١٤٠
٢٩- المائدة: ٥: ١٤، ١٨-٥١، ٦٩-٨٢
٣٠- التوبة ٩: ٣٠ الحج ٢٢: ١٧
٣١- آل عمران ٢٠
٣٢- الحداد ، الأستاذ (الأب يوسف ندرة الحداد) القرآن دعوة نصرانية بيروت: منشورات المكتبة البوليسية ط ٣ ص ١١٨
٣٣- الحداد، الأستاذ مصدر سابق ص ١٢١
٣٤-القرشي، أبو زيد محمد بن الخطاب: جمهرة أشعار العرب بيروت: دار بيروت ص ٨٠
٣٥- حتي، فيليب : تاريخ العرب مصدر سابق ص ١٣١
٣٦- حتي، فيليب: تاريخ العرب مصدر سابق ص ١٤٠
٣٧- داود، الأب جرجس داود: أديان العرب قبل الإسلام بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ١٩٨١ ص ٨٤
٣٨- ابن الأثير: الكامل في التاريخ بيروت: دار الكتاب العربي ص ٢٤٣
٣٩- مكي، الطاهر أحمد (تحقيق): امرؤ القيس حياته وشعره مصر: دار المعارف ط ٢ ١٩٧٠
٤٠- الأصبهاني، أبو الفرج، علي بن الحسين: الأغاني بيروت: مؤسسة جمّال للطباعة ص ٨ /٦٢
٤١- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري، العافري: السيرة النبوية تحقيق القار الأبياري الشلبي بيروت: دار الكنوز الأدبية
٤٢- القرشي، أبو زيد محمد بن الخطاب: جمهرة أشعار العرب بيروت: دار بيروت ص ٨٠
٤٣- ابن هشام: مصدر سابق
٤٤- حمزة، نديم نايف: التنوخيين بيروت : دار النهار ١٩٨٧ ص ١٩

٤٥- الطبري، محمد بن جرير: تفسير الطبري ط ٢ القاهرة: طبعة بولاق ١٩٥٦
٤٦- يعقوب الثالث ، البطريرك اغناطيوس: الشهداء الحميريون مصدر سابق
٤٧- المسعودي، أبو الحسن علي بن علي: مروج الذهب القاهرة : المطبعة المصرية ١٣٤٦ هـ
٤٨- مجلة الرعية- بيروت العدد ٣٥٠ كانون الثاني ٢٠٠٠ ص ٤٢ كريستيان الحلو
٤٩- مجلة النشرة- عمان العدد ١٥ صيف ٢٠٠٠ ص ١١ الأرشمندريت الدكتور قيس صادق
٥٠- مجلة المسرة- حريصا ك ٢- حزيران السنة ١٩٩٠/٧٦ ص ١٣٧ الأب سمير خليل مصدر سابق
٥١- مجلة المشرق- بيروت ك٢- آذار ١٩٤٨ السنة ٤٢ حبيب الزيات ص ٢
٥٢- النقاش، رجاء: الانعزاليون في مصر.. رد على لويس عوض وتوفيق الحكيم وآخرين بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨١ ص ٣٥
٥٣-ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز مصر (القاهرة) المطبعة الرحمانية ١٩٢٧ ص ١٦٥-١٦٦
٥٤-هزيم، البطريرك اغناطيوس الرابع (مساهمة) في كتاب : المسيحية عبر تاريخها في المشرق بيروت: مجلس كنائس الشرق الأوسط ٢٠٠١ ص ٤٧٨
٥٥- أتينجر، صموئيل: اليهود في البلدان الإسلامية ١٨٥٠-١٩٥٠ ترجمة د. جمال أحمد الرفاعي سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١٩٧
٥٦- عبد، سمير: اليهود السوريين دمشق: منشورات دار حسن ملص ط٢ ٢٠٠٤ ص٤٦
٥٧- بيهم، محمد جميل: العروبة والشعوبيات الحديثة بيروت: دار الكشاف ص ٨١
٥٨- الجاحظ، أبو عثمان: كتاب الحيوان القاهرة ١٩٣٨ الجزء الأول ص٢٩
٥٩- هزيم: المسيحية عبر تاريخها في الشرق مصدر سابق ص ٤٨٢
٦٠- صحيفة النهار- بيروت ٢٠٠١/٣/٢٤ ص ١٨ من تصريح للمطران جورج خضر
٦١- كوربون، جان: كنيسة المشرق العربي مصدر سابق ص ٣٨
٦٢- قرألي، الخوري بولس: السوريون في مصر القاهرة : المطبعة السورية ١٩٢٨ ص٧٠

٦٣- يتيم، الأب ميشيل. ديك، الأب اغناطيوس: تاريخ الكنيسة الشرقية حلب: مطبعة الإحسان ١٩٦٣ ص ١٥٤

64-Daniel guérin: Eascirme et grand capital, Paris, maspero 1975 P 159

http://www.al-maktabeh.com

●١/ هل تعتبر اللغة العربية بشكلها الحالي هي نهاية المطاف، كما يوحي لنا من يقولون أن لغة القرآن أتت منها.

والواقع أن مانستخدمه من لغة القاموس اليوم لايزيد عن ٣ ألاف كلمة من أصل متوسطه ٨٠ ألفاً (فالعربية في المستقبل ستتكون من فصحى جديدة لها علاقة بالقديمة وما جدد بها وباللهجات ليفهمها الجميع تماماً كما كانت الفرنسية أيام نابليون بلهجاتها تجبر الإمبراطور على الاستعانة بالتراجمة بين جولاته إلى أن توحدت نسبياً اليوم وليست هي اللغة الفرنسية لعصر موليير وراسين وكورناي)

× صحيفة السفير- بيروت ٢٠٠٢/١/١٥ من حوار فرج الله صالح ديب أجراه اسكندر حبش

● /٢ يرى صباح ياسين أن مفهوم القبيلة يشير في الغالب إلى تغليب المجموعة القبلية للهوية التضامنية، مقابل مفهوم النزعة الفردانية، ووجد البعض أنه ينازع الإيديولوجيا الوطنية والقومية. ومع ذلك فإن الدلالة على مفهوم (القبيلة) بالصيغة التضامنية قد يترافق مع الفترات التاريخية التي يسود فيها التأزم، وعند ذلك تتحرك النزعة القبلية باعتبارها مجسدة للهوية والخصوصية ،ومدافعة عنها عندما تتعرض للتحديات الخارجية

× مجلة المستقبل العربي – بيروت العدد ٣٠٢ نيسان ٢٠٠٤ ص ١٧

●٣/ كان يسكن مدينة يثرب بعض المسيحيين وبقوا فيها حتى الهجرة وبعد موت الرسول، وهذا مانفهمه من شعر لحسان بن ثابت الشاعر المخضرم في رثائه للنبي:

فرحت نصارى يَثرب ويهودُها لما توارى في الضريح الملحد×

× الأنصاري، حسان بن ثابت : ديوان حسان شرح محمد عزت نصر الله بيروت: دار إحياء التراث العربي ص ٦٤

●٤/ تزوج الرسول الكريم من ماريا القبطية دون أن يكرهها علة تغيير دينها×

× صحيفة سومر- بيروت العدد ٢ ١٩٩١/١١/١٨

●٥/ هؤلاء هم السريان والأرمن والأقباط

●٦/ أعطت بصرى أول أباطرة روما المسيحيين وهو فيلبس العربي الذي حكم بين سنتي ٢٤٤ و ٢٤٩

●٧/ هناك الكثير من التأكيدات على انخراط أبناء القبائل العربية في السلك الكهنوتي المسيحي. وعلى سبيل المثال قصد مجمع القسطنطينية المسكوني عام

٣٨١م خمسة أحبار من الإقليم العربي، وهم أحبار بصرى ودرعة والسويداء وبراق وشيخ مسكين (أو خان النيلة). وفي مجمع خلقيدونية (٤٥١م) أي المجمع المسكوني الرابع، اعترف آباء المجمع رسمياً بتبعية الإقليم العربي إلى بطريركية أنطاكية، رغم محاولة الأسقف الأورشليمي مد سلطته شرقاً. ولكن اتبعت ولاية فلسطين الثالثة التي ضمت أجزاء من الإقليم العربي إلى كرسي أورشليم الذي رقي إلى مقام بطريركي. جلس في هذا المجمع المسكوني الرابع سبعة عشر حبراً من الإقليم العربي وهم أحبار درعة وعينة وقنوات وبراق اللجا والسويداء وصنمين وحسبان وأفتيمية وجرش ومأدبا ولاشقا وخان النيلة (أو شيخ مسكين ونوى وعمان والشهبا واذرع)

●٨/ لمعاهدة نجران ، وهي أول معاهدة وقعها الرسول، أهمية رئيسة لأنها غدت نموذجاً للمعاهدات التي عقدها المسيحيون الذين سلموا مدنهم للفاتحين المسلمين لاحقاً من دون قتال


مكتبة الممهدين الإسلامية لمقارنة الأديان

الفصل الثاني

إسهام المسيحيين
في الحضارة العربية- الإسلامية
في القرون الأولى للإسلام


www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين

تلاقي الثقافة المسيحية

بالحضارة العربية-الإسلامية

هناك فارق بين الحضارة والثقافة ، فالحضارة تتعلق بأسباب العيش وأدواته ومستواه بقدر ما تتوقف على أنماط الإنتاج ووسائل النقل وتقريب للهويات الثقافية والخصوصيات المجتمعية ، أما الثقافة فإنها تتعلق بأنظمة المعنى ومنظومات القيم وعناوين الوجود كما تتجلى في العقائد والفلسفات أو في الفنون والآداب أو في القوانين والشرائع. (١)

ويقارب من هذا القول البطريرك مار نصر الله صفير حيث يقول:

في لبنان ديانتين : المسيحية والإسلامية ولكل ديانة نظرتها إلى ما يمت بصلة إلى الإنسان والمجتمع، وانطلاقا من هذه النظرة يمكن القول إن هناك حضارتين،ولكن هذا لا يمنع أن يكون المسلمون والمسيحيون في لبنان في وطن واحد وتحت سقف واحد لهم تاريخ مشترك واحد وتراث واحد، وإنما الثقافة ،قد تختلف لأن بينهم من يتطلع إلى ثقافة الغرب وبينهم من يتطلع إلى ثقافة الشرق. (٢)

وعلى هذا يمكن القول إن مسيحيي الهلال الخصيب، بفضل علمهم وبراعتهم، وهم أصحاب ثقافات في بلدانهم،تقبلوا العرب البدو منهم أو الرعاة الرحل، والأولين من هؤلاء هم أكثريتهم من البدو الذين استوطنوا المدن والقرى فتحضروا وكانوا منفتحي الذهن لقبول المعارف على اختلاف أنواعها. حتى أن من يصادف البدوي لأول مرة، يرى فيه، على رغم مظاهره الجافية ، صفات متعددة تميزه عن أفراد القبائل المتأخرة.

(إن يكن للصحراء المقفرة من فضل فهو ظاهر في خلق البدوي وأشهر صفاته الخلقية . وهذا أمر جدير بالانتباه، فإن الصحراء بمناخها الشديد، وأحوال معيشتها الصعبة، والمشاق العديدة التي تحمّلها سكانها، وبيئتها القاسية ،تقتل دون شفقة كل طفل ضعيف البنية بل كل فرد لايقوى على مقاومة تلك العناصر، فتنتج شعباً منتخباً، يمثله البدوي بما يبدو فيه من هيئة العزم، ومظهر الرجولية) (٣)

جاء العرب من الجزيرة العربية، إلى البلاد الفارسية والبلاد المستعمرة رومانياً، دون أن يصطحبوا معهم شيئاً من العلوم والثقافة لعدم عنايتهم بها كما يخبرنا العلامة ابن العبري نقلاً عن القاضي صاعد ابن أحمد الأندلسي، إلا تراثاً من الشعر العربي فيه شيء من الحكم (خطرات فكر) كما يظهر من معلقة زهير ابن أبي سلمة، وما توصلوا إليه من العلوم الضرورية كالطب المبني على التجربة نظراً لحاجتهم إليه، وأحوال الكواكب والنجوم . غير أنه رافقهم نهم شديد إلى العلم، ولغة عربية ، الأمور التي عملت مشتركة على إضرام شرارة الحضارة العربية التي

http://www.almaktabeh.com

يفاخر بها العرب أهل الدنيا طرا.
ولا غرو أن العلم في الإسلام عقيدة على حد قول الأحاديث الشريفة (من سلك طريقاً يطلب علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة) و (يوزن مداد العلماء بدم الشهداء) و (طلب العلم فريضة على كل مسلم) لذا وقع المسلم في هوى العلم، وعشقه، وقدسه، ورفع ألويته فوق النجوم، وأكرم رجالاته ، وأكب عليه بكل جوارحه، وراح ينصرف للحصول عليه انصرافاً منقطع النظير، يرتاد ينابيعه أيا كان نوعها،عملاً بقول الحديث (خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت). وقد نسب الدكتور ميلر بروز الأستاذ بجامعة بيل في محاضرة ألقاها في مؤتمر برنستون عام ١٩٥٣ جلاء الحركة الفكرية لدى المسلمين والمسيحيين إلى دينهما،قال أن معضلات فلسفية ولاهوتية مشتركة دفعتهم إلى ذلك وقال أيضاً (لا يزال إلى الآن المسلمون والمسيحيون يقفون الموقف ذاته يواجهون المعضلات التي يثيرها العلم الحديث من المبادئ الهدامة المفسدة وغيرها)، كما لا ننسى أهمية روح تسامح الدين الإسلامي الذي ينجلي في مبالغة إكرام العلماء الذين هم ليسوا عليه، وفي عهد الأمويين إبان الفتح، تركوا المدارس الكبرى المسيحية وغيرها قائمة في إنطاكية وحران ونصيبين لم يمسوها بأذى إكراماً للعلم، وحفظاً لأمهات الكتب الفلسفية والعلمية التي كانت محتفظة بها ومعظمها في ترجمته السريانية (٤).

تعامل السريان مع العرب- المسلمين

حين فتح العرب الشرق الأدنى في السنين ٦٣٢- ٦٤١، ضمت سوريا وفلسطين والعراق ومصر وفارس إلى الإسلام في هذه الفترة الزمنية القصيرة، وكان معظم سكانها من المسيحيين الذين أخضعوا للنظام الإسلامي حيث تحول العديد منهم إلى الإسلام ،ومن ذلك القرانات بالمسلمين.
ويمكن الحديث هنا عن هذه الفترة حيث كان عدد كبير من أتباع الخلقيدونية من السكان الأجانب – اليونان- قد خرجوا مع الجيوش البيزنطية .ولذلك فأكثر الذين ظلوا في البلاد هم عرب أو سريان أو بعض اليونان الذين فضلوا بيوتهم على البيوت غير المعروفة.
كان السريان هم أكثرية السكان في سوريا أو على الأصح في حدود بطريركية إنطاكية . إذ أنهم كانوا سكان الريف وسكان البادية وسكان المناطق التي كانت بين الريف المزدرع والبادية الجافة . وقد اقتصر المسيحيون الرسميون الملكيون – الروم - ١/● على سكان المدن فقط. (ولكن هؤلاء هم الذين كانوا المعترف بهم رسمياً). (٥).
ولما دخل العرب بلاد الشام كان بطريرك إنطاكية هو أثناسيوس الجمّال بطريرك السريان المونوفيسيين ، وكان الملكيون (ومؤرخهم فيما بعد) يعدّون هذا

البطريرك انه شبيه بالرسمي.
على أي حال ، أفاد السريان من ذلك فأعانوا الفاتحين ،وكان هذا الموقف طبيعياً لأن الكثيرين من المونوفسيين كانوا إخواناً بالدم واللغة للعرب الفاتحين- ●/ ٢مثل الغسانيين ومن سار مسيرتهم. (٦)
اعتبر السريان العرب محررين لهم، بسبب الغباء البيزنطي الرسمي، وجعل الدولة الجديدة تتكرم على السريان بأمور كثيرة. فكانت هذه الحرية التي تمتع بها المسيحيون في تصرفاتهم.
ولما عاد السريان إلى انتخاب بطاركة لهم●/٣ لم يقم هؤلاء البطاركة في إنطاكية بل ظلوا بعيداً عن إنطاكية في مدن سوريا الشمالية تارة ،وتارة في ملطية من مدن أرمينيا الصغرى، وحينا في ديار بكر، وأخيراً في دير الزعفران إلى بدايات القرن العشرين.
يتفق المسيحيون على أن تصرف أهل الحكم من المسلمين كان، خاصة في الفترات الأولى، يتصف بالتسامح والعدل. إلى هذا فقد كان العرب تواقين للإفادة مما كانت الجماعات والشعوب المتحضرة والسابقة في ميادين المعرفة تكتنزه من الخبرات .وهذا يفسر المركز المرموق الذي شغله العلماء اليعاقبة والنساطرة في بلاط الخلفاء والمجالس.
وحري بنا أن ننتبه لأمر كان على غاية الأهمية بالنسبة إلى اليعاقبة- السريان. كانت نتيجة الفتوح العربية أن أصبحت بلاد الشام وأرض الرافدين وفارس تحت حكم عربي واحد . ومن ثم فقد زالت الحدود التي كانت تفصل بين البلد الواحد والآخر (وكانت حدوداً حارة في أكثر الأحيان) . والتنقل الذي أصبح الآن متاحاً للجميع أفاد منه اليعاقبة في أنهم نشطوا للتبشير بآرائهم ومذهبهم في تلك المناطق النائية في الشرق حيث كان للنساطرة ما يشبه العمل الاحتكاري قبلاً. من الواضح أن اليعاقبة ماكان باستطاعتهم أن يزاحموا النساطرة في أواسط آسية والشرق الأقصى . إلا أنهم الآن انفتحت أمامهم الأبواب المغلقة فانطلقوا بالنشاط الكبير. ويجب أن نتذكر أن اليعاقبة كان لهم موطئ قدم في تلك الأصقاع من قبل (٧).
وكان لليعاقبة – السريان – قدم في العراق، عدا سوريا، حيث كان مفريان السريان (وكيل البطريرك) ماروتا (٦٢٩-٦٤٩م) الذي كان يتبعه خمسة عشر أسقفاً في أرض الرافدين وفارس، وكان له مكانته واحترام الحكام له إبان انتشار الإسلام في تلك البلاد.
تمركز السريان في دير ●/٤ كنشره، الواقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات. هناك درس ماروتا ،وفيه علم الأسقف سفيروس المتوفي عام ٦٦٧م ، وكان ضليعاً في المعارف الهلينستية من فلسفة ورياضيات وفلك . فضلاً عن ذلك فقد كان

لاهوتياً كبيراً. وقد كان ، ولاشك ، واحداً من الطلائع في تسويق العلوم الهلينستية السريانية،دراسة وتأليفاً وصناعة (الإسطرلاب) . وكان سفيروس من كبار المدرسين والمنظرين هناك. (٨)

وممن تخرج من هذا الدير وكان له شأن كبير يعقوب الرهاوي (٦٣٣ - ٧٠٨م) الذي كان أسقفاً ولاهوتياً وكاتباً قديراً في الفلسفة.

أما النساطرة أو السريان الشرقيين ،فقد كان لهم نشاط كبير في كافة الميادين من العراق وأنحاء من فارس. وقد انتظم أمر الكنيسة النسطورية من خلال المجمع المحلي الذي عقد عام ٤١٠م في سلوقية – دجلة ، أي كتيسفون عاصمة الدولة الساسانية. وقد أكد مجمع مركبتا (٤٢٤م) هذا الأمر واعترف برئيسها دَديشوع على أنه بطريرك المشرق (٤٢١-٤٥٦ م) وسمح له بأن يتخذ من العاصمة الساسانية نفسها مقراً له.

ويمكن القول أن شؤون النساطرة ازدهرت في العهد الإسلامي المبكر، ذلك أن المسيحيين كانوا يتمتعون ،في دولة الخلافة، بمنزلة خاصة بالنسبة إلى غيرهم من أهل الذمة ، وحتى الكتابيون منهم . ويعود ذلك إلى علمهم وخبرتهم ، فقد كان للنساطرة مراكز علمية هامة في نصيبين وجنديسابور ومرو مثلاً . وقد زودت هذه المدارس دوائر الدولة بالموظفين والمحاسبين والكتاب اللازمين لتيسير الأمور والأعمال.

(ولعل من أطرف ما روي أن أحد أفراد حاشية هارون الرشيد (٧٨٦- ٨٠٩م) واسمه حمدون أنبأ الخليفة بأن بعض المسيحيين يعبدون عظام الموتى في كنائسهم في البصرة والأبلة، فأمر الرشيد بهدم هذه الكنائس. لكن لما اتضح للخليفة أن التهمة باطلة أمر بإعادة بنائها). (٩)

عرف العرب قدر النساطرة في العراق لهذا تركوا لهم الكثير من الحرية والامتيازات . (ولعل من خير ما يمكن أن يقدم مثلاً على ذلك هو أن الخليفة المعتضد (٨٩٢-٩٠٢م) عين نسطورياً والياً على الأنبار ، الواقعة شمالي العاصمة العباسية) .

لا يحول استشهادنا بالسريان اليعاقبة والنساطرة في الأسطر الماضية دون التنويه بدور الطوائف الأخرى في تلك الحقبة، فالروم والأرمن والأقباط ومن ثم الموارنة ،وهم فئة من السريان – لعبوا أدواراً مختلفة في هذه المنطقة إلى الآن. ولكن السريان بتسمياتهم المختلفة لعبوا دوراً مركزياً في سوريا والعراق إبان حقبة الخلفاء الأمويين والعباسيين الذهبية مما لايمكن تجاهله.

لقد لعبت الأديرة في سوريا والعراق دوراً مهماً في توعية وتثقيف المسيحيين وتخريج كهنة يتقنون الكثير من المعرفة، إضافة إلى علمهم الكهنوتي ،ولم يكن ثمة ما يمنع أياً كان من متابعة دروسه في دير هنا أو دير هناك.

كما أن أصحاب السلطان كانوا يحتضنون العلماء ويسمحون لهم بالعمل ويكرمونهم في البلاط وهو ما شجعهم على نقل الآثار القديمة إلى العرب والعربية. وبسبب اهتمام المسيحيين بالنواحي التجارية، فقد كانوا أثرياء ، وهذا كان له أثر كبير على مؤسساتهم من كنائس وأديرة ومكاتب ومدارس وغير ذلك.

الأرضية السورية في منظومة الحضارة العربية- الإسلامية

ينسب إلى أحد المؤرخين متكلماً عن دور سوريا في العالم القديم قوله (كان أهلوها من ممدّني العالم وحاملي لواء الحضارة إلى الشعوب) . وإن التاريخ ليكشف لنا الستار عن حقيقة هذا الدور متى تصفحناه، ووقفنا على حياة ذاك الشعب السوري وأعماله الخطيرة في سبيل رقي المعمور وتقدمه.

فقد حمل الشعب السوري إلى أطراف الأرض ، على شراع تتقاذفه الأمواج ويتقلب مع مهب الريح، ثمرات روحه النشيطة ،وعلم الأمم أساليب الزراعة والصناعة والتجارة ، ووضع تلك الحروف العجيبة التي نجعل منها قوالب لسكب أفكارنا ، ففي سوريا أيضاً عاش من كان لهم الفضل في نشر الفكر اليوناني في الشرق، في حمل ثمرات عقول فريدة إلى مدنية لم تحلم بمثلها من قبل... ويقصد بهؤلاء المترجمين السريان وغيرهم الذين استقوا عن الإغريق فلسفتهم وعلومهم، ووضعوها في اللغة السريانية أولاً ثم نقلوها إلى العربية ، لغة الإسلام في العصور العباسية.

ومهما يكن لفتوحات الإسكندر في سوريا من معنى فقد كانت بطريقة أو أخرى واسطة لتعارف الغرب والشرق، واحتكاك مدنيتين عريقتين في القدم.. من جهة حضارة الإغريق التي كانت إذ ذاك في أوج علاها،وحضارة شعوب تفتخر بأنها مهد الرقي والعمران كالآشوريين والفرس والهنود والسوريين.

لايمكن المرور على هذا (الاستعمار) مرور الكرام، صحيح أنه استعمار استيطاني ،ولكنه بلغة ذاك الوقت أحدث تلاقح حضاري بين الغرب والشرق وكان على رأسه إسكندر المقدوني، أحد قادة التاريخ العظام.

وكان لهذا التلاقح الحضاري أثر كبير على السوريين حتى أنهم انصبغوا زمناً بحضارة اليونانيين وتمثلوا منذ البدء بمقدرة غريبة كل ما شاهدوا فيه غذاء حياتهم المادية والروحية. ولم يكادوا يتعرفوا إلى علوم الإغريق ومعارفهم حتى فهموا ما بوسعهم أن يكتسبوا منها، وأخذوا بكل نشاط يقتبسوا دون أنفة ولاخجل من منتوجات مشاهير اليونان، ويدرسوا على فاتحيهم آثارهم النفيسة، حتى باروهم أو أوشكوا،وغدت البلاد السورية إغريقية ثانية . ومن العلوم التي أخذها السوريون عن

اليونان وبرزوا بها كانت الفلسفة ، فكان السوريون يشتغلون بهذا النوع مستخدمين لغة اليونان أو لغتهم بواسطة المترجمين الذين نقلوا إلى السريانية.

http://www.al-maktabeh.com

ومن يدرس الفتوحات العربية يقف على ما كان للسوريين من دور في ذلك، ففي عهد الدولة الأموية لعبوا دوراً مهماً في إنشاء دولة بعيدة عن مفهوم القبيلة مصبوغة بمدنيتهم، ومشوا في طليعتهم نحو الفتح، كذلك مرنوهم في فنون الحرب، وجعلوا من قبائلهم جيوشاً منظمة ودولة مهابة .وقد عرف معاوية فضل السوريين وفهم أنهم وحدهم لحريون أن يكونوا أساس مملكة واسعة ودعائم ملك عظيم ،فقربهم إليه واستفاد من خدماتهم الجليلة . فكنت ترى إذ ذاك المهندسين والبنائين وأرباب الحروب والبحريين والكتبة والصيارفة وأصحاب الدواوين سوريي الجنس، حتى أن أهل الجزيرة أخذوا بالتشاؤم ، وخافوا على نفوذهم تجاه هذه السيطرة السورية الراقية.

وبانتقال الخلافة إلى الدولة العباسية ضعف نفوذ السوريين الذي عرف لهم أيام الأمويين ، بعد أن انتقلت عاصمة العرب من سوريا إلى العراق، وحلت بغداد محل دمشق الشام. ومع ذلك لم يتلاش هذا الدور، وتأثير مدنيتهم لم يزل لأنهم كانوا حملة العلوم والمعارف إلى العرب وناشريها منذ ذاك الزمن.

وجد العرب في فتوحاتهم مسيحيين ينتمون إلى ثلاث ثقافات مختلفة (اليونانية والسريانية والقبطية)، سبقها تقليد ثقافي طويل، ذلك بأن الأوساط المثقفة في سوريا (لامصر) كانت مشرّبة حضارة هلينية. ووجدوا أيضاً حضارة لامعة، تظهر في الفن والتقنيات والهندسة المعمارية.

لقد تفاعل السوريون مع العرب تفاعل المزج والاختلاط منذ أكثر من ٢٥٠٠ سنة، وإن بدت السمة العربية تأخذ بالاتساع منذ فتح العرب لسوريا في القرن السابع ميلادي، وهو ما أعطى مؤشر المزج والاختلاط. بيد أن سوريا قبل هذه الفترة ولغاية الفتح العربي سادت بها الثقافة المسيحية كما ذكرنا. مع تأثير الثقافة البيزنطية على هذه البلاد في ميدان الحرب والقتال وفن المعمار، حتى أن السوريين أجادوا في ذلك وبقي أثرهم على ذلك طويلاً وبعد قدوم الإسلام حيث نلمس ذلك في بعض الملامح البيزنطية للمسجد الأقصى.

يقول غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب (تشتمل حضارة العرب التي دامت ثمانية قرون على درجات كبيرة خلافاً لما ذهب إليه المؤرخون الذين تعودوا البحث في حضارة العرب أن ينظروا إليها من خلال أمة واحدة ودور واحد، وكان للعمارة والآداب والعلوم والفلسفة والدين درجات تطور مختلفة باختلاف الأقطار التي خضعت لسلطان العرب، ولم يمنع ذلك من أن يكون للعرب تراث مشترك من الناحية الدينية والناحية اللغوية مادام الإسلام دينهم والعربية لغتهم، ولكن وحدة اللغة والدين لاتعني وحدة حضارة العرب في مختلف البلدان التي خضعت لشريعة

محمد).(١٠)

إن الاختلاف بين المغرب العربي والبلاد السورية بيّن في الحضارة والعقلية، حيث كانت سوريا الطبيعية ، أو بلاد الشام كما فضل العرب أن يسموها ، أول الأمصار التي أخذها العرب من بيزنطة دولة الروم، وكانت الثقافة والحضارة البيزنطيتين قد رسختا أقدامهما في تلك البلاد بعد حكم دام سبعة قرون تقريباً، وبعد فترة قصيرة من الركود ، أعقبت فتح العرب ، عادت بلاد الشام للازدهار الذي عرفته في تاريخها السابق.

(لقد اهتم العرب ببلاد الشام أيما اهتمام لما وجدوه فيها من الغنى في أمور كانوا بأمس الحاجة للعناية بها والإفادة منها، فقد أبدى هؤلاء رغبة حثيثة في دراسة كتب اليونان والرومان فأسسوا المدارس التي درسوا فيها وأفادوا منها قبل أن يصبحوا أساتذة فيها. وكان أول ما اكتسبه العرب من سوريا صناعة الحرب وصناعة السياسة، وكان ذلك قبل فتحهم لتلك البلاد وبعده مباشرة. أما بعد ذلك فقد تتلمذوا على أهل البلاد في فن المعمار وغيره من الفنون. وإذا كان العرب قد استخدموا المهندسين والصناع المحليين في تشييد المساجد والأبنية في المرحلة الأولى، فقد جاءت هذه الأبنية كثيرة الملامح البيزنطية ، ولهذا سرعان مافرضوا ذوقهم الخاص في ميدان المعمار حتى أصبح لعمارتهم من الأشكال والنقوش الخاصة ماصار يتعذر معه خلطها بغيرها، وإن أمكن أن يرى شيء من الأثر البيزنطي أو الفارسي أو الهندي في بعض زخارفها مع محافظة على البناء في مجموعه على طابعه العربي) (١١) .

أثر السريانية في مفردات العربية-الإسلامية

تعددت الآراء في أصل الكتابة ومنها من يقول أنها الفونية أو الفينيقية نسبة إلى فينيقيا وهي الجزء الغربي الجنوبي من سوريا الطبيعية، حيث أن هذه الأمة في أسفارها البحرية ومهاجراتها التي كانت مشهورة بها علمت الكتابة للأمم التي كانت تهاجر إليها ومنها الأمة اليونانية. والفونيون كانوا أمة شامية أي سريانية (طالع إنجيل مرقس ٧:٢٦) ولغتهم كانت إما سريانية محضاً وإما قريبة إلى السريانية أكثر من سائر اللغات السامية، إذا ما أجريت مقارنة في ذلك.

وينقل المطران يوسف داود عن بلينيوس الفيلسوف الوثني المشهور الذي عاش في القرن الأول بعد المسيح :(إني أرى أن الكتابة هي من استنباط الأثوريين،

ومنهم من يزعم أنها اخترعت لدى المصريين أو لدى السريانيين). ومن المؤرخين الذين نسبوا أصل الكتابة إلى السريان ديودورس الصقلي الذي اشتهر في القرن الأول قبل المسيح وغيره.

ويؤكد داود أن أسماء الحروف الأبجدية كما هي عند اليونانيين الذين تعلموا الكتابة من الساميين أي الشاميين الذين كانوا يسكنون الجهات الغربية من بلاد الشام وإن هذه الأسماء هي سريانية محضاً إذ هي في الغالب مختومة بألف الإطلاق جرياً على عادة السريان أن يلفظوا آخر الأسماء بألف زائدة وتلك عادة لا توجد إلا عند السريان. فإن اليونانيين عند سردهم الحروف الأبجدية يقولون ألفاً، بيتاً، جمّا، دلتا..الخ. ومن ذلك يتضح جلياً أن أسماء الحروف لما تعلمها اليونانيون كانت سريانية . نعم إن السريان اليوم لا يلفظون هذه الأسماء بألف الإطلاق، ولكن أما يحتمل أنهم من بعد استنباط الكتابة ووضع الأسماء للحروف بزمان كثير أو قليل أخذوا يلفظون هذه الأسماء بالجزم أي بإسقاط الألف من أواخرها كما هي عادة السريان أيضاً. (١٢)

وإذ أخذنا بما أكده المطران داود وهو حجة في أصل اللغة اليونانية نرى أن اللاتين عملوا بخلاف ذلك فأضاعوا السريانية ووضعوا للحروف السريانية أسماء جديدة حاصلاً كل منها من مقطع الحرف فقط محركاً بحركة واحدة، غير أنهم لم يغيروا ترتيب الحروف السريانية. ثم إن اليونانيين قد أبقوا الحروف على الصور التي كانت لها عند السريان يوم تعلموها منهم، إلا أنهم بعد أن بدأوا يكتبوا من اليمين إلى اليسار كعادة السريان تركوا هذه العادة وصاروا يكتبون من اليسار إلى اليمين إلى يومنا هذا، وكذلك الحال مع اللاتين بعد أن كانوا يكتبون من اليمين إلى اليسار.

واللافت للنظر أن كل لغات العالم تكتب من اليسار إلى اليمين باستثناء السريان والعبرانيين والعرب والبهاويين الذين هم بقايا الفرس القدماء. أما الصينيين ومن تعلم منهم فإنهم يكتبون حروف السطر ويقرأونها من اليمين ومن فوق إلى تحت.

كان السريان يكتبون بالخط السطرنجيلي وهو قريب للكتابات التدمرية ،وقد شاع منذ القرون الأولى بعد المسيح، وقد تولد عنه القلم العامي، لكنهم أبقوا الخط السطرنجيلي لكتابة الإنجيل وسائر أسفار الكتاب المقدس. ويرجح البعض أصل هذه التسمية إلى (سطر الإنجيل) أو إلى رجل اهتم في الأزمان المتأخرة بإنعاش هذا القلم ونشره بين الناس. والقلم السطرنجيلي هو أول قلم سرياني عرفاً وشهرة.

القلم العربي ناشئ عن السرياني

إن الزمان الذي بدأ فيه العرب يكتبوا ليس له وقت ، ولكن الكتابات الكثيرة

المنقوشة على الأحجار التي توجد في حوران والنواحي الشمالية من جزيرة العرب اللواتي أهاليهن جميعاً كانوا عرباً والتي هي مكتوبة باللسان السرياني والقلم السرياني وذلك منذ نحو القرن الأول بعد المسيح إلى نحو القرن الخامس بعده تشهد لنا أن العرب في الأول لم يكونوا يكتبون بلغتهم العربية الآثار التي يريدون بقاءها لكن باللغة السريانية كما فعل الأمم الفرنجية، إذ كانوا في أول أمرهم يكتبون باللغة اللاتينية لا بلغاتهم الخصوصية.

ويرى المؤرخون أنه إلى اليوم لم يكتشف أحد كتابة بالعربية بعيدة عن عهد الإسلام ، وأول كتابة عربية وصلتنا هي مكتوبة بالكوفي وبعد وفاة الرسول الكريم.

وفي رأي يوسف مكي أن الخط العربي ظهر منذ القرن السادس الميلادي وبدأ استعماله في الكتابة. وكان العرب قبل ذلك يستعملون خط المسند والخط السرياني، ولكن بداية النهوض العربي ارتبطت باليقظة التي شهدتها جزيرة العرب وتلازمت ببزوغ الدعوة الإسلامية. (١٣)

ونعود مرة أخرى إلى المطران داود العلامة في هذا الموضوع حيث يقول إن القلم العربي هو ناشئ عن القلم السرياني، ويظهر ذلك أولاً من المشابهة القوية التي بين حروف القلم الواحد الأصلي وهو الكوفي وبين حروف القلم الآخر وهو السطرنجيلي الذي كان شائعاً يوم اتخذ العرب الكتابة. ثانياً يظهر ذلك من ترتيب الأبجدية لدى العرب إذ يقولون أبجد هوز حطي .... ..الخ على نسق ترتيب السريان.ثالثاً إن الحروف المقطوعة عما بعدها في القلم السطرنجيلي هي بعينها مقطوعة في القلم العربي إلا الهاء والصاد والتاء. رابعاً يتضح ذلك من عدد صور الحروف فإنها اثنتان وعشرون صورة في العربية كما هي في السريانية مع أن العربية حروفها أكثر من اثنين وعشرين. (١٤)

لقد بدأ العرب الكتابة بالقلم السرياني السطرنجيلي أو بالنبطي المشتق منه،وإذ كانوا أمة قائمة بنفسها تغيرت حروف قلمهم، كما هي عادة الكتابة في كل الأماكن وكل الأزمان ولاسيما الأمم السامية في أمر الخط ،وزاغت عن حالها الأصلي شيئاً فشيئاً كثيراً أو قليلاً حتى تولد من ذلك القلم الذي كان شائعاً في نحو القرن السابع الميلادي أي في نحو فجر الإسلام وهو القلم المعروف بالكوفي . ثم تغير هذا القلم نفسه شيئاً فشيئاً حتى أفضى إلى ماهو عليه اليوم وهو الذي يقال له القلم النسخي.

ويلاحظ هنا أن الخط الكرشوني الذي هو كناية عن كلام عربي يكتب بالخط السرياني وضعه السريان بهذه الطريقة بعد ظهور الإسلام وانتشاره في البلاد السورية في نواحي القرن السابع للميلاد وذلك ليخفوا أمورهم الدينية والبيعية على المسلمين، وقلما استعمل السريان هذه الكتابة في غير ذلك، وأمكنهم بهذه الطريقة إخفاء أمورهم بهذه الكتابة على العرب لأن هؤلاء في الأصل يكتبون بالخط السرياني ، إلا أنه في ذلك الزمان كان الخط ا لعربي قد تغير جداً حتى زال عنه

ظاهر الشبه بالخط السرياني. (١٥)
انتشرت اللغة العربية على حساب اللغة السريانية التي كانت سائدة في كثير من المناطق ،وأرجع ذلك أحدهم إلى (قدرتها على الحياة كوسيلة للتفاهم، معتمدة على مضامين جديدة تتسع لها كلماتها أو مصطلحاتها يوماً بعد يوم بالإضافة إلى ما تخترع من مصطلحات جديدة تحتمها ظروف التجارب اليومية التي يعيشها أهلها). (١٦)
لقد رأى الجاحظ وابن قتيبة وابن خلدون، منذ بداية القرن الثالث الهجري أن اللغة العربية وليس العرق أساس الانتساب للعرب. ومع أنهم يقبلون بدور للهيئة والنسب في بعض الأحيان، إلا أن الرابطة الرئيسية هي اللغة. (١٧)

تداخل السريانية بالعربية

يتضح يوماً بعد يوم مدى التداخل الذي تم بين السريانية والعربية في كل الشؤون والأسرار، وهذا ما نود أن نشير إليه، حيث عثر في عام ١٩٧٢ في مخبأ سري من الجامع الكبير في العاصمة اليمنية- صنعاء على آلاف من القصاصات والدفاتر والكتب البالية إلى جانب كميات هائلة من الرقوق الجلدية مكتوب عليها بخطوط عربية قديمة ، كنسخ من القرآن مكتوبة بالخط الحجازي النادر في القرنين السابع والثامن، أي القرنين الأولين من التاريخ الهجري.
واستعين بخبراء ألمان لترميم هذه الثروة المكتبية حيث تم بين عام ١٩٨٣- ١٩٩٦ ترميم ١٥ ألف صفحة من نسخ القرآن الكريم من مجموع المخطوطات المكتشفة التي بلغ عددها نحو ٤٠ ألف مخطوطة ، بينها ١٢ ألف رق جلدي قرآني جرى فتحها وتنظيفها ومعالجتها وتصنيفها وتجميعها.
ونتيجة لدراسة هذه الثروة المعرفية صدر كتاب في تشرين الأول عام ٢٠٠٣ لأحد الباحثين الألمان بالإنجليزية (الكلمات السريانية الآرامية في القرآن) يتضمن نتيجة دراسته لمصحف صنعاء وعلاقته باللغة الآرامية السريانية (١٨)
وكان الكتاب قد نشر بالألمانية في شباط ٢٠٠٢ وكتبه واحد من المستشرقين الألمان مستخدماً اسما مستعاراً، هو كريستوف لوكسنبيرغ ،ويتحدث لوكسنبيرغ في مقدمة الكتاب عن أهمية الكتابة بالسريانية- إحدى لهجات الآرامية – عند دراسة الكتابة العربية في النسخ الأولى للقرآن الكريم. ففي الزمن الذي عاش فيه الرسول الكريم، كانت الآرامية- السريانية هي اللغة المستخدمة في بلدان الشرق الأدنى (الهلال الخصيب) حتى ظهور القرآن ، واستخدمت في تدوين النصوص الأدبية والكتابات المسيحية، كما استخدمتها الدولة الأموية بعد ذلك في دواوينها خلال القرنين السابع والثامن . وقد لاحظ أساتذة الدراسات الإسلامية وجود بعض كلمات رأوا أنها غير عربية في القرآن ، خاصة الكلمات السريانية .

ويرى لوكسنبيرغ وجود بعض الكلمات التي تغير معناها نتيجة للخطأ في قراءة التنقيط وعند تغيير أحرف الكلمات وصياغة القواعد اللغوية بعد حوالي ٣٠٠ عام من جمع مصحف عثمان وتدوينه.

ويتعرض الباحث إلى تاريخ تطور الكتابة العربية وأهميته في فهم دلالة كلمات القرآن فهماً صحيحاً ويدعي أن الأبجدية العربية كانت في البداية تحتوي على ٦ أحرف فقط تستخدم لكتابة ٢٦ صوتاً. فعلى سبيل المثال كان هناك حرف واحد للحاء والخاء والجيم، وحرف واحد للباء والتاء والثاء والنون والياء وعلى القارئ قراءة الحرف بحسب فهمه للمعنى المقصود من الكلمة ،ومع مرور الوقت اعتمد وضع النقط فوق أو تحت الأحرف لتحديد الصوت المقصود في كل حالة .ويقال إن هذا التطور في كتابة الأبجدية العربية استغرق حوالي ثلاثة قرون ليكتمل ،وهذه هي الفترة التي ظهرت بعدها نسخ القرآن تحتوي على حروف منقطة كما ظهرت قواعد اللغة العربية.

ويعتمد أسلوب لوكسنبيرغ في البحث على دراسة مفردات الكلمات العربية والسريانية ومقارنتها بباقي اللغات السامية. وإلى جانب قواميس اللغة السريانية، إعتمد الباحث الألماني على (لسان العرب) الذي جمع الكثير من المفردات العربية ومعانيها، كما رجع إلى تفسيرات أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الذي يعتبر كتابه (جامع البيان عن تأويل القرآن) أقدم كتب التفسير.

ويرى لوكسنبيرغ أن الباحثين أدركوا وجود إشارات في القرآن إلى أحداث تاريخية ومصطلحات أجنبية ، ذات طبيعة سريانية.وفي البداية نظر لوكسنبيرغ إلى معاني كلمات القرآن كما وردت في تفسير الطبري، ثم قارن ذلك بما جاء في (لسان العرب) ولو وجد كلمة سريانية مشابهة ، يقارن معناها بما جاء في التفاسير العربية.

وجدير بالذكر أن أقدم النماذج التي عثر عليها في المسجد الكبير في صنعاء يمثل الخط الحجازي – المعروف أيضاً باسم الخط الملكي أو الخط المدني- وهو أول الخطوط العربية التي استخدمت في تدوين القرآن.

ومن الصعوبة قراءة هذا النوع من الكتابة إلا على المتخصصين في الخطوط، إذ ينعدم فيه التنقيط تماماً، ويكون على القارئ أن يدرك أياً من هذه الأحرف هو المقصود في كل حالة. ويلي هذا في ظهور الخط الكوفي حيث أصبحت الحروف أكثر استقامة. وتبدأ حركات الضبط والتشكيل النحوي في الظهور في المراحل التالية، كما استخدمت النقاط للفصل بين آية وأخرى.

ويؤيد قول هذا المستشرق الألماني ما بدأنا به هذا الفصل، ويؤيده أكثر ما سوف نذكره في السطور التالية

ألفاظ مسيحية وردت في القرآن الكريم

http://www.al-maktabeh.com

من الملاحظ أن تأثير النصارى الديني والحضاري في عرب الجاهلية وفي الإسلام الناشئ تجلى في الألفاظ القرآنية التي اعتبرها اللغويون دخيلة . ويورد آرثر

جفري (١٩) البعض مما اعتبرها من أصل مسيحي مؤكد، وإن كان أصلها أحياناً عبرياً.

وقبل أن نعدد هذه الكلمات نقول أن القرآن الكريم كتاب سماوي يشتمل على ستة آلاف ونيف آية، وينقسم إلى مائة وأربع عشرة سورة بما فيها المطولة والقصيرة.

أما الألفاظ الدينية الواردة في القرآن الكريم وهي من أصل مسيحي فهي:

إبليس (ص٤٧-٤٨) إنجيل (٧١-٧٢) بيعة (٨٦- ٨٧) جهنم (١٠٥-١٠٦) حواريون (١١٥-١١٦) رجز (١٣٩) زبور (١٤٨-١٤٩) سلطان (١٧٦-١٧٧) شيطان (١٨٧-١٩٠) صبغة (١٩٢) صلوات (١٩٧-١٩٨) صوامع (٢٠٠-٢٠١) صوم (٢٠١-٢٠٢) طوبى (٢٠٦) طور (٢٠٦-٢٠٧) فردوس(٢٢٣-٢٢٤) فرقان (٢٢٥-٢٢٩) قدس (٢٣٢) قسيسون (٢٣٩-٢٤٠) قسط (٢٣٧-٢٣٨) مَثَل (٢٥٨) مسيح (٢٦٥-٢٦٦) مَنَّ (٢٧١-٢٧٢) مِلَة (٢٦٨-٢٦٩) نصارى (٢٨٠-٢٨١) يحيى (٢٩٠-٢٩١)

وهناك ألفاظ دنيوية استعملها المسيحيون مثل:

خمر (١٢٥-١٢٦) كأس (٢٤٥-٢٤٦) كوب (٢٥٢) درهم (١٢٩-١٣٠) دينار (١٣٣-١٣٥) تابوت (٨٨-٨٩) سراج (١٦٦-١٦٧) مِقلاد (٢٦٧-٢٦٨)

كما أن هناك ألفاظ تختص بالكتابة مثل:

رَقّ (١٤٣) سِجِل (١٦٣-١٦٤) سَطر (١٦٩-١٧٠) سِفْر (١٧٠-١٧١) قُرآن (٢٣٣-٢٣٤) وقرطاس (٢٣٥-٢٣٦).

يذكر الدكتور جواد علي (٢٠) أن النصرانية كانت عاملاً مهماً في إدخال الآراء الإغريقية والسريانية إلى نصارى العرب . فقد كانت الكنيسة مضطرة إلى دراسة الإغريقية ولغة بني إرم، لما للغتين من قدسية خاصة نشأت من صلتهما بالأناجيل وقد كان أثر الإرمية- يقصد الآرامية – أهم في الكنيسة الشرقية من الإغريقية ،لكونها لغة الثقافة في الهلال الخصيب في ذلك العهد... ولهذا وجدنا معظم التعابير والمصطلحات الدينية عند نصارى الشرق هي من هذه اللغة ،ومنها أخذها النصارى العرب، فصارت عربية.

ولتوضيح ما ذكره د. علي نقول إن العرب نقلوا عن السريان أفعالاً وأسماء سريانية محضة، أغلبها دينية، وإدماجهم إياها في أفصح كتبهم، حتى أنهم اصبحوا لا يستطيعون إلى الاستغناء عنها سبيلاً. وهي كثيرة نذكر منها من الأفعال:آمن إيماناً وأمانة، بارك بركةً، بشّر بشارةً، بنى بنياناً، أزلّ أي أخرج، تاب توبةً، دان دينونةً،سبح تسبيحاً، سجد سجدةً، صلى صلاة، صام صوماً وصياماً، قدّس قداساً، قرّب قرباناً، كفر تكفيراً، تنبأ نبوءةً ، نذر نذراً الخ.

ومن الأسماء السريانية صفات الله جلّ جلاله نحو: الله ، اللهم، باري ، توّاب ،

ديّان،سبُح،قدُوس، قيوُم، مهيمن، مسيح، روح القدس،قدّيس الخ.
ومن الألفاظ السريانية: آية، بسيط أ ي اعتيادي، رجز،ديوان،سيّارة،طور، طوفان، عتيقة، حديثة، عروبة،عيد، فرقان، فاروق ،قرية،مدينة، مسكين، مقاليد،ملفان،ملفنة، نبراس، يّم، والسلام بمعنى ختام.
ومنها أسماء أشجار أو ثمار نحو : رمان، زيتون الخ.
ومنها ألفاظ مختومة بالتاء الطويلة نحو: جبروت ،رحموت، رهبوت، ملكوت،لاهوت ناسوت، طاغوت الخ.
ومنها النسبة بالنون مثل: جسداني، جسماني، حقاني، روحاني، رباني الخ. وتأنيثها نحو جسدانية، حقانية الخ .
هذه الأفعال بأسرها وهذه الأسماء برمتها سريانية محضة، انتحلها العرب وعربوها وأضافوها إلى لغتهم، وقس عليها أسماء الأعلام، فإنهم، أعني العرب، مانقلوها عن اليونانية بل عن السريانية فكتبوا: اسحق ، أشعيا ، اليشع، حزقيال، عاموس، هوشع، يوسف، يعقوب، يوحنا، مريم، حنة الخ. وعليه فقد صدق من قال إن أهالي سوريا قاطبة كانوا يتكلمون بالسريانية قبل عهد الإسكندر .ولما فتح السلوقيون البلاد ظلت السريانية اللغة الدارجة فيها. ومعها أضيفت إلى لغتهم الأصلية لغة يونان وعروبة . وقد ظلت لهجتهم العامية في أغلب كلامهم لهجة سريانية بحتة. (٢١)
هناك مفردات أخرى عديدة انتشرت بين عرب الجاهلية تحت تأثير النصارى، وكل ذلك يدلنا على أن الجزيرة العربية ، وإن كانت صحراء جدباء ، إلا أنها كانت فكرياً خصباء . وقد لعب النصارى دوراً هاماً في بناء هذا الفكر العربي، وهيؤوا الطريق في قلوب العرب لقبول الدعوة الإسلامية.

الفواتح القرآنية

كثرت التفسيرات والتأويلات لما ورد في مطالع بعض السور القرآنية الأبجدية مثل ماورد في سورة البقرة (ا ل م) وفي سورة آل عمران (ا ل م)، وسورة الأعراف (ا ل م ص)، وسورة يونس (ا ل س)، وسورة هو (ا ل ر)، وسورة يوسف (ا ل ر) ، وسورة الرعد (ا ل م ر)، وسورة إبراهيم (ا ل ر)، وسورة الحجر(ا ل ر)،وسورة مريم (ك ه ي ع ص)، وسورة طه (ط ه)،وسورة الشعراء (ط س م)، وسورة النمل (ط س)، وسورة القصص الحروف (ط س م)، وسورة العنكبوت (ا ل م)، وسورة الروم (ا ل م)، وسورة لقمان (ا ل م) وسورة السجدة (ا ل م) ، وسورة ص الحرف (ص) أيضاً، وسورة غافر الحرفان (ح م)، وسورة فُصِّلت (ح م) ، وسورة الشورى الحروف (ح م ع س ق) ، وسورة

الزخرف (ح م) ، وسورة الدخان (ح م)، وسورة الجاثية (ح م)، وسورة الأحقاف الحرفان (ح م)، وسورة ق الحرف (ق)، وسورة القلم الحرف (ن).

وأشار البعض أن فواتح السور إنما ذُكرت في القرآن الكريم لتدل على أن هذا الكتاب مؤلف من حروف التهجي المعروفة ، فجاء مقطعاً منفرداً،وجاء تماماً مؤلفاً مجتمعاً، ليتبين العرب أن القرآن نزل بالحروف التي يعرفونها ، فيكون ذلك تقريعاً لهم ودلالة على عجزهم أن يأتوا بمثله. (٢٢)

هذه الأحرف جعلت كل يأتي على تفسيرها بما يراه، كالدكتور الشيخ صبحي الصالح حيث يقول (وإذا كنا اليوم بعقلية- القرن العشرين- لا نرى في هذا الأمر أكثر من مصادفة فما كان ليخطر على بال السلف الصالح إلا أن الفواتح نظمت في القرآن على هذا النمط منذ الأزل، لتحتوي على كل ما من شأنه إعجاز البشر عن الإتيان بمثل هذا الكتاب العزيز ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً) (٢٣) . فيما يروى الفقيه المناظر أحمد بن خليل بن سعادة الخويبي أن بعض الأئمة استخرج من قوله تعالى (الم: غلبت الروم) أن بيت المقدس يفتحه المسلمون في سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة، ووقع كما قال (٢٤) . ويروي العز بن عبد السلام أن علياً استخرج واقعة معاوية من (حم عسق) (٢٥). ورأى بعض الشيعة في مجموعة هذه الفواتح إذا حُذف المكرر فيها ما يفيد أن (صراط علي حق نمسكه)، فيرد عليهم بعض السنيين الظرفاء بخطاب مستنبط من الفواتح نفسها بحروفها ذاتها غير مكررة (صح طريقك مع السنة) (٢٦) . وهذا النوع من الاستخراج الحسابي يُعرف باسم (عدّ أبي جاد) ، وقد شدد العلماء في إنكاره والزجر فيه ، حتى أن ابن حجر العقلاني يعتبره ((باطلاً لايجوز الاعتماد عليه فقد ثبت عن ابن عباس الزجر عن (عد أبي جاد) والإشارة إلى ذلك من جملة السحر، وليس ذلك ببعيد، فإنه لا أصل له في الشريعة))(٢٧).

وحتى لا نذهب بعيداً في هذه التفسيرات والتأويلات لنصل إلى أصلها السرياني نورد ما قاله ابن عباس في (كهيعص): الكاف من كريم، والهاء من هاد، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق (٢٨). وقوله (الر) أنا الله أرى (٢٩) . وفي (المص) أنا الله أفضّل (٣٠) ونتابع عن السيوطي ما نقله عن ابن عباس نفسه في (كهيعص) كاف هادٍ أمينٌ عالمُ صادق. ورُوي عنه : الكاف من الملك، والهاء من الله، والياء والعين من العزيز ، والصادر من المصور. ورُوي عنه أيضاً: كبير هادٍ أمين عزيزٌ صادق (٣١)

هذه الفواتح التي بقيت لها أسرارها انكب أحد الباحثين اللبنانيين (٣٢) في دراستها لفترة طويلة، مسلطاً عليها عدسة التمحيص والتحقيق الأمين والتدقيق الرزين، لمعرفة ماهيتها ومعناها وغايتها في كتاب عزيز على الأمة العربية التي ولدته ابناً بكراً باراً، والأمة الإسلامية التي آمنت به وقدسته بعد أن أقامته مُرشداً

حياً.

لقد بدأنا فصلنا هذا باستعراض التداخل الحاصل بين اللغة السريانية والعربية وذكرنا مفردات وألفاظ ومعاني سريانية مبثوثة في سور القرآن وآياته، حتى أن هناك تزاوج بين هاتين اللغتين. ومن درس هذه العلاقة وعرف اللغتين جيداً استطاع أن يخمن ما وصل إليه هذا الباحث.

التفسير السرياني للفواتح القرآنية

بادئ ذي بدء علينا التذكير أن كاتب سر الرسول الكريم إلى حين إجلاء بني النضير (من قبائل يهود يثرب نكثوا عهدهم مع الرسول بعد أن حالفوه فحاولوا اغتياله) عن يثرب (المدينة المنورة)، كان من اليهود ليتسنى له أن يبعث من الرسائل بالعبرية والسريانية إلى من يريد. فلما جلا اليهود أراد محمد أن يستعمل في أسراره مسلماً، فأمر فتعلم زيد بن ثابت، من شبان المدينة المسلمين اللغتين المذكورتين. وهناك حديث نبوي يؤكد ذلك يشير به محمد على زيد بن ثابت بتعلم السريانية فيقول له (عليك بالسريانية فتعلمها : إنها لغة أهل الجنة)، وأصبح ثابت كاتب سر محمد في كل شؤونه. (٣٣)

فيما ورد في السيرة الحلبية ((قيل عن زيد بن ثابت إنه قال: أمرني رسول الله (ص) أن أتعلم السريانية: قال أني لا آمن يهوداً على كتابي، فما مر بي نصف شهر حتى تعلمت وحذقت فيها فكنت أكتب له (ص) إليهم وأقرأ لهم)). (٣٤)

وزيد بن ثابت هذا هو الذي جمع القرآن في خلافة أبي بكر الصديق (١١ - ١٣ هـ / ٦٣٢-٦٣٤ م) وهو الذي عاد فراقب الجمع والتدوين حين اختلفت القراءات في خلافة عثمان بن عفان (٢٣-٣٥ هـ/٦٤٤-٦٥٦) فوضع مصحف عثمان وأحرقت سائر المصاحف. (٣٥)

يقول رابولا التغلبي إن الفواتح القرآنية ليست إلا اختزالات لجمل سريانية تتطابق وسياق معنى الآية التي تليها في كل سورة، علماً أن السريان قد اعتادوا منذ القديم أن يختزلوا بعض الجُمل ذات التواتر الكثير في الصلوات الطقسية، بحروف لها مدلولاتها لفظاً ومعنى، منها جملة (شوبحو لأبو ولبرو ولروحو قاديش، حاذ الوهو شريرو) فإنها تختزل بحرفين (ش و). وجملة (من عولام وعذابو لعولام عولمين. آمين) بحرفين (م ع) وكلمة (هاليلويا) بحرف (هـ) وهكذا. (٣٦)

ويتساءل التغلبي لماذا لاتكون هذه الفواتح هي الأخرى جملاً مختزلة بأحرف (سريانية) لها مدلولاتها في الصلاة المتواترة المتكررة كالفاتحة لكل سورة في كل قراءة؟ هذا أولاً.وثانياً قد تكون هي كلمات التحدي الذي تحدى بها الرسول قريش والعرب أجمعين في الإتيان بمعانيها التي لم يكن يعلمها إلا الذي استنبطها وتفرد بها

حيث لم يستطيعوا أن يأتوا بمثلها- هذا من جهة – ومن جهة أخرى قد تكون هذه الأحرف المتضمنة لجُمل سريانية هي العُجمة التي ألصقت بالقرآن من قبل الفصحاء العرب، حينما ادعوا بأعجمية النصوص والمفردات علماً أن محمد أكد عروبته الصافية ولغته، لغة قريش الصافية الأصلية (٣٧)

http://www.almaktabeh.com

ويورد هذا الباحث العديد من الأمثلة للفواتيح القرآنية سنكتفي بإيراد بعضها،ومن يريد الاستزادة فليراجع المصدر الأساسي لها. (٣٨)

ورد في سورة يونس (ا ل ر)

فإذا استعنا لشرحها باللغة السريانية نجد لكل حرف معنى خاصاً:

الألف إيمار Emar قال

اللام لي li لي

الراء رابو Rabo السيد

وهكذا تتكون من (ا ل ر) جملة سريانية هي (إيمار لي رابو) والتي معناها (قال لي السيد) وإذا استعنا بالآية التي بعد الحروف مباشرة تصبح القراءة هكذا:(قال لي السيد: تلك آيات الكتاب الحكيم) ● ٥/

ورد في سورة طه الحرفان (ط ه)

فإذا استعنا لشرح (ط ه) باللغة السريانية، نجد لكل حرف معنى خاصاً به،كما يلي:

الطاء طوبو Toubo غبطة

الهاء هيمونوثو Haymonouto الإيمان

وهكذا تتكون من (ط ه) جملة سريانية هي (طوبو هيمونوثو) ومعناها العربي (غبطة الإيمان)

وإذا ما قرأنا العبارة هذه (غبطة الإيمان) بما يليها، أي الآية رقم ٢، تصير القراءة بالصورة التالية:

(غبطةُ الإيمان، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى)

وردت في سورة الروم الحروف (ا ل م)

فإذا استعنا بالشرح السرياني لهذه الحروف، نجد أن الجملة السريانية المتكونة منها هي (إيمار لي موريو) وتعريبها (قال لي الرب)

وإذا استعنا بالآية رقم ٢ من السورة نفسها، لجاءت القراءة كما يلي: (قال لي الرب: غُلبت الروم)

كذلك ورد في سورة الجاثية، الحرفان (ح م)

فإذا استعنا بالشرح السرياني للحرفين (ح م) يكون معنى العبارة المتكونة منهما: (حي هو الربُ)

وإذا ما قرأنا هذه العبارة مع الآية التي تليها في السورة ذاتها تكونت لدينا هذه

الجملة:

(حي هو الربُ، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)

وهكذا أورد رابولا التغلبي التفسير السرياني للفواتح القرآنية ربما أخطأ أم أصاب ،ولكن وجهة نظره لايمكن إغفالها أو تجاهلها أو تسفيهها . فالعلاقة كما ذكرنا في هذا الفصل بين السريانية والعربية هي علاقة تزاوج

إن الاحترام الكبير الذي أبداه أئمة المسلمين للسريان واللغة السريانية نلمسه في الكثير من المصادر. ونعيد ذكر بعضها حيث توسعنا في شرح ذلك في كتبنا السابقة عن السريانية ، ولكن يكفي القول تأكيد أبو منصور بعد وفاة الباقر في الإمامة الإسماعيلية مدعياً النبوة فيما بعد مصراً على أنه قد صعد إلى السماء حيث ربت الله على رأسه وخاطبه باللغة السريانية وكلفه تبليغ رسالة نبوية (٣٩) ونقل عن مصادر المذهب الجعفري أن الإمام المهدي المنتظر عندما طلب منه أن يقرأ ماأنزل الله على أنبيائه ورسله فابتدأ بصحف شيث ●/٦ وإبراهيم ● /٧ قرأها بالسريانية (٤٠) في صحف إبراهيم إلى آدم بالسريانية مفسراً النبي والمحمود (٤١) اسمه - الإمام علي - في صحف شيث وإدريس ونوح وإبراهيم وبالسرياني مبين. (٤٢)

أما النص التالي فيتضمن من ضمن ما يتضمن كلمتين على الأقل سريانتي الأصل (دنا أمير المؤمنين من الصخرة وجرد ذراعه ومد يده إلى السماء وتكلم بكلمات مستقبل القبلة فسمعناه يقول كلاماً من الإنجيل . طاب طاب الماء، والعم **طيبوثا** والبوح أسمينا **والحايوثا** ، وإذا يكونا ثم أهوى بيده المباركة اليمنى إلى الصخرة واقتلعها كالكرة) (٤٣)

ويروي الخوري اسحق أرملة أن أوسابيوس في مؤلفه (الظهور الإلهي) الذي فقد أصله اليوناني وحفظ نقله السرياني، أن السيد المسيح اصطفى (رجالاً جليلين لا يعرفون إلا السريانية) مخطوط لندن ٢١٥٠ م المنسوخ في السنة ٤١١م. (٤٤)

لقد تم في الطائفة المسيحية السريانية استيعاب الثقافة العربية من دون التخلي عن الثقافة السريانية ! لكن هذه الثقافة تراجعت شيئاً فشيئاً، بعد أن احتلت العربية محلها ببطء، من دون أن تزول تماماً وفي العالم القبطي ، كان الأمر غير ذلك، لأن الأقباط (حين وصل العرب إليهم) كانوا قد فقدوا مدرسة الإسكندرية التي زالت قبل مئة سنة. فلم يعد عندهم إذا ذلك التقليد الفلسفي العلمي الهليني الكبير، في حين حافظ السريان على مدارسهم في أديرتهم.

قيمة الترجمة إلى العربية

لعبت الترجمة التي قام بها المسيحيون من اللغة اليونانية الدور البارز في

النهوض بهذه البلاد ومن ثم في إرساء الحضارة العربية التي وصلت أوربا عن طريق الأندلس، ولولا هذه الترجمة وتفاعلها لتأخرت الحضارة العلمية التي ينعم بها العالم مائتي سنة.

والترجمة هي إشارة إلى نقل المصطلح الأجنبي إلى العربية إما بحرفيته، أو مدلوله الظاهري، أو مدلوله الباطني، أو إيحاءاته، أو وظيفته، أو معناه الأصلي في منشئيه، أو في سياقه ،أو محدوديته أو شموليته ، أو تغريبه ، أو تهريبه إلى داخل العربية! أو تعريبه ، أو خلفيته الخصوصية الثقافية أو الدينية أو السياسية أو الفلسفية،وما إلى ذلك، أو تشويهه أو تحريفه أو تلطيفه أو تهذيبه أو العزوف عن ترجمته أساساً، أي حذفه. (٤٥)

يمكن القول إن عصر ترجمات الفلسفة اليونانية إلى اللغة السريانية بدأ في القرن الرابع وامتد إلى القرن الثامن حيث تبع ذلك الترجمة من السريانية إلى العربية.

ومن أوائل التراجمة السوريين بروبوس الذي كان قساً، يشتغل بصناعة الطب. عاش في أوائل القرن الخامس، وشرح مؤلفات أرسطو الجدلية، وكتاب الإساغوجي لفرفوريوس الفيلسوف ، واشتهر خاصة إذ ذاك بين المترجمين سرجيوس الذي توفي بعمر سبعين عاماً في القسطنطينية سنة ٥٣٦، وكان قساً وطبيباً أيضاً علم في مدرسة الإسكندرية ، وكان لتعاليمه مركز سام. ترجم سرجيوس عن اليونان العلوم الإلهية والأخلاقية ، والعلوم الصوفية ،وشيئاً كثيراً من صناعة الطب وما إليها.

حين فتح العرب بلاد الشام كان السوريون منعكفين على ترجمة العلوم اليونانية وخاصة بالفلسفة . فنشاهد في ذلك الوقت يعقوب الرهاوي يترجم إلى اللغة السريانية العلوم الإلهية والمنطقية فيبادر إليه الطلاب من مسيحيين ومسلمين يبغون الوقوف على أسرار الفلسفة، فيتساءل برهة هل يباح للأكليروس أن يعلموا أولاد المسلمين دون أن يخلوا بالشريعة ،ولكنه أفتى بتعليمهم وهو ما يعتبر أول مصدر على ذلك اتبعه رجال الأكليروس وغيرهم حتى أن ابن العبري كان يعلم في بيته أبناء المسلمين، بعد مضي مئات السنين.

ويمكن الحكم على هذه التراجم بأنها كانت بالإجمال مطابقة للأصل اليوناني، ويأتي حكمنا على ذلك من أن السوريين لم يحكموا تماماً تلك التراجم على كونهم قد تعمقوا باليونانية ،ووقفوا على أساليبها ، واشتهر منهم فيها كثيرون.

ويرى الخوري يوسف فارس (أن الوقوف على اللغة وحده ليس كافياً في مثل هذه العلوم ، بل يجب أيضاً على المترجم أن يكون مطلعاً تمام الاطلاع على عقلية وحياة المؤلف، وخبيراً بعقيدته الدينية التي لها تأثير مهم في الفلسفة . وهذا لم يتوفر كثيراً للسوريين النصارى الذين كانوا غرباء عن ديانة الإغريق ، وبعيدين عن عقليتهم ومعتقداتهم . لهذا يجب ألا يأخذنا العجب إذا شاهدنا الفريق الأكبر من النقلة

في هذا العصر يخطئون في فهم النصوص اليونانية رغم تبحرهم في هذه اللغة، أو يتركون فراغاً عند عجزهم ، ثم أحياناً يجتهدون في أن يملئوا الفراغ من عندياتهم.وبما أنهم كانوا نصارى، ومن الإكليروس، كانوا يلتجئون بالطبع لسد الفراغ إلى تعاليم النصرانية وإلى مؤلفات بطرس وبولس وسائر الكتب المسيحية. وقد كانت تدفعهم أحياناً عاطفتهم الدينية وعقيدتهم الراسخة إلى تمحيص هذه الفلسفة قبل نقلها إلى لغتهم ، فلا يقبلون ماكان فيها معاكساً للمسيحية أو يعطون ما كان وثنياً منها صبغة مسيحية، غير عابئين للتصحيف والتحريف. فتصبح في تراجمهم إلهة الإغريق العديدة إلهاً واحداً سرمدياً، والقدر عناية إلهية، ويلبسون رداءً مسيحياً كل مايتعلق بالعالم والأبدية والخطيئة. هكذا تطلعنا تآليفهم على فلسفة يونانية في قالب مسيحي) (٤٦)

حين جاء الإسلام ونشر ألويته شرقاً وغرباً وثق اتصال العرب بالحضارة الرومانية- اليونانية في الشام ومصر وشمال إفريقيا وبلاد الأندلس، وبالحضارة الفارسية الهندية في فارس وما وراء النهر وهندوستان ، واعتنق الإسلام أناس كثيرون ممن كانوا يعيشون تحت ظل هذه الحضارات ، وتآخوا مع العرب. ومن بقي منهم على دينه حظي بعطف وتسامح كبيرين، وتعاون مع جيرانه ومواليه من المسلمين تعاوناً صادقاً. واختلط هؤلاء جميعاً بالعرب وامتزجوا بهم، وكان لهذا الاختلاط شأنه في تبادل ثقافي وحضاري مستمر. (٤٧)

وامتدت حركة الترجمة إلى العربية بوساطة اللغة السريانية- على الغالب- مدة ثلاثة قرون ويزيد، بدئ بها في أخريات القرن السابع الميلادي، ونشطت نشاطاً ملحوظاً في القرن التاسع وامتدت إلى القرنين العاشر والحادي عشر. وعدت من أنشط حركات الترجمة في التاريخ، واشملها، وأطولها نفساً. ساهمت فيها الدولة والأفراد على السواء ، وأعدّت لها العدة من إنشاء بيت أو بيوت للحكمة يلتقي فيها المترجمون، وتحفظ فيها مترجماتهم وأرسلت البعوث شرقاً وغرباً للبحث عن الأصول والمراجع، وقصدت الإسكندرية وبيزنطة بوجه خاص، وهما وريثا الحضارة الرومانية- اليونانية. واستقدم المترجمون الذين يعرفون لغتين أو أكثر ،وجلهم من السريان النساطرة واليعاقبة ، ويعدّون من أوائل المعلمين في الإسلام ،ولم يلبث المسلمون أنفسهم أن انضموا إليهم، وحملوا العبء معهم فتُرجم عن العبرية والسريانية، عن الفارسية والسنسكريتية. وعُني بالترجمة من اليونانية إلى العربية رأساً أو بتوسط السريانية ،وحُولت بعض ترجمات عن اللاتينية . وكان للمترجمين منزلة خاصة لدى الخلفاء والأمراء، وكثيراً ماغمروهم بالعطاء.وتم ذلك بإسهام من الأمويين ودفع من الخلفاء العباسيين دفعة قوية ، وبخاصة المنصور (٧٧٥) ، والرشيد (٨٠٩) والمأمون (٨٣٣). واستوعبت مواد مختلفة ، بين أدب ودين، وقصص وتاريخ، وعلم وفلسفة. وأصبحت بغداد ، وريثة لاسكندرية وأثينا، قبلة العلم والثقافة.

وبفضل حركة النقل والاستيعاب وإعادة النظر، التي أطلقها المسيحيون السريان ●/٨ نشأ قطاع ثقافي عربي، وقاعدة مشتركة للثقافة ، تجمع المسيحيين والمسلمين واليهود والصائبة . وهذا ما عززه الانفتاح الثقافي الذي مارسه الخلفاء والأمراء المسلمون، فلقد شجعوا ومولوا تلك الحركة. بدءاً من الدراسات الدينية واللغوية، ثم إلى الدراسات في العلوم الطبيعية والرياضية ، في الطب والكيمياء ، في الفلك والهندسة، ملتمسين الحاجة الماسة إلى الوقوف على ما سبق إليه ومانتهت إليه الثقافات القديمة من درس وبحث، طالبين إلى أصحاب الشأن أن يترجموه إلى العربية ، دون حاجز الدين أو الأثنية. وبذلك قام فكر ديني أعد انطلاقاً من تلك الثقافة الهلينية التي أضيفت عليها صيغة سريانية ثم عربية، علماً بأن الذين أشرفوا على كل ذلك كانوا من المسيحيين الذين عاشوا في القرون الثامن والتاسع والعاشر للميلاد، كما سبق الذكر.

السريان رواد الترجمة إلى العربية

إن التأكيد على أن السريان تزعموا حركة الترجمة من اليونانية إلى السريانية ومن ثم العربية مما لالبس فيه، ونادراً مالا يذكر ذلك. (وقد لعبت اللغة السريانية دور الوساطة بين العلماء العرب وبين التراث اليوناني قبل تعلم اليونانية وإعادة الترجمات أو الترجمة مباشرة عنها). (٤٨) يذكر ديمتري غوتاس في واحد من أهم كتبه (٤٩): ((كانت حركة الترجمة في صدر الإسلام نتيجة حماسة علمية لدى نفر من المسيحيين الناطقين بالسريانية كانوا يجيدون اليونانية (بسبب ما نالوه من تعليم) والعربية (بسبب الأحوال التاريخية المحيطة بهم)))). ويجري التأكيد مرة أخرى (إن المسيحيين الناطقين بالسريانية قاموا بدور أساسي في حركة الترجمة: فقد كانت غالبية المترجمين من جماعتهم . وإن لم يكن الجميع كذلك) . (٥٠) وأصبح المسيحيون الناطقون بالسريانية الذين انفصلوا، بعد الفتوح ، عقائدياً عن الخلقيدونيين، بعيدين عنهم سياسياً أيضاً، وتطوروا عبر مسارات ثقافية مختلفة. كان العلم اليوناني العلماني يومها قد تمثله المتكلمون بالسريانية (٥١) وكان قد ثبت مواقفه في مراكز المسيحية الشرقية الرئيسة عبر الهلال الخصيب من إديسا (الرها) وقنسرين في الغرب عبر نصيبين والموصل في شمال أرض الرافدين حتى جنديسابور في عنق غرب فارس، وهذه كانت من أكثر المراكز شهرة. ولاريب في أن الجو نفسه قد شاع بين الفئات الدينية السريانية الغربية والشرقية في أجزاء المنطقة كلها، إذا جاز لنا أن نحكم على ذلك من حيث العلماء الذين ظهروا أثناء الفترة العباسية المبكرة وكانت لهم خلفية متينة من العلم اليوناني، كما سبق الذكر.

ورغم ما تم من ترجمة فلم يدخل في اللغة العربية من اللغة اليونانية إلا ألفاظ

قليلة وذلك بواسطة اللغة السريانية نفسها.وهي الألفاظ الموجودة في اكثر لغات العالم: منها ما يتعلق بالأمتعة الجديدة وما أشبه نحو زنار، قسط، أوقية، أيقونة، استار، درهم، مينا، فندق. ومنها ما يتعلق بالديانة النصرانية نحو إنجيل،هرطقة،أسقف، مطران، طقس،طغمة، ومنها ما يتعلق بالعلوم ،وهذه لم تعرب إلا حينما أخذ العرب في خلافة العباسيين يتفرغون للعلوم اليونانية على يد علماء السريان فدخلت في لغتهم الألفاظ الاصطلاحية العلمية التي دخلت في كل اللغات المتمدنة نحو فلسفة ، جغرافيا،سفسطي، دوسنطريا، باسيليق، إقليم، أثير. (٥٢)

إن الألفاظ اليونانية إنما دخلت في العربية لكونها موجودة في السريانية ،لأنك لا تجد لفظة يونانية في العربية إلا وهي موجودة في السريانية. ودخلت في العربية لا كأنها يونانية لكن كأنها سريانية، لأنها لم تدخل في العربية من اليونانية رأساً لكن بواسطة اللغة السريانية.(٥٣)

بدأت حركة ترجمة النصوص الفلسفية والطبية إلى اللغة العربية بواسطة السريان منذ الدولة الأموية (٥٤) كما كان معظم الذين رفعوا لواء الترجمة في العصر العباسي واشتغلوا بها في أول الأمر من السريان والنصارى، ولكنهم لم يلبثوا أن تعربوا وأسلموا، واشتغل كثير من العرب والمسلمين أيضاً بالترجمة والمراجعة وشملت هذه الحركة:

١- ترجمة الكتب العلمية والتطبيقية من طب وفلك وهندسة وكيمياء وطبيعة
ورياضيات

٢- ترجمة كتب الفلسفة والمنطق والحكمة والأخلاق والقصص والسمار والخرافات والحكايات والأدب والنقد. (٥٥)

من ذلك إن ثاوفيل الرهاوي رئيس منجمي الخليفة المهدي أبي هارون الرشيد نقل كتابي هوميروس على فتح مدينة ليون (أي الإلياذة والأوديسا) من اليونانية إلى السريانية بعناية ما يمكن من الفصاحة. يشهد بذلك ابن العبري في تاريخ مختصر الدول (ص ٢٢٠) وفي تاريخه السرياني (طبعة الأدب بدجان) ص ١٢٨. أما آثار هذا العمل الجليل فقليلة جداً. وقد روى الأب جبرائيل القرداحي بيتين منه وجدهما في بعض الكتب الخطية (كتاب الكنز الثمين ص٤٠). والمستشرق الشهير بولس لاغرد وقف أيضاً على بعض أبيات متفرقة في بعض تآليف برشكوا أسقف مار متى فأثبتها في المجلة الإنكليزية (Academy) في تشرين الأول سنة ١٨٧١ (٥٦)

أما آلية الترجمة فيمكن الاستشهاد بما كان يفعله حنين بن اسحق (فهو كان يقارن بين النص السرياني والنص اليوناني مع النص في الترجمة العربية، فحين يترجم النصوص السريانية يقارنها بالنصوص اليونانية ويعيد صياغتها في اللغة العربية))

http://www.al-maktabeh.com

ويمكن تلمس ما تركته الفلسفة اليونانية على عقول المفكرين المسيحيين إذا ماعدنا إلى أبو حيان التوحيدي المتوفي عام ٤٠٠ هجرية فهو يقول ((وأما ابن زرعة (ويقصد أبو علي ●٩/ عيسى بن اسحق بن زرعة) فليس لنا منه – إذا جالسنا- إلا النفخ والتعظم والتهويل بأرسطاطاليس وأفلاطون وسقراط وبقراط وفلان وفلان)). (٥٧)

وقد أثر المترجمون والمفسرون والأساتذة المسيحيون في الفلسفة العربية على الشكل التالي كما وضعها ب. لاندوم:

الأثر الأول والأبرز كان إدخال مفهوم الفلسفة واللاهوت الطبيعي إلى حضارة لا تعترف بغير الوحي.

والأثر الثاني كان وسم الفلسفة الإسلامية بميسم أرسطوطالي وأفلاطوني مستحدث .

استمدت الأرسطوطالية مكانتها من الحيز المهم الذي شغله المنطق في المجالات المسيحية . أما الأفلاطونية المحدثة، فلقد شاعت في حقبة لاحقة بين السريان وبخاصة في القرن السادس، ربما لأن هؤلاء وجدوا فيها توقاً إلى الاتحاد بالذات الإلهية يستجيب لانشغالاتهم الخاصة. كان على الفلسفة العربية الاستمرار على الدوام في هذا المسلك المزدوج(٥٨)

رواد الترجمة إلى العربية

حين دخل العرب بلاد الشام وجدوا أنفسهم بحاجة ماسة إلى العلم وفي صراع حضاري مع الأمم التي كان لها سبق عليهم في مضمار التقدم والتمدن كالروم والفرس والهند ،وهم الذين ما كادوا يخرجوا من بدواتهم . وقد نشطت الترجمة في الأيام الأخيرة من العهد الأموي وتتابعت في غضون القرن الأول من العصر العباسي، حيث نشطت بسرعة، وأدخلت على النشاط الأدبي والفكري في اللغة العربية مواد جديدة وروحاً متوقداً في نطاق البحث العلمي والتفكير الفلسفي .ويعتبر عمل ابن أبي أصيبعة (٥٩) وابن النديم (٦٠) في ذكر هذه الأعمال التي ترجمت من اليونانية إلى العربية من المصادر المهمة في ذلك.

اقتضت أعمال الترجمة هذه إنشاء مراكز لها ضمت إليها خيرة العارفين باللغات الأجنبية وأغدقت عليها الأموال بوفرة، وبسطت عليها أجنحة الحماية. وآثر البرامكة بالتقدير الأدب الإيراني ، أو الهندي الإيراني على الأقل، وشجعوا نقل المؤلفات الفارسية إلى اللغة العربية (وأمر يحيى بن خالد بنقل المؤلفات العلمية اليونانية وتفسيرها، وأنشأ خزانة كتب هامة كانت من بعد النواة لبيت الحكمة الشهير الذي أنشأه المأمون في بغداد) (٦١) وأقام فيه طائفة من المترجمين وأجريت عليهم الأرزاق من بيت المال، حتى أن المأمون كاد يفلس بيت المال حين كافأ حنين

اسحق على عمله هذا بمثل وزن الكتب التي ترجمها ذهباً. وقد شكل هذا البيت معهداً علمياً كان الباعث لليقظة الإسلامية الكبرى ، وكان ذلك بمشورة ابن هديل.
ويقول ول ديورانت (٦٢) (دامت هذه الأعمال... أعمال الترجمة المخصبة المستمرة ، من عام ٧٥٠ إلى ٩٠٠ م . وفي هذه الفترة عكف المترجمون على نقل أمهات الكتب من السريانية واليونانية والفهلوية والسنسكريتية) .
تزعم حركة الترجمة هذه دون منازع حنين بن اسحق العبادي المكنى بأبي زيد .والعباد (بكسر العين وفتح الباء) من بطون القبائل العربية التي تنصرت في القرون الأولى للمسيحية واستوطن قسم منها الحيرة، والحيرة معناها بالآرامية (جيرتا) الحصن أو المكر، مدينة قديمة شهيرة ، وهي قرب الكوفة، وكانت عاصمة اللخميين في جنوب العراق، وكانت تنتمي إلى كنيسة المشرق بالسريانية النسطورية.
(نشأ مولعاً بصناعة الطب كأبيه، كما أنه تلقى مبادئ العلم الأولي في الحيرة مسقط رأسه . فتمكن من السريانية لغة كنيسته التي كان فيها شماساً ولبس الزنار. وتخلص حنين من ركاكة لغته العربية المشوبة بألفاظ سريانية بأن درس لغة الضاد في البصرة معتمداً في ذلك على كتاب (العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي ويقال إنه أدخل كتاب العين هذا إلى بغداد). (٦٣)
كان طموح هذا الشاب لا يحد، ويقال أنه درس على يد يوحنا بن ماسويه في بغداد ونال رضا معلمه، وغادر بلاده قاصداً بلاد الإغريق حيث تعلم لغتهم،مما مكنه من أن يصيب من الفكر الهلنسي ثروة من المنهجية والعلم إلى جانب اللغة التي كانت يومذاك مفتاح الثقافة ، وهو من القلائل الذين ملكوا زمام هذا الأمر في بلاده . وعاد إلى العراق وهو ملم بالإغريقية إضافة إلى السريانية والعربية فانصرف إلى الترجمة وهو في ميعة الصبا، واصبح حنين حجة بالطب بعامة وطب العيون بخاصة مما جعل جبرانيل بن بختيشوع كبير الأطباء في بلاط المأمون يحتضنه ويعرفه بمحمد وأحمد وحسن أولاد موسى بن شاكر ،وكان الثلاثة يرعون النشاط العلمي ، فقام هؤلاء بتقديم حنين إلى المأمون الذي كان قد أسس بيت الحكمة دار للترجمة ،فعهد إلى حنين بإدارتها ،وقد كان الأثر الكبير في التطور الحضاري. وكان قمة ازدهارها في الترجمة في عهد المتوكل لأن خيرة المترجمين مع حنين كانوا قد ازدادوا تمرساً في مهنتهم.
لقد وصف حنين بن اسحق بالفيلسوف العبقري العظيمُ المواهب والطبيب النطاسي الواسع الاطلاع والشخصية الرئيسة في عصر المترجمين، وهو الذي ترجم ٢٠٠ كتاب من اليونانية إلى العربية منها ٩٥ تخص جالينوس من أصل ٤٠٠ كتاب ترجمت في تلك الفترة .. زمن بيت الحكمة، منها ١٤٩ في الطب و١١٤ في الفلسفة و١٢٣ في الرياضيات وغيرها .

وفضلاً عن رسائل جالينوس (التي حفظت من الفناء ترجمتها) ترجم حنين كتاب المقولات الذي يعرف عند العرب باسم قاطيفورياس والطبيعة، والأخلاق الكبرى لأرسطو، وكتب الجمهورية وطيماوس والقوانين أو النواميس لأفلاطون وعهد أبقراط وكتاب الأقرباذين (وهو دستور الأدوية) لديسقريدس وكتاب الأربعة لبطليموس ، وترجم العهد القديم من الترجمة السبعينية اليونانية للتوراة (٦٤)

والجدير بالذكر أن ابن رشد كان يعتمد في شروحه على ترجمات اسحق، وعليها كانت تقابل الترجمات الأخرى حتى عرفت ترجماته (بالدستور) لاعتبارها أوثق المراجع وأدقها. وكان حنين يؤثر ترجمة كتب الطب وكان ابنه اسحق أكثر ميلاً إلى نقل كتب الحكمة (٦٥)

ويمكننا القول إن حنين بن اسحق كان أحد الموسوعيين الكبار الذين طلبوا المعرفة وجَرَوا وراءها وأظهروها للناس .

وعرف من المترجمين المسيحيين في هذا العصر الذهبي للحضارة العربية- الإسلامية الحجاج بن مطر ويوحنا بن البطريق وعبد الملك بن ناعمة الحمصي وقسطا بن لوقا البعلبكي وأبو بشر متى بن يونس القنّئي وحبيش ابن أخت حنين بن اسحق وأبو علي اسْحق بن زُرعة (٩٤٣م /١٠٠٨م) ● ١٠/ ويوحنا بن حبلان .

وعلينا أن لا ننسى الشيخ أبو زكريا يحيى بن عدي (٨٩٣-٩٧٤م) تلميذ أبي بشر وأبي نصر الفارابي فقد اشتهر عشرة من تلاميذهم: أبو القاسم ابن علي بن عيسى (٩١٤-١٠٠١م) ابن الوزير ، وأبو سليمان محمد ابن ظاهر السجستاني صاحب (صوان الحكمة) وأبو علي عيسى بن زرعة مكمل تعليم أستاذه في اللاهوت ،وأبو الخير الحسن بن سوار.. المعروف بابن الخمار (٩٤٢-١٠١٧م) وأبو علي ابن السمح، وأبو بكر عبد الله بن الحسن القومسي،وأبو الحسن علي بن محمد البديهي، وأبو حيان التوحيدي، وابو علي نظيف بن يمن مدير البيمارستان العضدي ، وأحمد ابن محمد مسكويه . فستة منهم مسلمون ، وأربعة مسيحيين (عيسى بن زرعة، وابن الخمار ، وابن السمح، ونظيف) (٦٦)

صحيح عرف السريان أكثر ما عرفوا في حقل الترجمة في الفترة التي نتداولها،إلا أنهم كانوا الواسطة التي بها انتقلت الفلسفة والعلوم اليونانية إلى العالم العربي. (ولعل أهم ما قاموا به من نشاط كان في حقلي الطب والمنطق، وعنهم أخذ العرب هذين العلمين) (٦٧) وينقل الأرشمندريت يوسف نصر الله عن Kh.georr قوله (العربي لا يترجم من اليونانية بل من السريانية). (٦٨)

ويرى أوليري في كتابه علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب أن نقل العلوم الهلينية تم عبر خمس وسائل:

١- النساطرة الذين يُعدون المعلمين الأول للعرب وأبرز من نقل إليهم علوم الطب
٢- اليعاقبة الذين كان لهم الفضل الأكبر في إدخال الأفلاطونية الحديثة والتصوف إلى العالم العربي
٣- مدرسة جنديسابور الزرادشتية الفارسية وكان أشهر أساتذتها من النساطرة
٤- مدرسة حرّان الوثنية التي امتزجت فيها البابلية بالهلينية
٥- اليهود الذين اخذوا الطب عن النساطرة (٦٩)

المساهمة المسيحية في الطب العربي

إرتقى الطب البدائي عن طريق السريان واليونان، وكان للسريان النساطرة مدارس طبية ومستشفيات في العراق وبلاد فارس، كما اشتهرت مدرسة الطب اليونانية في الإسكندرية .

ويأتي علم الطب بعدْ الفلسفة تراثاً يونانياً تسلمه العرب، فأولوه رعايتهم واهتمامهم فتقدم على أيديهم، حتى أصبح من أوضح معالم الحضارة العربية في عصورها الذهبية.

لعب الأطباء المسيحيون دوراً هاماً في التطبيقات العملية للطب بعد أن تأثروا بمؤلفات أبقراط وجالينوس وغيرهما، فقد كان الأطباء اليونانيون نظريين اكثر مما هم عمليين في حين قام الأطباء المسيحيون العرب بتطبيق ماجاء فيها من نظريات وآراء على المرضى في مختلف الظروف والأحوال، فأقروا ماثبت صلاحه منها وطوروا قسماً آخر، ونبذوا ماسوى ذلك، محافظين على تسلسل مادة الموضوع ووحدته، وعلى التوافق بين أصناف المعلومات واسم الكتاب الذي يتضمنها. وكان من نتيجة ذلك إيجاد (طب) يناسب البيئة العربية ، حيث أضاف هؤلاء الأطباء الكثير من ابتكاراتهم وأعمالهم الأصيلة مما لم يسبقوا إليه، مجدين تلك المعارف وتبويبها مما احدث نهضة في عالم الطب.

نال الأطباء المسيحيون بشكل عام الاحترام والثقة، وحظوا بالمكانة التي لايمكن للوصف أن يفيها حقها من قبل الخلفاء والوزراء والعامة والأمراء، تقديراً لجهودهم في السهر على راحة الخاصة والعامة من المجتمع، والعناية بصحتهم آنذاك(٧٠) وقد كان ذلك واضحاً في بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، إذ كانت ساحة لتجمع الأطباء من مختلف أقاليم الإسلام. فمنهم من تلقى دراسة الطب ومنهم من درّسه . ونتيجة لهذه المنزلة ارتفعت مكانة الأطباء إلى أعلى المراتب ، ومن خلال ذلك مارسوا نشاطاتهم السياسية والاجتماعية وغيرها (٧١)

وعَدّ الخلفاء وجود الأطباء إلى جانبهم من مستلزمات الحكم للإشراف على صحتهم وصحة أسرهم وحواشيهم (٧٢) وجندهم. أو ليكونوا مثل سائر موظفي البلاط أداة للفخر وإظهار الملك ، إذ كان بلاط الخليفة يضم عدداً غير قليل من

العلماء والأدباء وكذلك الأطباء الذين هم وسيلة لتزيين وتجميل بلاط الخليفة وإظهار عظمته (٧٣)

لم تأت أهمية الأطباء من مجرد الحفاظ على صحة الإنسان (الخليفة) أو المسؤولين الآخرين. بل إن محتوى المهنة هو أشرف من محتوى ما تنطوي عليه المهن الأخرى، لأن الطبيب يهتم بالنفس (الروح) الإنسانية وهذه من حيث المنزلة أشرف من المال (المادة) فكيف إذا كانت هذه النفس نفس أمير المؤمنين (الإمام)،لهذا كانت مكانة الطبيب كبيرة.

واشتهر من الأطباء في هذه المنطقة قبل مجيء الإسلام أهرون بن أعين المعروف بالقس الذي وضع كناشا بالسريانية وجده الخليفة عمر بن عبد العزيز في خزائن الكتب فأمر بإخراجه إلى المسلمين للانتفاع به، وشمعون الراهب المعروف بطيبويه وسرجيس الراسعيني أول ناقل كتب اليونان إلى السريانية وأنسطاس الرومي الذي قيل أن لفظة النطاسي العربية مشتقة من اسمه (٧٤)

ومن أهم أعلام العرب المسيحيين في الطب كان الحارث بن كلدة الثقفي النسطوري، زوج خالة الرسول الكريم، الذي استمر حتى أيام معاوية بن أبي سفيان ولقب بـ (طبيب العرب)، وأصله من ثقيف من أهل الطائف، ورحل إلى بلاد فارس وأخذ الطب في مدرسة جنديسابور ،وكانت له معالجات كثيرة ،ومعرفة بما كانت العرب تعتاده وتحتاج إليه من المداواة ، وكان الرسول الكريم يأمر من كانت به علة أن يأتيه ، فيسأله عن علته. ((ويذكر ابن أبي أصيبعة أن للحارث من الكتب (كتاب المحاورة في الطب بينه وبين كسرى أنو شروان)، ثم يليه ابنه النضر الذي سافر طلباً للعلم كأبيه، واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرها، وعاشر الأحبار والكهنة ، واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة، وتعلم من أبيه ما كان يعلمه من الطب وغيره من العلوم)) . (٧٥) وقيل أنه اعتنق الإسلام ،ولكن البعض ينفي ذلك بدليل أن ابنه النضر بن الحارث، وكان ابن خالة الرسول الكريم، قد عادى هذا الأخير الذي أمر بقتله بعد موقعة بدر.

ويعتبر ابن أثال أحد الأطباء المتميزين في عهد معاوية الذي اتخذه طبيباً له.وكان خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة وقواها ، وما منها سموم قواتل . ذكره ابن أبي أصيبعة فقال (كان طبيباً متقدماً ،من الأطباء المتميزين في دمشق، نصراني المذهب. ولما ملك معاوية بن أبي سفيان سنة ٦٦١/٤١ دمشق اصطفاه لنفسه وأحسن إليه،وكان كثير الافتقاد له ، والاعتقاد فيه ، والمحادثة معه ليلاً نهاراً) (٧٦) وأبو الحكم الدمشقي الذي عاش حوالي مئة سنة كان طبيباً معاصراً له استطبه معاوية أيضاً. واعتمد عليه في تركيبات أدوية لأغراض كان قصدها منه. ثم ابنه الحكم الدمشقي الذي أصبح طبيباً لمعاوية أيضاً، ثم الطبيب الشهير تياذوق الذي صحب الحجاج بن يوسف الثقفي، وصاحب (الكناش الكبير) وكتاب (إبدال الأدوية وكيفية دقها وإيقاعها وإذابتها) . وأخيراً الطبيب البارع عبد الملك بن أبجر الكناني

http://www.al-maktabeh.com

الذي صحب الخليفة عمر بن عبد العزيز ،وتولى تدريس الطب في مدرسةالإسكندرية وأنطاكية وحران ونال شهرة واسعة .

إنغمر المسيحيون في دراسة الطب والترجمة الطبية حتى أنه بين القرنين الثامن والثالث عشر كان ثلثا أطباء العرب من المسيحيين ● ١١/ وجرت على يد بعض الأطباء المسيحيين والمسلمين في العصر الأموي أولى ترجمات الكتب الطبية عن اليونانية، كما نشأت المستشفيات ،وبخاصة في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك،الذي أمر ببناء أول مستشفى في دمشق عام ٧٠٦م وجعل فيه الأطباء وخصص لهم مرتبات مجزية، مما أعلى من شأن هذه المهنة.

وتطور الطب كثيراً في العصر العباسي بفضل الأطباء المسيحيين مما أدى إلى تحول واضح في الحياة الاجتماعية، فعم الترف معظم نواحي الحياة. وقد صاحب ذلك انتشار الأمراض ،نتيجة لتنوع الأطعمة والأشربة وحياة المدن الجديدة،مما أدى إلى الحاجة للأطباء والمستشفيات .

أخذ دور الأطباء أبعاده،فلم يقتصر على حدود المعالجة والتطبيب ،بل كان عليهم أن يلازموا الخلفاء ويرافقونهم في الأسفار ،سواء أكانت للحج أم للنزهة أو للحرب بل حتى عند تناولهم الطعام (٧٧) خوفاً من الدسائس التي قد يتعرضون لها بوضع السم في طعامهم، أو من منغصات تنوع الطعام.

ويمكن لنا أن نذكر ما حصل زمن الطبيب يوحنا بن ماسويه ((إذ كانت ملوك بني هاشم لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم ، إلا بحضرته. وكان يقف على رؤوسهم ومعه البراني والجوارشات (مادة مهضمة) المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء ، وفي الصيف الأشربة الباردة والطابخة المقوية والمعاجين)) (٧٨) ونجد كذلك الخليفة الأمين (لا يأكل ولا يشرب لا بإذنه) (٧٩) وهذا يؤكد الثقة المطلقة بالطبيب .

في تلك المرحلة نشطت مرحلة جديدة في الترجمة أولاً ثم مرحلة الإبداع والتأليف في حقل الطب. وأول من حمل لواء الترجمة طبيب سرياني نسطوري هو جرجس بن بختيشوع رئيس أطباء مدرسة جنديسابور الذي استقدمه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، الذي شفي من مرض في معدته على يديه، بترجمة بعض الكتب الطبية من اليونانية إلى السريانية. وعلى مدى ستة أجيال اهتمت هذه السلالة من الأطباء بالخلفاء العباسيين فكان منها بعد جرجس:

- بختيشوع الأول طبيب الرشيد والأمين والمأمون
- بختيشوع الثاني طبيب المأمون والواثق والمتوكل
- بختيشوع الثالث طبيب المقتدر والراضي

ودخلت هذه العائلة التاريخ بسبب علمها وثقافتها فكان لها الريادة في الطب والترجمة أباً عن جد، مؤثرة على صناعة الطب العربي بإنجازاتها من حيث المستوى العملي والنظري.

وكان عبيد الله بن جبرائيل، الحفيد السادس لجرجس، فاضلاً في صناعة الطب مشهوراً بجودة الأعمال فيها متقناً لأصولها وفروعها، من جملة المتميزين من أهلها والعريقين من أربابها، وكانت له تصانيف عديدة منها (كتاب مناقب الأطباء) و (كتاب الروضة الطبية) و (كتاب التواصل إلى حفظ التناسل) وغيرها من التصانيف .

أعطى الخليفة المتوكل بُعد طبيعة العلاقة، أو المنزلة بينه وبين الطبيب بختيشوع بن جبرائيل (أي الأول) قائلاً لوزيره: (أكتب في ضياع بختيشوع فإنها ضياعي وملكي ، فإن محلّه منا محل أرواحنا على أبداننا) (٨٠)

وبلغ من مرتبة بختيشوع هذا منزلة تعلو القادة والأمراء ، شأنه شأن غيره الذي وصل إلى شرف الوصول إلى هذه الثقة، واصبح هؤلاء هم الوساطة التي من خلالها يصل الآخرون بها إلى الخليفة (٨١) فنرى الخليفة هارون الرشيد يوجه أصحابه قائلاً: (كل ما كانت له إلي حاجة فليخاطب بها جبرائيل، لأني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني . فكان القواد يقصدونه في كل أمورهم) (٨٢)

وإلى جانب هذه العائلة كان هناك حنين بن اسحق، الذي سبق التنويه عنه في فصل الترجمة، وابنه اسحق ،وحبيش الدمشقي ،وعيسى بن يحيى ،ويوحنا بن ماسويه. وصاعد بن يحيى بن هبة الله بن توما النصراني، من أهل بغداد ،وكان من الأطباء المتميزين والأكابر المتعينين. حظي عند الناصر الحظوة التامة، وسلم إليه عدة جهات يخدم بها. وكان بين يديه عدة دواوين (٨٣) ،كما استوثقه هذا الخليفة على حفظ أموال خواصّه ،وكان يودعها عنده ويرسله في أمور خفية ويظهر له في كل وقت. وكان حسن الوساطة قُضيت على يده حاجات واسُتكفيت بواسطته شرور. (٨٤) ولهذا اعتبرت وظيفة هذا الطبيب بمنزلة وظيفة الوزير. وكان كذلك سلمويه بن بنان (+ ٨٤٠م) من أفاضل الأطباء في وقته ، خدم المعتصم ●/١٢ وخص به حتى أن المعتصم قال لما مات سلمويه: سألحق به لأنه كان يُمسك حياتي ويدّبر جسمي. وكان عالماً بصناعة الطب ولما مرض عاده المعتصم وبكى عنده. ولما مات امتنع المعتصم عن الأكل في ذلك اليوم وأمر بإحضار جنازته إلى دار الخلافة وأن يصلي عليها بالشمع والبخور على رأي النصارى ففعل ذلك وهو يراهم(٨٥)

وحفل التاريخ بأسماء العشرات من الأطباء المسيحيين في العصر الذهبي للنهضة العربية- الإسلامية ممن أتى اسمهم في حقل الترجمة ، ومن هؤلاء قسطا بن لوقا ويحيى بن البطريق في ترجمته لكتاب (الترياق في السموم) وكتاب (أجناس الحشرات وغيرها من الكتب) وعيسى بن الحكم، خصيب ابن بكش، ابن التلميذ، أيوب بن الأبرش، إبراهيم بن الأبرش، جبرائيل الكحال، ميخائيل بن ماسويه.

لعب هؤلاء (الأطباء) دوراً ساسياً في العلاقات بين الكنيسة السريانية

النسطورية والدولة حيث كان لهؤلاء الأطباء المسيحيين مكانة كبيرة في نفوس الخلفاء العباسيين ، يجزلون لهم العطاء ،ويولونهم مراكز مهمة في الدولة،ويأتمنوهم على أسرار بيوتهم، فها هو يوحنا بن ماسويه يشتهر في بغداد فيجعله الخليفة هارون الرشيد أميناً على ترجمة الكتب القديمة التي جاء بها من بلاد الروم.

وحين تولى المأمون الخلافة قدر في يوحنا علمه وسمو خلقه فعينه رئيساً لبيت الحكمة،وظل يتولاه حتى وفاته. وحين تولى الواثق بالله الخلافة اتخذ يوحنا طبيباً مختصاً به ونديماً لا يكاد يفارق مجالسه، إذ كان معجباً بعلمه وبمهارته الطبية حيث زادت مؤلفاته على الخمسين كتاباً وأخذ شهرة واسعة في ذلك الوقت.

أما تلميذ ماسويه النجيب فقد كان حنين بن اسحق الذي عددنا مآثره في حقل الترجمة، بيد أنه كان من أشهر أطباء القرن الثالث الهجري، فقد تميز في سلوكه الطبي ، وسعة علمه، وبراعته في علاج الأمراض البدنية وطب العيون.

وقد مدحه المستشرق الفرنسي لاكلير بقوله (إنه أبرز شخصية في القرن التاسع الميلادي ، وأكبر العقول المتحلية بأسمى الأخلاق وإذا لم يكن هو الذي صنع النهضة في المشرق فليس من مخلوق آخر عمل أكثر منه في سبيل العلم).

هناك حادثتان يمكن تناولهما هنا فيما يخص شرف مهنة الطب كان لاحداها أن وقعت على حنين بن اسحق ، ذكرها أكثر من مصدر تاريخي، منها لابن أبي أصيبعة ولابن القفطي وخلاصة القصة أن الخليفة المتوكل لما سمع بعلم حنين كان لا يأخذ منه دواءً إلا بعد أن يستشير غيره، أراد امتحانه حتى يزول ما في نفسه، ظناً منه أن ملك الروم قد يكون قد اتفق معه على المكيدة بالخليفة ، فاستدعاه وأسر إليه بحاجته إلى دواء يُريد به قتل عدو له، فقال حُنين : (يا أمير المؤمنين لم أتعلم إلا الأدوية النافعة، وما علمتُ أن أمير المؤمنين يطلب مني غيرها، فإن أحب أمضي وأتعلم) وكان بهذه الحجة يريد التملص مما طُلب إليه، فلم علم الخليفة نيته قال له: (هذا شيء يطول) . ورغّبه وهدّده وهو لا يزيد على ما قاله، إلى أن أمر بحبسه في بعض القلاع ووكل به من يوصل خبره إليه وقتاً بوقت، وهو هادئ ساكن في حبسه، دأبُه النقلُ والتفسيرُ والتصنيف، غير مكترث من الموقف القادم.

وتلى ذلك أن أمر الخليفة بإحضاره وإحضار أمواله يرغّبه فيها، وأحضر سيفاً ونطعاً وسائر آلات العقوبات وهو مع ذلك مصر على رأيه ، والخليفة يقول له: (هذا شيء لابد منه، فإن أنت فعلت قد فزت بهذا المال، وكان لك عندي أضعافه وإن امتنعت قابلتُك شر مقابلة، وقتلتُك شر قتلة) ، وحُنين يُجيبه: (قد قلت لأمير المؤمنين إني لم أحسن غير الشيء النافع ولم أتعلم غيره) فقال له الخليفة: (فإنني قاتلك) ، قال حنين: (لي رب يأخذ حقي غداً في الموقف الأعظم، فإن اختار أمير المؤمنين أن يظلم نفسه فليفعل). فتبسّم الخليفة وقال له: (ياحُنين طِب نفساً وثق إلينا ، فهذا الفعل كان لامتحانك لحذرنا من كيد الملوك وإعجابنا بك. فأردنا الطمأنينة إليك والثقة بك لننتفع بعلمك) .

وعاود الخليفة سؤاله عن سبب إصراره على امتناع تقديم السم قال له: شيئان،يا أمير المؤمنين .قال : وماهما؟ قال: الدين والصناعة. قال : فكيف؟ قال: الدين يأمرنا بفعل الخير والجميل مع أعدائنا ،فكيف أصحابنا وأصدقائنا ، ويُبعد ويحرم من لم يكن كذلك . والصناعة تمنعنا من الإضرار بأبناء الجنس البشري لأنها موضوعة لنفعهم، ومقصورة على مصالحهم . (٨٦) لهذا جعل الله في رقاب الأطباء عهداً مؤكداً بأيمانٍ مغلظة ألا يعطوا دواءً قتالاً أو مؤذياً. فلم أر أن أخالف هذين الأمرين من الشريعتين ، ووطنت نفسي على الموت، ما كان الله ليضيع من بذل نفسه في طاعته .ولسوف يثيبني . فقال الخليفة : إنهما لشريعتان جليلتان ، و أمر له بمال(٨٧) .

أما الحادثة الثانية فهي التي حصلت للطبيب ابن صفية المسلم بعد أن وصلت الأخبار إلى الخلافة على تجاوزه فلم تتأخر عن ردعه، فاستحضره الخليفة المستضيء بأمر الله (الذي كان خليفة بين ١١٧٠-١١٨٠ م) ليلاً وقال له: يا حكيم،عندي من أكره رؤيته وأريد إبعاده بوجه لطيف غير شفيع. فقال له: نرتّب له شربة قوية بالغة يشربها وقد حصل الخلاص منها كما تؤثر. فمضى وركب شربة، كما وصف وأحضرها ليلاً ودخل بها عند الخليفة ففتحها. ونظر إليها ،وقال: (ياحكيم، استق هذه الشربة حتى تجرب فعلها، فتتلوى من ذلك. وقال: الله ، الله، يا مولانا فيّ؟ فقال له: الطبيبُ من تعدى حده وتجاوز طوره وقع في مثل هذا وليس لك من هذا الخلاص إلا السيف. فاستقى الحكيم الشربة التي ركبها وفرّ من الهلاك إلى الهلاك)

من خلال هاتين الحادثتين نرى أمير المؤمنين وكخليفة يقدر، حنيناً كمسيحي ملتزم قد احترم دينه فيما الخليفة المستضيئ بأمر الله يجعل من طبيبه يهلك لخيانته لشرف المهنة.

هناك كلام ذكره الجاحظ بصدد شهرة الأطباء المسيحيين في ذلك العصر مما كان يثير الغيرة في نفوس بعض أقرانهم من الأطباء المسلمين، ويروي ذلك قائلاً:

كان أسد بن جاشي طبيباً فأكسد مرة، فقال له قائل: السنة وبئة ،والأمراض فاشية، وأنت عالم ، ولك صبر وخدمة ، ولك بيان ومعرفة ، فمن أين تؤتى في هذا الكساد؟ قال: أما (واحدة) فإني عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب، لا بل قبل أن أخلق، أن المسلمين لا يفلحون في الطب، واسمي (ثانية) أسد، وكان ينبغي أن يكون اسمي صليبا، ومراسيل،ويوحنا، وبيرا، وكنيتي أبو الحارث، وكان ينبغي أن يكون أبو عيسى ،وأبو زكريا وأبو إبراهيم ،وعلي رداء قطن أبيض، وكان ينبغي أن يكون رداء حرير أسود، (أخيراً) لفظي عربي، وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل جنديسابور (٨٨)● ١٣/

وفي مقابل هذا النبوغ للأطباء المسيحيين في الشرق العربي فقد نبغ عدد غير

قليل منهم في المغرب خلال الحكم العربيَ في الأندلس ومصر، مثل خالد بن يزيد بن رومان النصراني الذي يقول عنه ابن جُلجل (٨٩) أنه (كان بارعاً في الطب ناهضاً في زمانه ، عالماً بالأدوية)، وابن ملوكة النصراني الذي عاصر الخليفة الناصر عبد الرحمن الثالث، وكان يصنع بيديه الأدوية ، ويفصد العروق، وعلى باب داره ثلاثون كرسياً لقعود المرضى،أي أنه حول داره إلى مستوصف طبي(٩٠) كذلك اسحق الطبيب والد الوزير ابن اسحق الذي عاش في قرطبة ،وكان طبيباً ماهراً وصيدلانياً مجرباً يحكى أن لأدويته منافع عظيمة وأثار عجيبة ،ويحيى بن اسحق الأندلسي الذي اصبح وزيراً في عهد الخليفة الناصر عبد الرحمن وولاه الولايات الجليلة ، وألف كناشاً في خمسة أسفار سماه الإبريسم، وغير هؤلاء .

كانت معظم المؤلفات الطبية توضع لغاية القرن التاسع بالسريانية، وابتداء من أوائل القرن التاسع بدأوا يضعونها باللغة العربية وكان من أولهم يوحنا بن ماسويه الذي ألف ما يزيد عن أربعين كتاباً في مختلف أقسام الطب.

وإلى القرن العاشر كان الأطباء السريان اليعاقبة والنساطرة يديرون المستشفيات في مختلف أنحاء الدولة ومنهم عيسى أبي عيسى المسيحي الذي كان أحد معلمي ابن سينا. (٩١)

وخلال القرن الحادي عشر ذاع صيت المدرسة الطبية في بغداد والتي كان مسؤولاً عنها الطبيب الفيلسوف اليعقوبي عبد الله بن الطيب، فجمع حوله عدداً كبيراً من الأطباء المسيحيين في مختلف الاختصاصات.

وفي القرن الثاني عشر، وبسبب تدهور أوضاع العاصمة العباسية،تأسست مدارس طبية في دمشق وطرابلس .

أما في القرن الثالث عشر فقد توقفت مدرسة بغداد على أثر الغزو المغولي للمنطقة، وتوقف أي نشاط في تطوير الطب وتعليمه.

المساهمة المسيحية في البناء الفني

جاء الإسلام إلى المناطق المجاورة للجزيرة العربية ليجد حضارات قائمة بذاتها لها روائعها العجيبة في عالم الأشكال البنائية والزخرفية بفضل قوته واتساع مجاله وطول دوامه.

ففي سوريا مثلاً، كانت البلاد كلها مسيحية خلال القرنين الخامس والسادس واتصفت بناياتها بظاهرة نادرة في الزمان والمكان، وهي أن جميع الكنائس بل جميع البيوت، أنى قامت، تمتاز بميزة فنية... التناسق في النسب والأقسام ،والغنى في الزخرف، والرشاقة في الصنعة، كلها صفات تجعل من بنائي سوريا المسيحية ونحاتيها أساتذة ذوي خبرة ومهارة وقيمة ترتفع عن المستوى العادي.

ولم تكن المدن الكبرى وحدها لتختص بهم ، بل قد عُرف من فنّاني الفسيفساء

http://www.al-maktabeh.com

والنحاتين ومهندسي البناء ، من أقام في المدن الصغيرة والقرى النائية في الجبال الحجرية أو المنعزلة على حدود الصحراء حتى أمكن علماء المتأخرين أن يعتبروا،دون مبالغة، أن الفن الأصلي في سوريا الإسلامية،ذاك الفن الذي ولد الرائعتين الشهيرتين وهما قبة الصخرة في القدس والجامع الأموي في دمشق لم يكن إلا امتداد للفن المسيحي في هذه البلاد.

صادفت المسيحية حين انتشارها في حوض المتوسط مدينة كانت في قمة ازدهارها ، هي المدينة الرومانية. وقد طالما اعتبر العلماء الفن الروماني نوعاً من تعميم الفن اليوناني . ولا يخفى أن كلمة تعميم لها معنيان : فيها معنى نشر الأثر المعمم في مناطق أوسع من منطقته الأصلية ، ولكن فيها أيضاً معنى الانحطاط بقيمة الآثار، عدا أن الكمية تؤثر في الكيفية دون شك. وعلينا التنويه هنا أن الفن الروماني لم يكن واحداً في مختلف أنحاء الإمبراطورية . وأنه في البلاد اليونانية، ومنها سوريا بمقدار لا يستهان به، وكان تأثير العاصمة الرومانية في الفن أضعف من أن يلاشي التأثيرات القديمة . فكانت التقاليد اليونانية تحفظ منها على خلوص لا تصادفه في رومة حيث سادت الروح الرومانية مظاهر الفن . وبعد أن سارت به من الأصل اليوناني، أدخلت فيه نزعتها التحقيقية ورغبتها في مظهر الفخامة والعظمة، فامتلكت علم المهندس وسيرت أسلوب البناء، فولدت شيئاً جديداً. وهذا ما حدث للفن السوري إلى أن جاء الإسلام ليرى نهضة فنية عمرانية أدهشته ، وليطلع على علم خاص أو مجموعة قواعد تظهر نتيجة للجهد الفني السابق ويلزم الفنان أن يعرفها. يلزم البنّاء أن يعرف ماهية السطح مثلاً، كما يلزمه أن يعرف نوعية المواد التي يستعملها وطريقة استعمالها. كذلك يلزم النحات أن يحسن استعمال المقطع والإزميل.

ولا يخفى أن هذه المبادئ الأولية يتلقنها الطالب في مدرسة رجل يكون قد اشتهر ببنائه أو نحته، فيستفيد منه طريقته العملية كما يستفيد أسلوبه النظري وفكرته الخاصة في الفن والأمثلة الفنية. فليست مخيلة الفنان إذاً مطلقة الحرية تجاه الموضوع المقصود تمثيله، إنما هي محدودة مستندة إلى فكرة فنية في الجمال يجدها أستاذ الفنان المذكور وزمانه وبلاده. (٩٢)

ولا يخفى أن المظاهر والأشكال التطبيقية التي يفرضها مذهب فني ، تتمتع بحياة طويلة، وهذا ما يمكن تأكيده من خلال فن البناء الذي قام في سوريا المسيحية وامتد إلى أيام سوريا في غالبيتها الإسلامية، أي إلى يومنا هذا.

ويمكن ملامسة فن العمارة المسيحي من خلال الكنائس والأديرة وغيرها من أوابد التاريخ . في كثير من الأقطار العربية الحالية، من ذلك كنيسة صنعاء التي دعاها كتبة العرب في تواريخهم بالقليس، ومن هؤلاء ياقوت الحموي وأبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي. وقد هدمت هذه الكنيسة على يد أبو جعفر المنصور ثاني

خلفاء العباسيين بإيحاء من يهود صنعاء.

واشتهرت في مدينة نجران كنيسة كبيرة عرفها العرب بكعبة نجران (٩٣) ولم تخل أواسط الجزيرة العربية في نجد والحجاز من الأديرة والكنائس التي بنتها قبائل طي وتميم التي افتخر خطباؤها بتشييدهم الكنائس.

وفي العراق شيدت أديرة وكنائس عديدة كدير اللج ودير الأعور المنسوب إلى النعمان الذي زهد بالدنيا بعد اعتناقه المسيحية، ودير هند الكبرى الذي بنته أم عمرو بن هند.

أما في بلاد الشام فقد اختلط بنو غسان باليونان والرومان والمسيحيين وتعلموا منهم فن البناء فشيدوا الكنائس التي بقيت آثارها حتى اليوم في حوران والصفا واللجا وغيرها من المناطق.

وقد استعملت في التاريخ كلمات لتسمية دير مثل (دير) و (قصر) و(مار) و(برج) و (بريج) و(قلعة) ، وهذه الكلمات كلها تسبق الاسم. وقد أحصى المؤرخون في سوريا أقله ٥٦ مكاناً مأهولاً يحمل اسم (دير) في الوقت الحالي مابين قديم ومستحدث. وللدلالة على كثرة الأديرة في سوريا مع انتشار المسيحية فيها فقد تجاوز عددها المئات. ففي المنطقة الجنوبية (دمشق وحواليها) تجاوز عدد الأديرة ١٢٤ ديراً، وفي شمال سوريا وفي منطقة المدن الميتة وفي مساحة لا تتعدى ٢١٠ كم توصلت الاكتشافات الأثرية إلى التعرف على ٦٣ ديراً، أي دير واحد لمساحة ٢,٥ كم مربع. (٩٤)

وشكلت معظم الأديرة نواة تكونت حولها قرى زراعية ومجموعات سكنية مختلفة الحجم، تتبع الأديرة عقائدياً وروحياً وطقسياً وفكرياً وحضارياً، كما أنها تعتمد عليها في مجالات عديدة. (٩٥)

ولم تقتصر الأديرة على سوريا فقد كان لها وجود في الجزيرة العربية، وذكر الطبري في تاريخه دير سلع، قرب المدينة المنورة أي يثرب، حيث دفن الخليفة الثالث عثمان بن عفان. كذلك بنى المسيحيون أبنية دينية لغيرهم مثل بناء الكعبة سنة ٦٠٥ الذي تولاه وفي اسمه ياقوم مع رجل قبطي . وليست هذه المرة الوحيدة التي بنى المسيحيون ماخرب من الكعبة.

وذكر الأزرقي أنه في سنة ٧٠٠ ، في خلافة عبد الملك بن مروان ، وقع سيل دخل المسجد وأحاط بالكعبة وأرسل عبد الملك المال إلى عامله في مكة الذي (بعث رجلاً نصرانياً) مهندساً في عمل المسجد الحرام والدور في جنبتي الوادي. أما الوليد بن عبد الملك فقد وسع المسجد الحرام وزخرفه . ويروى ياقوت قائلاً (في أيام الوليد استقدم من ملك الروم أربعين رومياً وأربعين قبطياً ليعمروا المسجد فعمروه سنة ٧٠٩-٧١٠ مائتي ذراع) (٩٦)

ويجمل القول أن تأثير الهندسة المسيحية في الأبنية الإسلامية الدينية بيّن جلي. فالمسلمون لم يحولوا الكنائس إلى جوامع فحسب بل كانوا يقلدون هندسة الكنائس إذ كانوا يجهلون فن البناء كما قال ابن خلدون فلجؤوا في بلاد الشام والعراق ومصر إلى مهندسين وطنيين مسيحيين لبناء مقاماتهم الدينية، فطراز المباني الدينية الإسلامية يشبه الطراز السوري والطراز القبطي والطراز البيزنطي.

وكما سبق القول فإن للمسيحيين فضلاً كبيراً في فن البناء العربي الديني والمدني نتيجة التراث الذي حملوه، عدا عن أوطانهم، تراث الرومان في العمارة.

المساهمة المسيحية من أوجه عدة

كان أول من وضع المؤلفات العلمية باللغة العربية والأبحاث الفلسفية والدراسات اللاهوتية بهذه اللغة التي أوقفت منذ ظهورها على الشعر والخطب الحماسية وغيرها من فنون البيان الشفهي هم هؤلاء السريان المتضلعون من شتى اللغات.

بالنسبة إلى اللغة العربية فقد تكلمنا عنها في فصل أثر السريان في مفردات العربية- الإسلامية ، ولكننا يمكن أن نضيف عن نشأة اللغة العربية أنها في عصر الترجمة عرفت أساليب جديدة مكنتها من التعبير عن الأفكار الفلسفية والعلمية التي لم تكن قد وضُعت لتعبير عنها. وقد ساعدها على ذلك مالها من مرونة وطواعية في التصريف والاشتقاق . فلجأ النقلة في الدرجة الأولى إلى اللغة العربية وبحثوا مفردات لانزال نستعملها حتى اليوم منها: الأولّيَّات، والأين، والبديهيات،والحدسيات، والذات والكيفية، والهوية، والماهية وغيرها كثير. وأعطوا بعض الكلمات المألوفة معنى خاصاً مثل: العدم والعكس والمادة والصورة والدور والفصل والحدّ والقياس والجنس والخاص والعام والكلي والجزئي والمعاندة والمصادرة والمضاف والقضية والتصور والتصديق والعنصر والقوة والعقل والانفعال والأثر وما أشبه ذلك، وكذلك القول في الألفاظ الجديدة التي تزخر بها كتب الكيمياء والطب والرياضيات والنجوم وغيرها، فأصبح لكثير من الكلمات معان تختلف باختلاف العلم الذي تبناها كالحال والدليل والقياس.

وكثيراً ماكان المترجم ينقل اللفظة من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية، وكثيراً ماكان يُحدث ذلك في العلوم الدخيلة كالنبات والحيوان والعلوم الفلسفية، فدخلت عن هذه الطريقة كلمات عديدة من اليونانية مثل أسطورة والمجسطي وإسطرلاب وجنس وطغمة وفلسفة وغيرها الكثير من الكلمات.(٩٧)

وإذا كان من فخر للعرب فهو فن الخطابة بشقيها الديني والمدني، وفي كليهما امتاز المسيحيون في الجاهلية وبداية الإسلام. فقد انتشرت الخطابة الدينية بين المسيحيين العرب لأن الدين المسيحي انتشر بالتعليم الشفهي . وأشهر من لمع في

الخطابة الدينية عند العرب قس بن ساعدة الأيادي الذي كان آية في البلاغة الخطابية وضرب به المثل في أساليب البيان. أما أخباره المروية عن كتبة العرب فهي أقرب إلى الأساطير ، إذ يروي البعض أنه أدرك الرسل والقديس بطرس نفسه، وأنه عاش ستمئة سنة، وأنه بشر بمجيء نبي المسلمين، وأن هذا الأخير رآه في سوق عكاظ خطب على جمل. لكن الثابت قول البعض الآخر أنه كان أسقفاً على نجران وأنه كان زاهداً في الدنيا يلبس المسوح البسيط.

وفي الأدبيات السريانية يذكر خطيباً آخر اشتهر بالكوفة في القرن الأول للإسلام وكان أسقفاً على مسيحي الكوفة ويدعى جرجس الملقب بأسقف العرب وكان متعمقاً في درس كتب اليونان ونقل قسماً منها إلى العربية. ومن الذين أتي على ذكرهم الشعر العربي رهبان مثل القديس هيلاربون والقديس أفتيموس من عرب الشام والقديس جرجنسيوس رسول عرب اليمن وموسى رسول الغسانيين وغيرهم اشتهروا بخطبهم ومواعظهم .

في الخطابة المدنية اشتهر أبا فؤاد الإيادي، ولقيط بن يعمرُ الإيادي وعُذرة بن حجرة الإيادي وزيد بن جُندب الملقب بالمنطيق أي الخطيب المفوه البليغ وجميعهم من قبيلة أياد وهي من أقدم القبائل المسيحية وقد نسب إليها قدماء العرب البراعة في الخطابة. وقد اشتهرت في هذا الفن قبيلة أخرى غلبت عليها المسيحية هي تميم ومن ألمع خطبائهم أكثم بن صيفي بن رباح التميمي الذي قيل عنه أنه أشهر حكماء وخطباء الجاهلية، وحاجب بن زرارة ، والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم(٩٨)

والشعر العربي الموزون ذي الأبحر المقدرة والإيقاع الثابت كان ذلك في أوائل القرن السادس، حيث أخذ العرب عن السريان جيرانهم أسس نظم الشعر، إذ امترج هؤلاء بالعرب وبنوا في جزيرتهم عدداً كبيراً من الأديرة حيث كان الرهبان يسبّحون ويرتلون الأناشيد الروحية فاقتدى بهم العرب الذين أخذوا عن المسيحيين السريان تسجيع الكلام وموزاينه الشعرية. وأول من وضع أوزان الشعر كانوا من العرب المسيحيين، بشهادة المؤرخين المسلمين، كقبائل ربيعة وقضاعة واليمن وقيس التي قامت بنهضة شعرية ساعدت عليها الحروب بين القبائل ومع الفرس فاستثارت قريحتهم وأرهفت أحاسيسهم ، وكان للشعراء المسيحيين دور كبير.

لقد أدى وصول المسيحيين إلى الجهات العربية إلى انتشار طرق للكتابة لم يكن بإمكان الآداب أن تنتشر وتتطور دونها. ونشر المسيحيين للتعليم، إما بفتح المدارس أو بالتعليم الخاص، وبخاصة في أديرة الرهبان وفي المدن كمكة والمدينة. وإجماع أقدم كتبة العرب أن الشعر العربي كان أولاً في ربيعة التي فيها القبائل الكبيرة التي كانت الأجزاء الأساسية من الجزيرة العربية تحت سيطرتها. ومن هؤلاء الشعراء المسيحيين: المهلهل وعمرو بن كلثوم من بني تغلب ،طرفة بن العبد من بني ضُبيعة، الحارث بن حلزه من بني يشكُر ، الأعشى الكبير من بني بكر، قس

بن ساعده وأمية بن أبي الصلت من بني إياد، أوس بن حجر وعمر بن زيد بن بني مُضر، عنتر بن شداد من بني عبس، النابغة الذبياني من بني ذبيان، زهير بن أبي سلمى، ورقة بن نوفل من مُضَر، امرؤ القيس من بني كنده وحاتم الطائي من بني طيء .

http://www.al-maktabeh.com

ولم يقتصر الأمر على التأثر بالشعر بل تعداه إلى علوم النحو واللغة والعروض والفلسفة حتى أن نحاة البصرة قد سُموا (أهل المنطق) لاستعمالهم في النحو مصطلحات منطقية، ونحن نعلم أن تأثير المذاهب الفلسفية قد ظهر في البصرة قبل ظهوره في غيرها من حواضر العلم في الإمبراطورية الإسلامية ، وأن أشهر نُحاة البصرة كانوا من الشيعة أو من المعتزلة الذين أفسحوا للفلسفة مجالاً واسع في مذاهبهم .

وتحت تأثير منطق أرسطو والأبحاث اللغوية التي كان يقوم بها الفرس والتي أخذها الخليل عن صديقه ابن المقفع، تسّمت الجُمل ، وحُصرت أنواع الكلمة في الاسم والفعل والحرف ، أو الاسم والكلمة والأداة، كما سُميت أحياناً، والمعروف أن هذا التقسيم يرجع إلى نُحاة اليونان من الرواقيين، كما نجد دراسته مفصلة في كتاَب العبارة لأرسطو الذي نقله السريان والفرس وشرحوه وأفادوا منه، كما أفاد منه العرب من بعدهم. (٩٩)

أما فن الغناء فقد عرفه العرب من أهل الحضر لكن عرب البادية لم يعرفوا إلا القليل منه كالحداء لسوق أبلهم. فيما كان المسيحيون منهم من ذوي الرتب الدينية يتلون التراتيل منذ ظهور المسيحية.

وتأثر ملوك الغساسنة والمناذرة المسيحيين في الجاهلية بالموسيقى التي عزفها اليونان والفرس والروم، حتى أن أسماء الآلات الموسيقية المستعملة في موسيقانا العربية أصلها أجنبي.

وعرف من المغنين العرب المسيحيين في العهد الأموي أبو يحيى عبيد الله بن سريج وحنين الحريري.

وبما ذكرناه على الصفحات الماضية يتبين لنا مدى كبر مساهمة المسيحيين في تشييد الحضارة العربية- الإسلامية في القرون الأولى من نشأتها. ولقد (استفاد العرب الأوائل من إنتاج الآخر وصاغوه في ثقافتهم العربية) (١٠٠).

حواشي الفصل الثاني

١- صحيفة السفير- بيروت ٢٠٠١/١٠/٥ علي حرب
٢- مجلة الرعية الجديدة – بيروت العدد ٣٠٧ ك ٢ ١٩٩٦ من حوار مع البطريرك مار نصر الله صفير أجراه حبيب شلوق
٣- مجلة المشرق- بيروت السنة الثلاثون شباط ١٩٣٢ ص ١٠١ الأب هنري لامنس مصدر سابق
٤- المجلة البطريركية – دمشق العدد ٧ شباط ١٩٦٣ ص ٣٠١
٥- زيادة، نقولا : المسيحية والعرب دمشق: دار قدمس ٢٠٠٠ طبعة ٢ ص ١٩٦
٦- زيادة، نقولا مصدر سابق ص ١٩٧
٧- زيادة، نقولا: مصدر سابق ص ١٩٨
٨- زيادة، نقولا: مصدر سابق ص ١٩٨
٩- زيادة، نقولا: مصدر سابق ص ٢٠١
١٠- لوبون، غوستاف: حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر طبع عيسى البابي الحلبي ص ١٥٠
١١- لوبون، غوستاف: مصدر سابق ص ١٥٦
١٢- داود، مطران يوسف: اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية الموصل: مطبعة دير الأدباء الدومنكيين ١٨٩٦ ص ١٠٣
١٣- مكي، د. يوسف: الوحدة والتداعي بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٣ ص ١٨
١٤- داود، المطران يوسف مصدر سابق ص ١٤٣
١٥- عبده، سمير : السريانية- العربية الجذور والامتداد دمشق: دار علاء الدين ٢٠٠٠ ص ٧٢
١٦- صحيفة الأهرام- القاهرة : ٢٠٠٠/٧/١٢ ص ٢٧ د. محمد أسعد عبد الرؤوف
١٧- مكي، د. يوسف: في الوحدة والتداعي مصدر سابق ص ٢٨
١٨- تلخيص هذا الكتاب نشر في صحيفة الشرق الأوسط- لندن ٢٠٠٣/٨/٣١ ص ١٠ أحمد عثمان
19- Jeffery, Arthur: The foreign vocabulary of the qur' an. Baroda: oriental institute 1938 B×V1 + 311 pages
٢٠- علي،د. جواد : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام عشرة أجزاء بيروت: دار العلم للملايين ١٩٧٨ ط ٢ ٦٨٩/٦ مصدر سابق

٢١- مجلة المشرق : بيروت السنة ٣٤ ت١- ك ١ عام ص ٥٠٥ الخوري اسحق أرملة
٢٢- الزمخشري، محمود بن عمر القاسم: الكشاف عن حقائق غوامض التزيل وعيون الأقاويل القاهرة: مطبعة مصطفى محمد ١٣٥٤ ﻫ
٢٣- الصالح، د. صبحي : مباحث في علوم القرآن بيروت: دار العلم للملايين ط ١٠، ١٩٧٧ ص ٢٣٦
٢٤- السيوطي، جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن جزءان القاهرة: مطبعة حجازي ، ط ٣ ١٣٦٠ ﻫ /١٩٤١ ص ١٦/٢
٢٥- السيوطي: المصدر السابق ص ١٦/٢
٢٦- الألوسي، أبو الثناء: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، ٣٠ جزءاً القاهرة: المطبعة المنيرية (دون تاريخ) ص ١/ ١٠٤
٢٧- السيوطي: المصدر السابق ص ١٦/٢
٢٨- السيوطي: المصدر السابق ص ١٣/٢
٢٩- الزركشي: البرهان في علوم القرآن تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة: دار إحياء الكتب العربية أربعة أجزاء ١٣٧٦ﻫ/١٩٥٧ ص ١/ ١٧٤
٣٠- السيوطي: مصدر سابق ص ١٣/٢
٣١- السيوطي: مصدر سابق ص ١٤/٢
٣٢- علي أن أنوه بالدراسة القيمة التي كتبها الباحث اللبناني رابولا التغلبي فقد رجعنا إليها كثيراً في هذه الأسطر ×
× مجلة المسرة- حريصا ت١- ت ٢ عام ١٩٩٦ العدد ٨٢٤ رابولا التغلبي
٣٣- هيكل، محمد حسين : حياة محمد ط ١٣ القاهرة (دون تاريخ) ص٣٢٢
٣٤- الحلبي، برهان الدين: السيرة الحلبية ح ٢ طبع القاهرة ١٢٩٢ ﻫ ص ٤٣٥
٣٥- هيكل،محمد حسين مرجع سابق ص ٣٢٢
٣٦- مجلة المسرة: رابولا التغلبي مرجع سابق ص ٦٣٤
٣٧- مجلة المسرة: رابولا التغلبي مصدر سابق ص ٦٣٦
٣٨- مجلة المسرة: رابولا التغلبي مصدر سابق من ص ٦٢٢-٦٥٥
٣٩- دفتري، د. فرهاد: الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم ترجمة سيف الدين القصير دمشق " دار الينابيع ١٩٩٤
٤٠- الخصيبي، أبي عبد الله بن حمدان: الهداية الكبرى ط ١ ١٩٨٦ (دون

ذكر مكان واسم الناشر) ص ٣٥٦
٤١- الخصيبي مصدر سابق ص ٣٨
٤٢- الخصيبي مصدر سابق ص ٩٢
٤٣- الخصيبي مصدر سابق ص ١٤٩
٤٤- مجلة المشرق- بيروت تشرين ١ – كانون ١ سنة ١٩٣٦ الخوري إسحق أرملة مصدر سابق ص ٤١
٤٥- مجلة علامات- جدة ربيع الآخر ١٤٢٤ ص ١١ حسن غزالة
٤٦- مجلة المشرق- بيروت السنة الثلاثون نيسان ١٩٣٢ص ٢٩١ الخوري يوسف فارس
٤٧- مجلة المسرة- حريصا العدد ٥٩٦ حزيران ١٩٧٤ ص ٥٤٢ إبراهيم مدكور
٤٨- صحيفة الأهرام ٢٠٠١/١٢/٢١ سامي خشبه ص ٣٥
٤٩- غوتاس، ديمتري: الفكر اليوناني والثقافة العربية ترجمة د.نقولا زيادة بيروت: المنظمة العربية للترجمة ٢٠٠٣ ص ٣١
٥٠- عبده، سمير: لغات السوريين لغات دمشق: دار حسن ملص للنشر ٢٠٠٣

51- Syriac culture in the seventh century . London: Aram magazine vol 1(1989) P.P 268-280

٥٢- عبده، سمير: لغات السوريين لغات دمشق: دار حسن ملص للنشر ٢٠٠٣
٥٣- داود، المطران يوسف: اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية مصدر سابق ص٤٢
٥٤- مجلة علامات- جدة ربيع الآخر ١٤٢٤ هـ ص ٦١٩ عبد الوهاب الحكمي
٥٥- مجلة علامات- جدة ربيع الآخر ١٤٢٤ هـ مصدر سابق ص ٨١ محمود إسماعيل عمار
٥٦- مجلة علامات- جدة ربيع الآخر ١٤٢٤ هـ ص ٦٢١ عبد الوهاب الحكمي مصدر سابق
٥٧- التوحيدي، أبو حيان : الصداقة والصديق تحقيق علي متولي صلاح القاهرة : مكتبة الآداب بالجماميز ١٩٧٢ ص ٧٨
٥٨- مجموعة مؤلفين : المسيحية عبر تاريخها في الشرق الأوسط بيروت: مجلس الكنائس الشرق الأوسط ٢٠٠٠ الأب سمير خليل ص ٥٠٦
٥٩- أصيبعة، ابن أبي : عيون الأنباء .: مصدر سابق
٦٠- ابن النديم: الفهرست مصدر سابق

٦١- مجلة المسرة العدد ٥١١ كانون الثاني ١٩٦٦ ص ٥٣ الأرشمندريت يوسف نصر الله
٦٢- ديورانت، ول: قصة الحضارة الجزء الثاني من المجلد الرابع ص ١٧٧
٦٣- مجلة العربي- الكويت العدد ٢٩٢ آذار ١٩٨٣ محمد علي الزركان
٦٤- محمد، د. ماهر عبد القادر : حنين بن اسحق: العصر الذهبي للترجمة بيروت: دار النهضة العربية ١٩٨٧ ص ٧٧ إلى ٩٥
٦٥- خليل ، الأب سمير (تحقيق) مقالة في التوحيد للشيخ يحيى بن عدي (٨٩٣ -٩٧٤) جونيه: سلسلة التراث العربي المسيحي رقم ٢ عام ١٩٨٠ ص ٣١-٣٣
٦٦- مجلة المسرة- حريصا العدد ٤٣٢ شباط ١٩٥٨ حنا الفاخوري- خليل الحر
٦٧- مجلة المسرة – حريصا العدد ٤٣٢ مصدر سابق ص ١٠٠
٦٨ - مجلة المسرة- حريصا العدد ٥١١ كانون الثاني ٩١٦ ص ٥٤ الأكسرخوس يوسف نصر الله
٦٩- أوليري، دولاسي إيفانز: علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب ترجمة وهيب كامل القاهرة: مكتبة الخانجي ١٩٦٢
٧٠- السامرائي، د. كمال: مختصر تاريخ الطب العربي بغداد: وزارة الثقافة والإعلام جزءان ١٩٨٤ ج٢ ، ص٤٤٨
٧١- مجلة المؤرخ العربي- بغداد ١٩٧٨ العدد ٩ ص ٩٩ محمد مرسي عرب
٧٢- ابن القفطي: تاريخ الحكماء مصدر سابق ص ٢٣٢
٧٣- السامرائي، د.كمال: مصدر سابق ص ٤٨٨
٧٤- مجلة الرعية- بيروت العدد ٣٥٤ أيار ٢٠٠٠ ص ٦٢ كريستيان الحلو
٧٥- مجلة الرعية- بيروت العدد ٣٥٤ مصدر سابق ص ٦٢
٧٦- مجلة النشرة- عمان العدد ١٥ صيف ٢٠٠٠ ص ١٣ عواد علي
٧٧- ابن القفطي: تاريخ الحكماء مصدر سابق ص ٤٠٥
٧٨- ابن جُلجل: طبقات الأطباء والحكماء مصدر سابق ص ٦٥
٧٩- ابن القفطي: تاريخ الحكماء مصدر سابق ص١٤١
٨٠- ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء مصدر سابق ص ٢٩٥
٨١- مجلة المسرة- حريصا تموز- آب السنة ١٩٩٤/٨١ ص ٤٨٩ الأب سهيل قاشا
٨٢- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء مصدر سابق ص ٨٨-١٩٠
٨٣- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء.. مصدر سابق ص ٣٠٢
٨٤- ابن القفطي: تاريخ الحكماء مصدر سابق ص ٢٠٧

٨٥- ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء.. مصدر سابق ص ٢٦١
٨٦- براون، إدوارد : الطب العربي ترجمة: داود سليمان علي بغداد ١٩٨٦ ص ٢٨
٨٧- ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ... مصدر سابق ص ٣٤٨
٨٨- الجاحظ، أبو عثمان بن بحر: البخلاء بيروت: دار الفكر
٨٩- ابن جُلجل، أبا داوود سليمان: طبقات الأطباء والحكماء مصدر سابق
٩٠- مجلة النشرة- عمان العدد ١٥ ص ١٥ عواد علي مصدر سابق
٩١- مجلة الرعية- بيروت ص ٦٣ كريستيان الحلو مصدر سابق
٩٢- مجلة المشرق- بيروت السنة ٣٢ نيسان- حزيران ١٩٣٤ ص ١٦٤ جان لاسوس
٩٣- مجلة الرعية- بيروت العدد ٣٥٢ آذار ٢٠٠٠ ص ٣٩ كريستيان الحلو
٩٤- عبده، سمير : سريان ولكن سوريون دمشق منشورات دار حسن ملص ٢٠٠٢ ص ٤٣
٩٥- عبده، سمير: سريان ولكن سوريون مصدر سابق ص ٤٣
٩٦- مجلة الرعية- بيروت العدد ٣٥٢ مصدر سابق ص ٣٩
٩٧- مجلة المسرة- حريصا العدد ٤٣٢ شباط ١٩٥٨ ص ٢٠٧ حنا الفاخوري- خليل الحر مصر سابق
٩٨- مجلة الرعية- بيروت العدد ٣٥١ شباط ٢٠٠٠ ص ٤٥ كريستيان الحلو
٩٩- مجلة المسرة العدد ٤٣٢شباط ١٩٥٨ ص ٢٠٧ حنا الفاخوري – خليل الحر مصدر سابق
١٠٠- صحيفة الحياة – لندن ٢٠٠٤/١/١٥ محمد صالح الغامدي

●١/ من المعروف أن تعبير سرياني شرقي يطلق على من هم نساطرة ، وغربي على اليعقوبيين، والروم على الملكيين لأن اسمي الأولين هي لأشخاص، ووضعت من قبل الخصم. كذلك هو الحال بالنسبة للملكيين من كلمة (ملكيون – من السريانية ملكو أي ملك- هي في الأصل لقب ألصقه مناوئو المجمع الخلقيدوني بمناصري المجمع الذي تبناه العاهل البيزنطي)×

× مجلة المسرة- حريصا ك ٢- شباط ١٩٩٦ السنة ٨٢ ص ١٢١ الأب جورج باليكي

●٢/ فيما ذكر أحد المصادر عن مرويات تاريخية أن أبا عبيدة بن الجراح بعث- وقد أعلم بذلك الخليفة عمر بن الخطاب- الرسل إلى أهل إيلياء وكتب إليهم (فإنا ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله.. فإن شهدتم بذلك حُرّمت علينا دماؤكم وأموالكم وذراريكم وكنتم لنا إخوانا.وإن أبيتم سرت إليكم بقوم هم أشد حباً للموت منكم لشرب الخمر

http://www.al-maktabeh.com

وأكل لحم الخنزير، ثم لا أرجع عنكم إن شاء الله تعالى أبداً حتى أقتل مقاتليكم وأسبي ذراريكم)×

× جاء ذلك في كتاب قاضي القضاة أبو اليمن القاضي مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل عمان: مكتبة المحتسب ١٩٧٣ ص ٢٤٧

●/٣ ظلت بطريركية أنطاكية الملكية الرسمية دون بطريرك من سنة ٦٠٩م حتى سنة ٧٤٢ م

●/٤ أصبحت الأديرة والمراكز الدينية الأخرى الخاصة بالتعلم بمثابة مستودع للإنجاز الثقافي والفني المكرس لخدمة الله تعالى، وكانت هي الحافظة والناقلة لكافة أنواع المعرفة والعاملة أيضاً على إنمائها وزيادتها×

× ديكنسيون، د. جون. ب : العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث ترجمة شعبة الترجمة باليونسكو سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١١٢ ص ٢٤٣

وقد مثلت الأديرة في الشام ومصر وربما في غيرها من أقطار المشرق العربي قنطرة للعبور الفكري بين الحضارة العربية وغيرها من الثقافات المعاصرة.

●/٥ (تلك آيات الكتاب) إشارة إلى آيات من كتاب آخر سبق القرآن، وهو الإنجيل، وهو (كتاب حكيم)

●/٦ قيل عن هشام بن محمد: كانت العرب تقول: إنما خدش الخدوش منذ ولد أبونا أنوش، وإنما حرم الحنث، منذ ولد أبونا شثّ وهو بالسريانية (شيث)×

× الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير: تاريخ الطبري- تاريخ الأمم والملوك المجلد الأول بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٨ ص ٥١٨

●/٧ اسم طالوت بالسريانية شاول بن قيس بن أبيال بن ضرار بن بحرت بن أفيح بن أيش بن بنيامين بن يعقوب بن ا سحق بن ابراهيم.

وقال ابن اسحق: كان النبي الذي بعث لطالوت من قبره حتى أخبره بتوبته اليسع بن أخطوب، حدثنا بذلك ابن حميد: قال: حدثنا سلمة، عن ابن اسحق ×

× الطبري مصدر سابق ص ٢٨٠

●/٨ يروي الخوري اسحق أرملة أنه مما يدل على نبوغ السريان وأمانتهم في النقل من اليونانية إلى السريانية إبقاؤهم، في نصوص العهد الجديد، ألفاظاً يونانية متعلقة بدوائر الحكومة كانت دارجة في ذلك الزمن مثل

فرقة، جندي ، حاكم ، قائد، مئة، أمير ، دار الولاية.. الخ ×
× مجلة المشرق- بيروت ت ١- كانون ١ سنة ١٩٣٦ ص ٤١٨ إسحق أرملة مصدر سابق

●/ ٩ كثيراً ما تختلط على البعض التسميات الإسلامية التي كان المسيحيون يطلقونها على أولادهم ، ويمكننا الاستشهاد بما ذكره كاتب فاضل في ذلك:

(كانت الأسماء مشاعة مشتركة في الخلافة العباسية، وظل النصارى دهراً طويلاً يتخذون السماء الإسلامية البحتة حتى بين بطانة الخلفاء دون أن يقع عليهم أقل إنكار، مثل الحسين بن عمرو كاتب المقتفي، وعلي بن الراهبة طبيبه، وعلي بن عيسى الدنداني كاتب الوزير الخاقاني، وعلي ابن إبراهيم بختيشوع المتطبب ، وعلي بن علي الكاتب المذكور في الآثار الباقية للبيروني، وعلي بن سوار بن الخمار الكاتب السرياني الذي بنى قبة القيامة بعد أن خربت الكنيسة وأحرقت أبوابها سنة ٩٦٥، والحسن بن سوار بن الخمار من أفاضل المنطقيين. ومن النساء زينب بنت اسحق الراسعيني التي عرفت بأبيات نظمتها في مديح علي بن أبي طالب) ×

× مجلة المشرق- بيروت ك ٢ – آذار ١٩٤٨- حبيب الزيات مصدر سابق ص ٥٤

●/ ١٠ أبو علي هذا هو سرياني، وهو الذي عرّب مقال ينسب لأرسطو في التدبير واضعاً ترويسة للمقدمة بجملة (بسم الله الرحمن الرحيم). وقلة من القراء يعرف أن هذه الجملة كان يتداولها من كان على الطائفة المسيحية قبل مجيء الإسلام ، وبعده ساروا على النهج ذاته.

(ويذكر عن أبو علي أنه كان من المتقدمين في علم المنطق وعلوم الفلسفة وأحد النقلة المجودين، وكان كثير الصحبة والملازمة ليحيى بن عدي الفيلسوف السرياني الشهير، وقد امتاز ابن زرعة بالنقل عن اليونانية والسريانية)×

× مجلة المشرق- بيروت السنة السادسة العدد ٧ ١ نيسان ١٩٠٣

●/ ١١ بعد ألف عام ويزيد بقيت النسبة كما هي ، على الأقل في سوريا الحالية ، فقد بلغت نسبة الأطباء المسيحيين ٢٩% عام ١٩٣٠×

× عبده، سمير: الطوائف المسيحية في سوريا منشورات دار حسن ملص ٢٠٠٣ ص ٤٠

●/ ١٢ يشرح الخليفة المعتصم طبيعة العلاقة بينه وبين طبيبه سلمويه بقوله:
(سلمويه طبيبي أكبر عندي من قاضي القضاة لأن هذا يحكم نفسي ،

ونفسي أشرف من مالكي وملكي) ×

× ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء . مصدر سابق ص ٢٣٤

● /١٣ مع أنه مضى على هذا القول المئات من السنين فإن عامة الناس من المسلمين لا زالت تأخذ به

● /١٤ يعتبر بطرس البستاني أحد رواد الفكر الحديث، درس في مدرسة عين ورقة في لبنان ، والتحق بالمرسلين الأمريكيين ودرس عليهم العبرية واليونانية كي يتمكن من ترجمة التوراة ، كما درس الإنكليزية . أسس مدرسة في عبيه وحرر صحيفة في بيروت وعمل على تحرير ثلاث مجلات. كما ألف كتب مدرسية في الصرف والنحو والرياضيات كانت ثورة في زمانها ، وجمع مواد ستة مجلدات من موسوعة المعارف المعروفة باسمه .

الفصل الثالث

دور المسيحيين في عصر النهضة العربية الحديثة


http://www.al-maktabeh.com

التحولات العقائدية والفكرية

لدى المسيحيين العرب

بعد أن اجتاحت البلاد العربية موجات الغزو والخلافة العثمانية طرأ على مسيحيي المنطقة الكثير من التطورات حيث أصبحوا أقلية على الصعيد الديني والبشري والسياسي، ولكن اتصال الطوائف المشرقية بروما وفتح أبواب الثقافة الغربية أمامهم من خلال البعثات التبشيرية ، أسعفهم في مد جسور تعاطف تجاري وعلمي وديني مع الدول الأوربية المختلفة في وقت أخذت أوربا تزدهر فيه بشكل مطرد بعد العصور المظلمة التي عاشتها ، فتميزت طبقة المسيحيين المثقفين عن جمهور العثمانيين عامة، متأثرة بقيم الغرب ومفاهيمه، وهو مالم يحصل بالدرجة فيها للمسلم نفسه. وهذا ما جعل من تباين بيّن بين المسيحيين المثقفين العرب، ومحيطهم المسيحي الإسلامي على شكل سوي.

التحولات في الكنيسة المسيحية العربية

عاشت الكنائس الشرقية مدة طويلة تخضع للمسلمين، ولما فتح الأتراك القسطنطينية كان المسيحيون الشرقيون قد خبروا لمدة حوالي تسعة قرون، حياة أهل الذمة، طيلة قيام الإمبراطورية البيزنطية ، وحتى لو أن مساحتها تقلصت حتى حدود عاصمتها المهجورة تقريباً، وطالما أن إمبراطور القسطنطينية كان يجسد وحدة الإيمان، بقي اللاهوت الأرثوذكسي، المتعلق بالسلطة المدنية وبعلاقتها مع الكنيسة، مصاناً. إلا أن هذا الوضع لم يبق على ماهو عليه بعد سقوط القسطنطينية وانهيار الإمبراطورية البيزنطية.

فمنذ فترة طويلة وقبل زوال الإمبراطورية البيزنطية سرى تيار فكري قوي داخل عالم الأرثوذكسية يقول بأن الخضوع للأتراك كحل سياسي هو أجدى بكثير من خضوع كنيسة القسطنطينية لبابا روما. لكن بعد سقوط القسطنطينية ورؤية (الامتيازات) الممنوحة لبطريركها والسياسة الدينية التي اتبعها الحكم العثماني حيال أتباعه من المسيحيين برز بوضوح طرحان: الأول، كيفية تعايش المسيحيين والمسلمين، والثاني ، كيفية تعاون الكنيسة المسيحية والحكم الإسلامي. وهكذا تحولت النظرة اللاهوتية القائلة بمبدأ إيمان واحد وإمبراطورية واحدة وإمبراطور واحد إلى عقيدة لاهوتية ترضى بالتعددية الدينية داخل الدولة الواحدة، وبإذعان الكنيسة عن رضى لحكم غير مسيحي . وقد بُرر ذلك على أنه يدخل ضمن التدبير الإلهي لصون وحدة الإيمان القويم (الأرثوذكسي) (١).

هذا على الأقل كان اجتهاد الروم في تلك الأيام بالنسبة للدولة الحاكمة. ولكن (الكثلكة) أخذت تغزو الجسم الأرثوذكسي ،وجرت معارك طاحنة بين الاثنين ●/١ واشتدت أكثر بين الكاثوليك والبروتستانت حيث خرج هؤلاء من عباءة الكاثوليكية،ومن بين حروب هؤلاء (حرب الوردتين) التي استمرت مائتي عام، إلى أن غدت الكنيسة أقل أصولية من سابقتها، وهذا الأمر أثر كثيراً على المجتمعات المسيحية في هذه المنطقة ، ويمكن تلمس ذلك من سرعة انتشار (البروتستانتية) منذ عام ١٨٤٨ والتجديد الذي طرأ على الخطاب المسيحي، حتى أننا نرى التيار المسيحي الليبرالي – أي التحرري هو السائد والمسيطر على الساحة.

والتدين المسيحي الذي شاع في أوربا هو نوع آخر مختلف تماماً، فقد اخترقته الأفكار العلمية والفلسفية الحديثة إلى حد أنه فقد كل الطابع العمقي أو الإرهابي لتدين القرون الوسطى.

ويشبه تدّين المثقفين الأوربيين الفلسفة الحرة من كل القيود.. وبالتالي فلا ينبغي أن نخطيء في فهم الكلمات والمصطلحات. فكلمة دين أو تدين، أو مسيحي في أوربا ، لم تعد لها علاقة بما سبق، أو قل أن لها علاقة بالجوهر لا بالقشور.. إيمان مابعد التنوير لا ماقبله... إنه يأخذ من الدين المسيحي روحانية الإنجيل والقيم الأخلاقية العليا ويطرح كل ماعدا ذلك (٢)

وأسهم الفكر المسيحي المشرقي في توسيع فكرة التقدم من أفعال وكلمات المسيح نفسه كما هي مسجلة في العهد الجديد. وقد ينظر إليها على أنها المادية المسيحية المبنية على ماتم تسجيله وتناقله من أن معجزات المسيح، والكثير من أقواله ، كانت موجهة نحو التخفيف من العوز والمعاناة . ذلك أن الاهتمام بالاحتياجات المادية لرفاق المرء كان يكرم على أنه عمل في خدمة الله، وأن العمل على زيادة ثراء الجنس البشري كان محل التشجيع على اعتبار أنه يعجل بإقامة مملكة الله على الأرض.

وتم نتيجة ذلك انقسام مسيحي الشرق إلى أرثوذكس وكاثوليك بعد أن أخذت الإرساليات الأجنبية تفد إلى هذه المنطقة فنشأ نتيجتها الطوائف الكاثوليكية المتأثرة بالغرب وثقافته ، وهي التي أدخلت الحداثة مع البروتستانتية اللاحقة إلى هذه المنطقة، وعلى أثر ذلك نشأ من السريان الأرثوذكس السريان الكاثوليك والأرمن الأرثوذكس الأرمن الكاثوليك والروم الأرثوذكس الروم الكاثوليك ومن ثم ابتداء من عام ١٨٤٨ وهو تاريخ ميلاد الطائفة البروتستانتية في هذه المنطقة تحول الكثير من أبناء هذه الطوائف ، سواء أكانوا كاثوليك أو أرثوذكس إلى البروتستانتية ●/٢ وهي التي (سرّعت) في حركة تحديث المنطقة حيث لحقتها الكاثوليكية.

المسيحيون والامتيازات الأجنبية

توفرت الأوضاع الملائمة لحلول نظام الامتيازات الذي تكرر طيلة القرن

السادس عشر حتى التاسع عشر: من تأثير رومه ، إلى موجة الكنائس المتحدة برومه، إلى الحماية الروسية واليونانية، إلى تداول الدول الكبرى المفضوح منذ أن أصبحت الدولة العثمانية (الرجل المريض).

ويعتبر قانون (نامه) الذي أصدره السلطان محمد الثاني الفاتح بعد فتحه للقسطنطينية أول شرعة خطية عثمانية أخذ بها فيما بعد كأساس لتنظيم الامتيازات الأجنبية.

ففي أوائل شهر شباط ١٥٣٦ جرى اتفاق بين سفير فرنسا جان لافوست والباب العالي صدر به خط شريف مرسوم سلطاني يمنح بعض الامتيازات التجارية للرعايا الفرنسيين النازلين في أراضي السلطنة العثمانية.

واستغلت فرنسا ما حصلت عليه من الدولة العثمانية في أوائل القرن السابع عشر من حق رعاية الأماكن المقدسة والعناية بها وترميمها ، فمدت نفوذها إلى البلاد السورية عن طريق الدين بدعوى رعاية المسيحيين فيها. وما أن اطلع الروس على ما احتله الفرنسيون من مركز ديني مرموق فيها حتى ثارت ثائرتهم وبدؤوا يتقدون غيظاً وحسداً، فأخذوا يستغلون عليه معاهدة (كوتشوك قايزجي) (١٧٧٤) من إعطاء الروس حق رعاية الروم الأرثوذكس في الدولة ، وما نص عليه الفرمان الذي حصل عليه القيصر الروسي من السلطان عام ١٨٠٨، وقد أباح للروس الأرثوذكس إصلاح الكنيسة الكبرى في القدس. ومنذ إلغاء الروسيا التحالف المقدس الذي قام في العام ١٨١٥ للقومية في أوربا الشرقية انتهزت الفرصة عند سنوحها لكي تلعب دور الحامية للأقليات المسيحية في الدول العثمانية وتسعى من جهة أخرى لتحرير الكاثوليك من هذا الامتياز ومنحه للأرثوذكس المتمذهبين بمذهبها وكان يبلغ عددهم عند ذاك (ما ينوف عن عشرة ملايين من النفوس) (٣) وفي العام ١٨٤٣حصل بطريرك الأرثوذكس في القدس على موافقة الباب العالي بانفصاله عن بطريرك الأستانة، بحيث أخذ يقوي سلطته بمساعدة قيصر الروسيا ودعمه، وقد ردت الحكومة الفرنسية على ذلك بمساعدة الكهنة الكاثوليكيين والمطالبة لهم بامتيازات جديدة في العام ١٨٥٠

وعين الباب العالي لجنة مشكلة من عدة أعضاء مختلفي المذاهب لفصل هذه المسألة بمقتضى مآل المعاهدات القديمة . وبعد عدة اجتماعات متوالية قررت هذه اللجنة بأن الأولوية هي للكاثوليك في امتلاك عدة كنائس وأديرة وأعطتهم بعض الامتيازات أهمها تسليم رجال دينهم المفاتيح الخاصة بالأبواب الرئيسة لكنيسة العذراء وبالسراديب الكائنة تحت كنيسة المهد في بيت لحم بتاريخ ٦ شباط ١٨٥٢ فعارضت الروسيا بتنفيذ قرار اللجنة من هذه الجهة وهددت الباب العالي بالحرب عند عدم إجابة طلبها، في حين تشددت فرنسا بتمسكها بحقوقها الأمر الذي دعا الباب العالي إلى وجوب تنفيذ القرار المختلف عليه، حسماً للأمر، ولكن القيصر نيقولا الأول لم يرَ أن الأمر انتهى عند هذا الحد فأراد اتخاذ ذريعة ما ليضع على بساط

البحث على المسألة الشرقية في أوسع معانيها.(٤)
وهكذا بدأ نزاع عنيف بين دولتي فرنسا وروسيا على رعاية الأماكن المقدسة في القدس، وهو ما جعل فرنسا وإنكلترا يوقعان في ١٢ آذار ١٨٥٤ في مدينة الأستانة على عقد محالفة مشتركة الغاية منها حماية الدولة العليا والدفاع عنها ضد روسيا . ولم يزل النزاع محتدماً بينهما حتى أسفر عن نشوب حرب (القرم) المعروفة (١٨٥٥) بين فرنسا وإنكلترا وتركيا. وفي مؤتمر الصلح الذي عقد في باريس من ٢٥ شباط إلى ٣٠ آذار ١٨٥٦ تمخض عن معاهدة وقعها مندوبو فرنسا وبريطانيا العظمى والروسيا وسردينيا والنمسا وتركيا كان من بين بنودها تعهد الدولة العثمانية بتحسين أحوال رعاياها المسيحيين على ألا تتدخل أية دولة في شؤونها الداخلية.
لكن الأمور تطورت، من حق انقلاب الحق الديني، التي كانت كل من فرنسا والروسيا تطالبان به، إلى حق سياسي خطير كاد أن يهدد كيان الدولة العثمانية بخطر شديد. ذلك أن أفراد الطوائف المسيحية المختلفة- وقد أدركوا سوء حالة الدولة واضطراب أمورها مما اعتقدوا معه أنهم غير آمنين على أنفسهم وأموالهم- أخذوا يتجنسون بجنسيات أجنبية فرنسية أو إنكليزية أو روسية، كي يصبحوا تحت رعايتها وحمايتها. وقد شجع الروس هذا الأمر فأصبح الرعايا العثمانيون المسيحيون الأرثوذكس يدخلون في الجنسية الروسية أفواجاً، وكانت سمة القنصل الروسي على جواز السفر لأي كان كافية لاعتباره روسياً خارجاً عن رعوية السلطان داخلاً في رعوية القيصر، فلم يلبث السلطان العثماني أن وجد نفسه أمام غزو سلمي خطير، يضع في أيدي قناصل الدول الكبرى سلاحاً ماضياً للتدخل في شؤون الدولة باسم حماية رعاياتهم.
ويمكن أن نلمس تأثير هذه الحمايات التي أخذتها بعض الدول الأوربية من خلال الفتنة التي وقعت في لبنان ١٨٦٠ حيث ظهر الصراع بين فرنسا وإنكلترا من خلال الطائفتين الرئيستين في الجبل: الموارنة إلى جانب الفرنسيين والإنكليز إلى جانب الدروز. وهو ما دفع فرنسا إلى الظهور بمظهر المدافع عن المسيحية في الشرق حيث عقد مؤتمر في ٣ آب ١٨٦٠ حضره مندوبو بريطانيا والنمسا والروسيا وبروسيا وفرنسا وتركيا، تقرر فيه العمل على وقف المذابح وإرسال قوة مشتركة إلى لبنان، ولكن فرنسا الوحيدة التي بعثت بقواتها إلى بيروت (وقد انسحبت من لبنان في السادس عشر من أيار ١٨٦١) ومن ثم انتقلت إلى الجبل فهرب بعض الدروز إلى الداخل (سوريا). وهنا بعد الخلاف بين المندوبين على صيغة الاتفاق بهذا الشأن ، وعدم البث به في بيروت، نقلت الدول الأوربية البحث إلى الآستانة حيث جرى في التاسع من شهر حزيران ١٨٦١ توقيع النظام الأساسي الجديد للحكم في لبنان، عُرف بنظام ١٨٦١ الذي عدّل في بعض بنوده جزئياً في العام ١٨٦٤ وقد ظل معمولاً به إلى نشوب الحرب العالمية الأولى . وكانت الدول

التي وقعته هي : تركيا وبروسيا والنمسا والروسيا وبريطانيا وفرنسا.

ونتج عن ذلك تخلص العثمانيون من الأمير الشهابي بشير الثالث حيث أجبروه على الإقامة في الآستانة ، وأصبح الولاة العثمانيون يحكمون لبنان حكماً مباشراً، شأنه في ذلك شأن بقية الولايات . وقد تقرر تعيين متصرف مسيحي يتولى إدارة جبل لبنان ينصبه الباب العالي ويكون مرجعه إليه رأساً.

وقد أدت هذه الأحداث إلى تغلغل نفوذ الدول الأجنبية العديدة في لبنان، من إرساليات تبشيرية وتعليمية من مختلف الطوائف المسيحية ومن مختلف الدول الأوربية، من فرنسية وإنكليزية وأمريكية وروسية وإيطالية وألمانية حيث شرعت في فتح المدارس الأجنبية على نطاق واسع فشهدت بلاد الشام نهضة ثقافية رائعة كان لها أثر إيجابي في عقلية العرب الفكرية والاجتماعية مهدت لتطور الوعي العربي.

العلاقة بين الدين والتطورات الاقتصادية والسياسية

يبرز اتجاهان جوهريان نحو تحديد العلاقة بين الدين والتطورات الاقتصادية والسياسية: الأول يرى الدين قاعدة التطور الاجتماعي وأساس الأنظمة السياسية التي نشأت بنشوئه... وهذا ما يوحيه انتشار المسيحية والإسلام في مرحلة تحول وانتقال تاريخيين... والثاني يرى الدين جزءاً من بناء فوقي نشأ ليعكس التغييرات الجذرية في القاعدة الاقتصادية والسياسية في المجتمع الذي ظهر فيه هذا الدين أو ذاك.

والواضح أن كافة الأديان ظهرت في أقاليم جغرافية محددة وفي بيئات اجتماعية ملموسة.. بعضها اندثر كلياً وبعضها تجاوز حدود (القومية) وقليل جداً منها اكتسب صفة العالمية. (٥)

وقد أدت الملل المسيحية في هذه المنطقة دوراً نشطاً منذ بداية القرن الثامن عشر كوسطاء مابين الشرق والغرب. ويعود ذلك إلى ارتباطهم بالقنصليات الأوربية، إذ غالباً ما كانوا يقومون فيها بوظيفة المترجمين. وقد تمتع المسيحيون أحياناً بوضع من يحمل براءة سلطانية تمنحه الحماية والحصانة السياسية والإعفاء من دفع الضرائب. كما أنه كان يسهل عليهم القيام بعلاقات تجارية مرتبطة بأبناء ملتهم القاطنين حول البحر الأبيض المتوسط. وقد تخصص الروم الأرثوذكس والكاثوليك في التجارة مع أوربا . وخلال القرن التاسع عشر، سمح لهم إتقانهم اللغة الإيطالية التي كانت لغة الاتصال وفيما بعد إتقانهم اللغة الفرنسية أن يصبحوا أشخاصاً لهم قيمتهم بين بلدانهم والغرب.

http://www.al-maktabeh.com

ولعب مسيحيو الشرق دوراً حاسماً في إرساء حداثة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من خلال النشاطات الاقتصادية والإدارية الحديثة.إذ جعلت منهم كفاءتهم التربوية أشخاصاً لا يستغنى عن خدماتهم . وقد وجد الروم والأرمن بجنب اليهود في المصارف الخاصة التي ظهرت في القرن التاسع عشر فنشط الروم التجار في كل أنحاء الإمبراطورية ،مع عدد كبير آخر من التجار الصغار والحرفيين التقليديين جداً مما أغنى السوق التجارية.

ووجد الكثير من هؤلاء المسيحيين في المهن الحرة التي ظهرت في ذلك الوقت كالمهندسين والأطباء والمصورين، مع تخصص كل ملة بإحدى تلك المهن أو في المهن الجديدة التي مارسوها. كما أن المسيحيين شغلوا المناصب الإدارية التي كانت تستحدث في تلك الحقبة من كتاب ومحاسبين وأمناء سر ومؤرشفين ،حتى القضاء.

في المقابل كان المسيحي في الريف البسيط مطبوع بسمات العشائر التقليدية، هذا الحال ينطبق على المسيحيين في سهول الموصل والجزيرة السورية ، إلا أن الأقليات منهم، الذين دخلوا بدينامية عصر الحداثة ،هم مذهلون بروح المبادرة التي امتازوا بها.

وهذا الأمر أبقاهم في معظم الأحيان يفضلون حماية الأوربيين لهم. وكانوا غالباً، يرفضون التخلي عن الامتيازات التي يتمتعون بها بصفتهم أبناء ملة. فقد كانت الملل تنمي، أكثر فأكثر، خصوصيتها الطائفية وقد بقي روح التنظيمات قائماً إلى مابعد العام ١٨٧٨

دور المسيحيين في القومية العربية العلمانية

لم يكن العرب المسيحيون مرتبطون بالدولة العثمانية ارتباطاً قلبياً، وإنما كانوا يخضعون لحكمها خضوع اضطرار . والسواد الأعظم منهم ما كان يهتم لا بالتاريخ العثماني ولا بالتواريخ العربية، لأنه كان يعتبرها كلها بمثابة (تاريخ إسلامي محض) لا يخص أحداً غير المسلمين. (٦)

ومهما كان لهذا الرأي من صوابية أو خطأ فإن ذلك لايمنع من القول إنه قام من بينهم جماعة من المتنورين يدرسون التاريخ من الكتب الغربية ، ثم يرجعون إلى التواريخ العربية، ويطالعونها بنظرات مستلهمة من الكتب المذكورة.. ويتوصلون من هذه الدراسات والمطالعات إلى الحقائق التالية:

إن الأمة العربية ، من أعظم الأمم في التاريخ..كان لها حضارة قبل الإسلام

وصـار لهـا حضـارة أرقى من ذلك بكثير بعد الإسلام ، والمسيحيون ساهموا في بناء الحضـارة العربية قبل الإسلام وبعد الإسلام . وهذه الحضارة لم تكن دينية بحتة، كما يتوهم ذلك الجهلاء ، بل إن لها كثيراً من العناصر والمظاهر التي لا تمت إلى الدين بأيـة صـلة كانـت . وممـا يبرهن علـى ذلك أن الأوربيين اقتبسـوا منهـا أشـياء كثيـرة وكثيرة جداً. ولذلك كلـه، يجب على العرب المسيحيين أن يفتخروا بالتاريخ العربي وبالحضـارة العربـية، مـثل المسلمين مـنهم. ويجـب علـيهم أن يـتآزروا مـع هـؤلاء لإنهاض الأمـة العربية ، وإعادتها إلـى مـا كانـت عليه من العز والمجد فـي سـالف الزمان.

هذه الملاحظـات وأمـثالها كانـت تجـول فـي خـواطـر البعض من العـرب الذين تـثقفوا بالـثقافة الغـربية ودرسـوا الـتاريخ الإسـلامي بعقلية عصـرية ((ولا أرانـي فـي حاجـة إلـى الإيضـاح، بأنـهـا كانـت بمـثابة الـبذور الأولـى لفكـره (القومـية العربـية) الخالصـة، المتجردة من الاعتبارات الدينية)) (٧)

ولـهذا السبب نجد التفكير في (القومية العربية) بدأ عند العرب المسيحيين قبل أن يبدأ عند المسلمين منهم، كما أن الكتاب والشعراء الذين سبقوا غيرهم في الدعوة المتحمسة إلى النهضة كانوا من العرب المسيحيين.

ويذكـر ألـبرت حورانـي إسـهام العـرب ولاسيما المسـيحيين فـي نشـر الأفكـار التحررية الإصـلاحية التـي تدعـو إلـى الاسـتقلال وبث الوعي القومي، وكانت بعض الاتصــالات جـرت بيـن رجـال الصـحافة فـي بـيروت ورجـال الإصـلاح فـي استانبول.ويعـود الفضـل فـي ذلـك إلـى إقامـة المفكـر والأديـب اللبنانـي احمـد فـارس الشدياق فـي عاصـمة السلطنة . وقـد تميزت صـحافة بيروت عن غيرها بأنها اتسمت بطـابع علمانـي ظاهـر، وخاصـة علـى أيـدي الكـتاب المسيحيين مـن أمـثال بطـرس البسـتاني (١٨١٩-١٨٨٣) ● ٣/ الذي أعلن صراحة في مجلة (الجنان) أن الشرق كان ينعم في الماضي بالتمدن والازدهار فأصبح اليوم في ظل العثمانيين فاسداً، وأن السـبيل الوحـيد مـن هـذا المـأزق هـو تأميـن الحكـم الصـالح الـذي يقـوم علـى أسـاس مشـاركة الجميع فيه بشكل حر ووضـع مبادئ واضـحة للإصلاح تقضي بفصل الدين عن السياسة وفصـل السلطات وإجراء إصـلاحات وتنظيمات على مختلف الصعد وفـي شتى الميادين والحقول. (٨)

وقد كانـت الأقلية المسيحية عاجزة عن استقطاب المسيحيين أنفسـهم والتكلم باسمهم ،كمـا أدركـت علـى أثـر حـوادث ١٨٤٠ و ١٨٦٠ أن الـولاء الدينـي مصـدر خطـر علـى الحـياة السياسـية وأنـه يجـب إيجـاد قـاعدة للـتعاون بيـن أبـنـاء الديانـات المختلفة، وباعتبارها أقلية لا يرى فيها محيطها الإسلامي القائم على الولاء الديني سوى أهل ذمـة، وأن اكتسـاب العلـوم مـن الغـرب والتندر من آراء وعادات أمر ثان. وحسب قول بطرس البستاني (٩) ((لايمكن أن نسلم تسليماً مطلقاً أعمى أن كل ما

يأتينا من هناك(الإفرنج) هو مفيد في حد ذاته وموافق لنجاح الشرقيين)). فيما قال سليم البستاني أن (كل الآراء ليست حسنة ولا العادات جيدة.. فلسنا مكلفين باتباع جميع عادات الإفرنج) . (١٠)

أثارت هذه التغيرات أسئلة لدى المسيحيين الناطقين بالضاد، أولها كيف الإفلات من قفص طوائفهم الدينية المغلقة التي كانت لهم بمثابة عالم خاص منذ قرون عديدة ؟ ذلك أنهم أخذوا يشعرون ، بفضل تربيتهم واعتزازهم بلغتهم، بوجود عالمين خارج الكنيسة: عالم الطائفة الدينية التي كانت سياجاً لهم فأصبحت الآن كأنها حاجزاً أمامهم، وذلك لأسباب معينة خاصة بكل طائفة . (١١)

هذا الاغتراب المسيحي في المجتمع الإسلامي جعل هؤلاء يتجهون نحو علمنة النظرة إلى التاريخ وعلمنة الأسس التي يبنى عليها المجتمع والدولة.

وفي هذا مايبرر قول د. هشام شرابي (إن الطبيعة المميزة للمنطق المسيحي في التراث كامنة في التوجه العلماني). (١٢) وقد عمل المسيحيون المثقفون العرب، في سبيل ذلك إلى إحياء اللغة العربية وتعلمها وتعليمها، وإثراء هذه اللغة بالعلوم والآداب لتكون أداة فعالة في نهضتهم ، وإبعاداً للدين الإسلامي كعامل توحيد وتقدم. كما هدفوا إلى إبعاد الدين عن التعليم، وعن مفهوم الوطن والمواطن، فلا يبقى الانتساب إلى الإسلام، أو الانتماء إليه، شرطاً لمواطنية كاملة.

ولتحقيق هذه الأهداف في القرن التاسع عشر عملوا على إنشاء المدارس وكتابة المؤلفات، ونشر الصحف والمجلات، من أجل إرساء الأسس وتدعيم البناء ورسم معالم العلمنة عبر وسائل متعددة.

وقد رأينا ذلك من خلال ناصيف اليازجي وأحمد فارس الشدياق وبطرس البستاني وفرنسيس مراش وسليم بطرس البستاني وأديب اسحق وشبلي شميل وفرح أنطون.

وفي ذلك كان لسانهم (الدين من دون علم هو عمى والعلم من دون دين إعاقة) وهي العبارة التي حاول بها العالم الفيزيائي ألبرت أينشتاين شرح العلاقة بين العلم والدين. ففي وقت ينطلق كل من العلم والدين من مبدأ واحد هو سعادة الإنسان نحو هدف واحد هو تفسير معنى الحياة، شهدت تلك العلاقة أشكالاً كثيرة من الصراعات على مر التاريخ البشري. وقد رأى طه حسين ●/٤ (إن الدين عقيدة الأغلبية بينما العلم هو عقيدة الأقلية . وهذا الاختلاف يجعل الصراع عنيفاً لأن الأغلبية تمثل المحافظة على القديم وتحارب التفوق وتضطهد المتفوقين، وبخاصة إذا كان التفوق يمس الدين، الأصل الأكثر اتصالاً بالنفوس والضمائر). (١٣)

هل نجح المسيحيون المثقفون العرب في ذلك!

لقد تركز محور الصراع في فكر النهضة العربية بين التوفيقية الإسلامية والعلمانية المسيحية التي أيقظت تيار (الرفض) الفكري وحركته ((ولقد كانت

(الرفضية) لدى المسلمين بحاجة – في أغلب الأحيان- إلى منبهات فكرية غير إسلامية تغذيها وتميزها عن مجرى الأصولية والإجماع)) (١٤)

ومع أن هذا الرافد العلماني المسيحي لم يتحول إلى تيار رئيسي فاعل في الفكر العربي الإسلامي ، لأنه لم ينبع من داخله ولم يتمكن من الاندماج فيه، فإنه قد أسهم في دفع التوفيقية الإسلامية بحكم صراعه معها(١٥) إلى مزيد من العقلانية والاستيعاب الجدي للحضارة الغربية. كما أنه اسهم – ضمن عوامل أخرى- في خلق تيار إسلامي تجديدي ، علماني الميل، خرج على توفيقية محمد عبده- بعد أن تتلمذ عليها- ومثل ظاهرة استثنائية هامة- وأن تكن موقتة في الفكر العربي.

وترى د. هدى مطر نعمه أنه لم ينجح التيار العلماني الذي دعا إليه المثقفون المسيحيون ، ولاسيما فرح أنطون وشبلي شميل، لأن الداعين إليه كانوا مسيحيين، لا يمثلون الأكثرية الساحقة من الرعايا العثمانيين، ولأن المجتمع العثماني عامة، كان متخلفاً علمياً ●/٥ غير قادر على استيعاب مفاهيم العلمنة ، والتحرر العقلي والسياسي. وما نجح في المقابل التيار الإسلامي الإصلاحي الذي مثله محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ، لأنه لاقى مقاومة من السلطات الأجنبية والمحلية السياسية والدينية، لما كان في دعوته من خطر على النفوذ الغربي، وعلى المفاهيم الإسلامية التقليدية المتحجرة ، ولما دعوا إليه من تحرير الشعب وإشراكه في الحكم. (١٦)

ورغم أن العلمانية المسيحية لم تكن ماركسية النزعة أساساً ،وغلب عليها المنحى التطوري الدارويني والقيم الليبرالية إجمالاً، إلا أن ما جلبته من عقلانية خالصة، وتفكير اجتماعي تطوري اشتراكي، ونزعة (يسارية مبكرة) (١٧) أسهم في تهيئة بعض العرب لتقبل الماركسية عندما بذرت بذورها في العشرينات ومطلع الثلاثينات من القرن العشرين (١٨) من مثل رواد الماركسية العربية من الكتاب والأدباء المسيحيين مثل: اسكندر الرياشي، نقولا الحداد، يوسف إبراهيم يزبك، رئيف خوري ، سليم خياطة، فؤاد شمالي وفرج الله الحلو وقريب منهم د. جورج حنا.

يمكن تلخيص القول إن الفكر المسيحي العربي، بحكم جذوره الدينية وصلاته الفكرية بالغرب، كان أقدر على استيعاب وتمثل والتبشير بالمسيحية العلمانية المستندة إلى مبدأ الفصل والتمييز والتفريق بين الدين والعقل متجاوزة مستوى التوفيق الكلاسيكي.

ووضعت العديد من الدراسات حول هذا الشأن منها دراسات قسطنطين زريق، وألبرت حوراني وهشام شرابي وغيرهم. وسنأخذ بالتقسيم الذي وضعه د.شرابي (١٩) لفكر المدرسة المسيحية العلمانية حيث قسمه إلى ثلاث فئات وهي:

١- الأدباء الرواد : فارس الشدياق (١٨٠٤-١٨٨٧) وناصيف اليازجي

(١٨٠٠- ١٨٧١) وإبراهيم اليازجي (١٨٤٧-١٩٠٦) وأديب اسحق (١٨٥٦-١٨٨٥) وفرنسيس مراش (١٨٣٦-١٨٧٣) وأنطاكي الحمصي (١٨٥٨-١٩٤١).

http://www.al-maktabeh.com

٢- رواد الثقافة والتربية: بطرس البستاني (١٨١٩-١٨٨٣) وجرجي زيدان (١٨٦١ -١٩١٤) ولويس شيخو (١٨٥٩-١٩٢٧) وعيسى المعلوف (١٨٦٩- ١٩٥٦)

٣- رواد الفكر العلمي والفلسفة والدعوة العلمانية الصريحة : يعقوب صروف (١٨٥٢-١٩٢٧) وشبلي شميل (١٨٦٠-١٩١٦) وفرح أنطون (١٨٧١-١٩٢٢) وسليمان البستاني (١٨٥٦ -١٩٢٥) وأمين الريحاني (١٨٧٦-١٩٤٠) ونقولا حداد (١٨٧٠-١٩٥٤) وسلامة موسى (١٨٨٧-١٩٥٨).

مدارس العلم والتحول

أدى انقسام المسيحية في الغرب عام ١٠٥٤ إلى قيام شقين فيها: الكاثوليكية والأرثوذكسية ، إلى جوار طوائف شرقية تتبع المونوفيزية (أو المونوفسية). وأدى ذلك إلى عملية تبادل الرعايا الأرثوذكس في هذه المنطقة إلى الكثلكة،ومن ثم إلى البروتستانتية التي يعود أول وجود (رسمي) لها في هذه المنطقة- كما سبق وأسلفنا - إلى عام ١٨٤٨ فيما كانت قبلاً موجودة بالتبعية إلى كنائس في الغرب.

ولعبت (حلب) على وجه التحديد دوراً مهماً في التحول الذي جرى إلى الكثلكة ، فيما لعبت (بيروت) الدور الآخر في التحول إلى البروتستانتية . صحيح أصبح الموارنة كاثوليك هم والكلدان منذ قرون عن غيرهم ، ولكن زخم الكثلكة اللاحقة لعبت دوراً مهماً في إعطاء دور تنويري للمسلمين كان كبيراً جداً.

ولإيجاد كثلكة في هذه المنطقة قدمت البعثات الإرسالية ، ووصل المرسلون الفرنسيون إلى سوريا ولبنان خاصة، وأخذوا يؤسسون المدارس والرهبانيات، وكان أول من قدم هم الفرنسيسكان إلى فلسطين عام ١٢٢٠، ثم اليسوعيون عام ١٥٧٨، والكبوشيون عام ١٦٢٥، والعازاريون سنة ١٧٨٣، وأصبح لبنان المركز الرئيسي لنشاط الإرساليات التبشيرية الفرنسية في الإمبراطورية العثمانية ، حيث استطاعوا أن يضيفوا هالة عظمة حول (فرنسا) (٢٠)

إستفاد الموارنة كثيراً من الكثلكة، حتى عدوا بحق أول منوري هذه المنطقة ((وقد فتح الباب غريغوريس الثالث عشر أمام الطلاب اللبنانيين باب الذهاب إلى رومه للدراسة فيها ومنحهم أرضاً ومساكن ،ثم أنشأ لهم مدرسة خاصة عام ١٥٨٤ سماها (الكلية المارونية) - وهي مخصصة للطلبة الموارنة - وقد خرجت أفواجاً من المثقفين اللبنانيين ومن رجال الدين الذين عادوا إلى بلادهم ونشروا فيها العلم.

ومن خريجي رومه الذين اطلعوا على الآداب الأجنبية وعلى الفلسفات والعلوم ممن عادوا إلى لبنان وفتحوا المدارس وعملوا في التعليم)) (٢١)

ومن أهم الخطوات التحديثية في الحضارة العربية كان تنامي فتح المدارس ابتداء من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين في لبنان أولاً ثم مصر وسوريا والعراق وسائر البلدان العربية. وتم ذلك عن طريق البعثات التبشيرية الكاثوليكية ثم البروتستانتية وبشكل أقل الأرثوذكسية ، مع إنشاء مدارس (وطنية) لأفراد.

يقول جوزيف مغيزيل: (٢٢)

كانت المدارس في لبنان على نوعين: أجنبية ووطنية، فالمدارس الأجنبية كانت مدرسة عينطورة (١٧٣٤) واليسوعية في غزير (١٨٤٧) واللاييك (١٨٤٨) والجامعة الأمريكية (١٨٦٦) والجامعة اليسوعية (١٨٧٤). ومن المدارس الوطنية: مدرسة عين ورقة (١٧٨٩) والمدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني (١٨٦٣) والبطريركية) (١٨٦٥) والثلاثة أقمار (١٨٦٦) ومدرسة الإحسان للبنات (١٨٧٠) والحكمة (١٨٧٦) والمقاصد الإسلامية.

ويمكن تسجيل العام ١٧٣٦ كنقطة تحول في اتجاه الكنيسة المسيحية في هذه المنطقة إلى الأخذ بالعلم ، ليس للأكليركيين فحسب، بل لعامة الناس ،وكان في هذا العام أن صدرت مقررات مجمع اللويزة برئاسة البطريرك الماروني يوسف الخازن وبحضور مندوب الكرسي الرسولي وفيه قرار بإقامة المدارس في المدن والقرى والأديار اللبنانية وتعليم الأولاد ، إضافة إلى الأمور الدينية والعلمية والأدبية، وكان أجرة المعلمين تدفع مناصفة بين الأهل والكنيسة ، ومن تبّين أنه من الفقراء يعفى من الرسم، وهو مابقي ساري المفعول- على الأقل في سوريا- إلى حين تأميم المدارس في الستينات من القرن الماضي.

وفي عام ١٨١٨ انعقد المجمع الثاني في اللويزة- لبنان وطالب في قراراته أن يكون التعليم مجانياً على الأهل لتشجيعهم على إرسال أولادهم إلى المدارس وأن تتكفل الكنيسة باجرة المعلمين . ولكن هذه التوصية لم تسفر إلا عن نوعين من المدارس:

الأولى للأكليركيين في الأديار، وكانت لتعليم الدين أكثر من الأدب والعلم.

والثاني ماسمي مدارس تحت السنديانة التي كتب عنها مارون عبود والتي ترادفت وتزامنت مع الكتاتيب عند المسلمين. (٢٣)

كان للمدارس المسيحية دور كبير في تعليم الناس في سوريا الطبيعية ، ومع إنشاء وزارات المعارف أو التربية لاحقاً- أخذ هذا العدد يتضاءل تجاه تنامي المدارس الحكومية المجانية. وفي لبنان استطاعت المدارس الإرسالية أن تشكل العديد الأكبر من المدارس، حتى إذا قامت الدولة بعد عام ١٩٤٣ وصار التعليم الرسمي منتشراً بين البلدان والقرى انحسر التعليم الخاص نحو الإطار المسيحي

وبعض الشيء المختلط .
أما من ارتاد هذه المدارس المسيحية منذ إنشائها في أواسط القرن التاسع عشر وإلى الستينات من القرن العشرين في سوريا ومصر، أو إلى الآن في لبنان والأردن وفلسطين، فقد كان طلابها من الطبقة الغنية الذين يفاخرون بأن أولادهم في هذه المدارس. إضافة إلى أن اللغة الأجنبية ترادفت مع الوظائف الكبرى أو المهمة- قناصل ،سفراء قضاة، مدراء عامون، سماسرة التجار أو وكلاء الشركات الأجنبية، وهو ماجعل الطبقة الوسطى تستميت لتضع أولادها في هذه المدارس لعلهم يتمكنون من محاكاة الطبقة الغنية.
لقد كان التنافس على أشده في افتتاح المدارس التبشيرية بين الكثلكة والبروتستانت، وهو ما فجر ثورة علمية لا زالت آثارها بادية إلى الآن . فقد وصل عدد المدارس التبشيرية الإنجيلية في الإمبراطورية العثمانية عام ١٨٨٥ إلى حوالي ٣٩٠ مدرسة تضم حوالي ١٣٨٠٠ طالباً (٢٤) وفي لبنان كان عددها بين أعوام ١٩٢٥ /١٩٢٦ (١٥٨) مدرسة فيما هبط هذا العدد بين أعوام ١٩٤٢/١٩٤١ إلى ٥٢ مدرسة (٢٥) فيما شهدت المؤسسات التربوية للطائفة اللاتينية في لبنان- على سبيل المثال- ذروة نموها في مطلع عهد الانتداب الفرنسي على لبنان حيث لها بين ١٩١٨-١٩٢٠ (٢٢٣) مدرسة (٢٦) فيما الطوائف الأخرى المسيحية كان لها مدارسها منذ القرن الثامن عشر، ولم يخل التنافس فيما بينها على إنشائها ولكن بحسب إمكانياتها المادية.
(وبعد سنة ١٨٦٠ أخذت تظهر المدارس الوطنية العصرية منتهجة السبل الغربية. وبسبب انعدام الكتب المدرسية باللغة العربية فإن عدداً كبيراً من هذه المدارس كانت تستعمل الفرنسية أو الإنكليزية لغة التعليم ولاسيما في العلوم. ففي سنة ١٨٦٤ أصبحت بيروت مركزاً لمؤسسة تربوية ثانوية من هذا النوع أسستها بطريركية الروم الكاثوليك وتلاها مدرسة ثانوية أخرى أسستها طائفة الروم الأرثوذكس ، ثم مدرسة ثالثة مارونية أنشئت سنة ١٨٧٤. وهذه المدارس الثلاث لا تزال مزدهرة تعمل في بيروت حتى هذا اليوم). (٢٧)
وأحد أسباب تزايد اهتمام المصريين بالتعليم الحديث هو إعجابهم بنماذج المدارس الأجنبية الحديثة ((التي تصاعد عددها في عهد سعيد (١٨٥٤-١٨٦٣) بحيث بلغ حين وفاته تسعاً وخمسين مدرسة، ثم قفز عدد المدارس التي أسستها الجاليات الأجنبية والأقلية القبطية (افتتح كيروللوس الرابع بطريرك الأقباط أول مدرسة قبطية حديثة في سنة ١٨٥٣) إلى ١٢٧ مدرسة في عهد إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) ووصل عددها في سنة ١٨٧٨ إلى ١٤٦ مدرسة فتحت أبوابها كذلك لأبناء المسلمين)). (٢٨)
إن المدارس المسيحية كان في معظمها مدارس تبشيرية ومع ذلك ساهمت بطريقة أو بأخرى في إنشاء وتنمية الوعي الوطني والقومي عند أبناء الوطن الواحد.

لا بل أكثر من ذلك، هي التي رفدت البلاد العربية بالفكر السياسي والاجتماعي. ومن النادر أن يكون أحد رواد النهضة العربية أو الدعوة القومية السورية أو العربية أو اللبنانية من خريجي المدارس الرسمية بدءاً من الثلاثينات وحتى الستينات من القرن الماضي – على الأقل في لبنان- أما في سوريا فنصف هؤلاء كانوا من خريجي المدارس المسيحية.وبقي السبق قائماً إلى ما نشاهد نموذجاً في جامعتين من أرقى الجامعات التي أنشئت في هذه المنطقة بفضل البعثات التبشيرية ألا وهما الجامعة الأمريكية واليسوعية في بيروت .

وكانت هذه المدارس في لبنان سباقة إلى فتح أفاق اللغة العربية على يد مؤسسي انطلاقتها الحديثة أمثال البساتنة واليازجي والمعالفة وغيرهم ، وللأباء اليسوعيين أمثال الأب لويس شيخو. وكذلك تعريب العلوم التي أخذ العمل به في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

لقد ضعف دور هذه المدارس كثيراً بسبب انتشار المدارس الرسمية المجانية أو لمصادرتها وفقدان خاصيتها في تعلم اللغات الأجنبية- هذا على الأقل في سوريا- فيما زال أمرها مهماً في لبنان، حيث كانت العائلات الإسلامية الموسورة خصوصاً والسياسية ، تضع أولادها في المدارس المسيحية من أجل اللغات الأجنبية ، وهذا انتفى اليوم ، فالمدارس الخاصة الإسلامية صارت تملك هذا السلاح اللغوي.

دور المسيحيين في النهوض بالإعلام العربي

ليس لنا أن ننسى ما قام به مسيحييو الشام من نهضة ثقافية في هذه المنطقة، ويكفي القول ما صنعوه في مصر منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى ما يقرب من نهايات القرن العشرين، سواء في ميادين الصحافة أو المسرح أو السينما.أليست هذه دلالات على الإسهام العربي المشترك الذي تجاوز قبلها الحدود الدينية. إن ذلك الأمر يمثل شهادة للمسيحيين العرب في إطار قوميتهم تضعهم في الموقع الصحيح تجاه العروبة التي ينتمون إليها ويعملون من أجلها.

وقد اتصف الإنتاج الأدبي العربي في القرن الثامن عشر بالجمود الفكري حتى يمكن القول أن ما عولج من مواضيع آنذاك إنما عولجت من زاوية دينية أو فقهية. أما الإبداع والخلق فلم يكن لهما وجود. ففي مصر كان الأدب أدباً مصرياً محلياً، ذلك لأن المصري بطبيعته ملتصق بوطنه وأرضه، وندر أن غادرها أبناؤها سعياً وراء علم أو رزق أو معرفة . وحدهم رجال الدين احتكروا صناعة الأدب. أما

في سوريا والعراق فكانت هناك فئة من الناسخين والكتبة إلى جانب علماء الدين،شاركوا إلى جانب أعمالهم في التحرير والنسخ، في نظم الشعر والنثر الفني. ولم يكن للمؤسسات من معين سوى الأوقاف، أرضاً كانت أو بناء يقفها بعض الصالحين على أغراض دينية تربوية. وكان من عادة سلاطين آل عثمان أن يخضعوا هذه الأوقاف بقسط من أموال الخزينة تنفق عليها. أما الطب فكان شأنه شأن أي مهنة أو حرفة أخرى يتوارثها الأبناء عن الأباء. وكانت خليطاً غريباً من الطب اليوناني القديم والخرافات والرقية والتنجيم والسحر. وكان حظ العراق من هذه الناحية أسوأ من غيره، ذلك لأن العراق تعرض إلى غزوات المغول والاحتلال الإيراني. وكان عدد قليل من طلاب العلم يتابعون دراساتهم العليا في الأزهر والحرمين الشريفين (مكة والمدينة) وفي إستانبول وجميعهم من طلاب العلوم الدينية. (٢٩)

في هذا الوضع الذي وصفه د. فيليب حتي كان بالمقابل بذور نهضة جديدة أخذت تجتاح العالم العربي. وكما كان تأثير الطباعة أحد عوامل النهضة الأوربية كذلك كان لانتشارها في البلاد العربية أثر كبير في نهضتها.

كانت حلب السباقة في معرفة الطباعة حيث طبع فيها الإنجيل منذ عام ١٧٠٢،وذلك قبل أن تعرفها الأستانة (١٧٢٨) ثم أفسحت حلب الميدان لبيروت والقاهرة لتعود بعدئذ إلى حمل العبء من جديد هي ودمشق في أواسط القرن التاسع عشر، عندما جاء حنا الروماني عام ١٨٥٥ بأول مطبعة إلى دمشق. ثم أنشأ المطران يوسف مطر المطبعة الحلبية عام ١٨٥٧ وتتالت بعدئذ المطابع في دمشق.

وفي بيروت بلغت المطابع العشرات في أواخر القرن التاسع عشر، وكان أهمها وأكثرها ما جلبه المرسلون الأمريكيون معهم وأشهرها مطابع الكلية الأمريكية بإشراف الدكتور فان ديك، إلى جانب المطبعة اليسوعية وكانت على جانب كبير من الإتقان. وعدا ذلك كان للبنانيين عدة مطابع منها المطبعة السورية لخليل الخوري (١٨٥٧) ثم مطبعة المعارف للبستاني (١٨٧٦) والمطبعة العمومية للمطران يوسف الدبس.

وأسس الدمينيكيون والكلدانييون في العراق مطابع ما بين ١٨٦٠-١٨٦٣ كانت مزدهرة في نشر الكتب الدينية والتاريخية واللغوية وكان لها إسهامها في الوعي الثقافي الذي مر على العراق.

أما الصحافة، فقد كانت مصر أسبق الأقطار العربية إلى معرفة الصحافة، وكانت هي وسوريا بما فيها لبنان تكملان بعضهما بعضاً، ذلك أن أكثر صحف مصر كانت في أول عهدها بأيدي السوريين النازحين إلى مصر هرباً من استبداد السلطان عبد الحميد حيث آنسوا من الحرية مادفعهم إلى إصدار الصحف والمجلات بكثرة، ثم جاراهم المصريون في ذلك فتعددت الصحف وتكاثرت ، وكان أشهر

النازحين من سوريا آل تقلا حيث أصدر سليم وبشارة تقلا صحيفة (الأهرام) عام ١٨٧٦ ولا زالت تصدر وهي من أهم وأقدم الصحف العربية ، ثم (مرآة الشرق) السياسية العلمية الأدبية لسليم عنحوري (١٨٧٩) ثم (المحروسة) لأديب إسحق وسليم النقاش، و (المقتطف) لأصحابه يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس عام ١٨٨٤ وانتقل به الأولان إلى القاهرة عام ١٨٨٩. وكان المقتطف أول مجلة علمية من نوعها بحسن ترجمتها عن اللغات الأوربية وببراعة تحريرها وهي بمثابة مدرسة في توسيع آفاق المعرفة العلمية والأدبية. ثم أصدر هذان الأدبيان صحيفة يومية سمياها (المقطم) ١٨٨٩-١٩٥٢ كانت عند منصرم القرن التاسع عشر أوسع الصحف اليومية انتشاراً في العالم العربي. وكان هناك مجلة أخرى اسمها (الهلال) صدرت في القاهرة عام ١٨٩٢ لمهاجر لبناني خريج الجامعة الأمريكية هو جرجي زيدان ولا زالت تصدر إلى اليوم بنهجها العلماني.

ولكن أول صحيفة عربية صدرت في الآستانة عام ١٨٥٥ كانت لرزق الله حسون (الحلبي الأصل) وكانت شديدة الانتقاد مما جعل الحكومة العثمانية تحكم عليه بالإعدام غيابياً بعد أن فر إلى روسيا، ولم يزد عمر الصحيفة على عام واحد. كما أصدر أحمد فارس الشدياق أحد أركان النهضة الأدبية العربية، صحيفة (الجوائب) في الآستانة أيضاً عام ١٨٦٠. وكان أول ظهور لصحيفة عربية في بيروت لخليل الخوري باسم (حديقة الأخبار) ومن الصحافة السياسية (نفير سورية) ١٨٦٠ وحنا عنحوري (١٨٨٦) وفي حلب مجلة (الشذور) لعبد المسيح أنطاكي.

ويمكن القول عن الصحافة التي أصدرها المسيحيون في ذاك الوقت أنها كانت تحمل بذور العلمانية والوطنية والقومية العربية . ففي العدد الأول من مجلة (الجامعة) (٣٠) يرى فرح أنطون أن الربط السببي بين حب الله والوطن وإحراز التقدم والرقي هو وليد عمق فكري ثاقب وفي الازدواجية التي يعانيها مثقفو الشرق، ازدواجية التعصب الديني من جهة والنداء بوجوب التقدم ومحاكاة حضارات العالم المتمدن من جهة أخرى، سداً منيعاً يحول دون النهوض بالشعب الشرقي وجعله يواكب مسيرة الرقي والتمدن (لقد أدرك فرح أنطون، ربما أكثر من غيره، رخوصية مثل هذه النداءات والشعارات، وتيقن بما لم يدر في خلد الجميع آنذاك، أن حلم التقدم الذي يراود الإنسان المشرقي سينقلب، إذا ما هزته أدنى عاصفة، هشاً مقطع الأوصال تحت وطأة العمى والتعصب الديني) (٣١)



http://www.al-maktabeh.com

أهم الدوريات التي صدرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على يد المسيحيين (٣٢)

اسم الدورية	مؤسسها	مكان التأسيس	تاريخ التأسيس
الجنة	سليم البستاني	بيروت	١٨٧٠
الجنان	بطرس البستاني	بيروت	١٨٧٠
النحلة	القس لويس الصابوني	بيروت	١٨٧٠
المقتطف	يعقوب صروف- فارس نمر	بيروت	١٨٧٠
البشير	اليسوعيون	بيروت	١٨٧٠
النشرة الأسبوعية	البروتستانت	بيروت	١٨٧١
النجاح	القس لويس الصابونجي- يوسف شلفمون	بيروت	١٨٧١
الأهرام	سليم وبشارة تقلا	الإسكندرية	١٨٧٦
مصر	أديب اسحق	القاهرة	١٨٧٧
لسان الحال	خليل سركيس	بيروت	١٨٧٧
مصر الفتاة	أديب إسحق	الإسكندرية	١٨٧٩
الشفاء	شبلي الشميل	القاهرة	١٨٨٦
المقطم	صروف- نمر- مكاريوس	القاهرة	١٨٨٨
الهلال	جرجي زيدان	القاهرة	١٨٩٢
البيان	إبراهيم اليازجي	القاهرة	١٨٩٧
الضياء	إبراهيم اليازجي	القاهرة	١٨٩٨
المشرق	الأب لويس شيخو	بيروت	١٨٩٨

وهكذا رأينا عرضاً مختصراً لما قام به المسيحيون من دور في النهضة العربية الحديثة التي لازلنا نتلمسها.

التحولات العقائدية والفكرية

لدى المسلمين العرب

مرت الحضارة العربية- الإسلامية في مراحل من الصعود والهبوط جعلت البعض من أبنائها يتساءل فيما إذا كان أصلاً هو عربي القومية أم مصري أو سوري مسلم، كما تساءل البعض من المسيحيين عن رفضهم أحياناً للعروبة ! فالمسلم المصري مثلاً ليس عربياً، إذا عنينا بالعروبة العصبية والأصل، إذ هو قبطي أسلم، أو غربي استوطن، ثم إن الدولة العربية، على ممر العصور ، لم تقم قط على أساس الجنسية ، إنما اختلطت فيها جميع جنسيات الشرق الأوسط والمغرب. بل إن هذا الاختلاط هو سبب ازدهار الدولة العربية في العصر العباسي الأول مثلاً. فكبار المفكرين كانوا من جنسيات مختلفة ، منهم العربي كالكندي، ومنهم السرياني كحنين بن اسحق وأبي بشر متى، ومنهم التركي كالفارابي ●٦/ ومنهم الفارسي كابن المقفع والغزالي.

وإنطلاقاً من القرن الخامس عشر نشاهد في العالم العربي (الانحطاط) الكبير الذي دام أربعة قرون. وفي تلك الحقبة التاريخية ظهرت في سوريا ولبنان (بلاد الشام) بين المسيحيين (ولاسيما الكاثوليك)، النزعة الثقافية الجديدة التي أثرت تأثيراً عميقاً في العالم العربي، حتى منتصف القرن العشرين، وهو التأثير الغربي، في حين كنا نرى السبات في مصر ، حتى وصول نابليون بونابرت (١٧٩٨) الذي أحدث صدمة مفيدة عززها محمد علي (١٨٠١-١٨٥١)

هيكلية العلم العربي

إن الفارق بين الأمس، في صدر الإسلام وبين اليوم كبير في ميدان السير العلمي، ففي الحال الأول وجد العرب تراثاً علمياً- هو التراث اليوناني- جامداً لا يأتيه جديد بعد انتهاء العصر السكندري – نسبة إلى مكتبة الإسكندرية وعصر هذه المدينة الذهبي. ومن جهة أخرى : كانت كمية ما يمكن ترجمته محدودة . ومن جهة ثالثة : كانت هذه الكتب متفرقة، ويجب البحث عنها والعثور عليها. أما الآن فإن كفينا مؤونة البحث عما يجب ترجمته والعثور عليه، فإن المؤلفات في العلوم تتكاثر تكاثراً هائلاً. وهي وليدة حضارات حية نشطة منتجة للعلم إنتاجاً متزايداً، وأصبح من المستحيل اللحاق بكل ماهو جديد في فروع العلم المختلفة سنوياً . وفي هذه الظروف لو تركت الترجمة على حالها فلن يدخل العربية من هذا العلم المتجدد إلا القليل من المبادئ. وهكذا يبدو أن علينا استلهام السلف ورسم سياسة توثق الصلة بين الترجمة والبحث.

لقد ذهب البعض إلى أن تاريخ العلم العربي تتوزعه ثلاث مراحل: الأولى الترجمة، والثانية الاكتساب، والثالثة الإبداع، وسادت هذه النظرة عند جمهرة المؤرخين على الرغم من سطحيتها وخطئها . (فإذا تأملنا حركة الترجمة العلمية، من فلكية ورياضية على الأخص ، فسنرى أن هذه الترجمة نفسها ارتبطت بالبحث العلمي وبالإبداع. فلم يكن القصد من الترجمة إنشاء مكتبة علمية ، الهدف منها إثراء خزائن الخلفاء والأمراء، بل لتلبية حاجات البحث العلمي نفسه. وإذا لم نفهم هذه الظاهرة فهماً دقيقاً، فلن نفهم شيئاً من حركة الترجمة العلمية، كما هو الحال مع بعض المستشرقين المعاصرين. ويكفي أن نذكر بأن المترجمين أنفسهم كانوا من قادة الحركة العلمية ، بل إن بعضهم من العلماء الخالدين على مر العصور. هذه واحدة، والأخرى إن اختيار الكتب- وكذلك توقيت هذا الاختيار – كانا في الغالب وثيقي الصلة بما يعرض للبحث.

وإذا اعتبرنا للعلم العربي قيمة ما، فهي تتركز أساساً في نقله للنصوص اليونانية التي فقدت أصولها، وبقيت ترجمتها العربية وحدها . وإن اعترف لبعض العلماء العرب بشيء من الفضل، فهو أنهم كانوا حراساً أمناء لمتحف العلم اليوناني، وإذا ابتكر بعضهم شيئاً فليس هذا الابتكار إلا امتداد للعلم اليوناني نظرياً ومنهجاً. ومعظم ما قدمه العلم العربي من مآثر ظل دفين المخطوطات، ولم يؤثر قط في تاريخ العلم على مر العصور) (٣٣)

وفي كل ما ذكرناه نرى – مع ذلك- نفياً للعلم العربي من التراث، ويلقى من هذا التراث أكثر أجزائه بقاء عالمية. فالقارئ لمن يكتبون من العرب ويزعمون بيان الطريق لتجديده، سيدهش بالغ الدهشة من غياب العلم، ومن تعريفهم التراث. وإن ذكروه فإما لتأكيد خطابي لحيوية الحضارة الإسلامية، وإما لتأكيد حق العرب في المعاصرة . وهو تأكيد لشعار، لابرهان لحقيقة لها أثر فعال في جوهر تفكيرهم. وكان لهذا الموقف أثر خطير في رؤية التراث والتجديد معاً. فعلى تعدد المواقف وتناقضها الظاهري، يتفق أصحابها جميعاً على عد العلم ظاهرة غريبة لا وجود لها في التراث العربي.

أثر الترجمة في الحقل الديني

كان العرب في صدر الإسلام لا يعنون إلا بالعلوم القرآنية أو ما نشأت حوله، وهي علوم الفقه والكلام والحديث واللغة. أما العلوم الدخيلة، أو (علوم الأوائل) كما سماها الكتاب الإسلاميون، وهي الطب والهيئة والهندسة والرياضيات والطبيعيات والكيمياء والموسيقى والفلسفة بفروعها المختلفة، فلم يكن لها نصيب وافر عندهم حتى أن أكثرها كان مجهولاً لديهم.

ولكن الترجمات التي قام بها السريان والصابئة أثرت كثيراً في جميع حقول الفكر الإسلامي، حتى في الحقل الديني ، لأن احتكاك المسلمين بالثقافات والفلسفات

الغربية جعلهم يعرضون على محك العقل جميع العقائد الدينية التي كانت مقبولة لديهم، في بدء أمرهم، بدون جدال أو نقاش ، ومن هنا نشأت الفرق المختلفة. والفرق التي كانت نشأتها سياسية بحتة راحت تسعى وراء آراء جديدة تكوّن حولها مذهباً فلسفياً، وحجج منطقية تدعم مذهباً وتدحض مذاهب معارضيها.

وأدى احتكاك المسلمين بعلوم الأجانب إلى أن يخرجوا عن فطرتهم وإيمانهم البسيط، فوضع الكثيرون منهم دينهم موضع الشك والنقد على ضوء مُعطيات العقل، حتى أن هذا العقل حل المحل الأول في المناقشات وأصبح عند بعض الفرق الحكم الذي لا ينازع، على هديه تسير، وبنوره تهتدي، وإحلاله هذا المركز الممتاز أدى ببعضهم إلى الإلحاد والزندقة وإنكار النبوة والمعجزات التي كان الرعيل الأول من المسلمين يؤمن بها بدون أن يحاول الكشف عن سرها وأسبابها . فهذا الراوندي الزنديق يختبئ وراء البراهمة ليقول (إن البراهمة يقولون إنه قد ثبت عندنا وعند خصومنا أن العقل أعظم نعم الله سبحانه وتعالى على خلقه، وأنه هو الذي يُعرف به الربُ، ومن نعمه ومن أجله صح الأمر والنهي والترغيب والترحيب).

وقد سادت روح (الغنوص) فرق صدر الإسلام كلها ثم امتزجت بالروح الأفلاطونية الحديثة وتغلغلت في صلب التصوف الإسلامي وهي التي ساعدت الإسماعيلية على القول بنظرية الإمام المعصوم. وكان لهم فلسفة فيها شيء من التصوف الهندي ((ويذهبون إلى أن المعارف والأحكام الإسلامية، لها ظاهر وباطن، فلكل ظاهر باطن ولكل تنزيل تأويل، وتعتقد أن الأرض لا تخلو من حجة، وحجة الله على نوعين: ناطق وصامت، فالناطق هو النبي الأكرم (ص) ، والصامت هو الولي أو الإمام، وهو وصي النبي (ص). وعل أية حال ، فإن الحجة هي المظهر الكامل للربوبية)) . (٣٤)

وقبل هؤلاء (استطاع الشيعة أن يتنفسوا الصعداء، في أوائل القرن الثالث الهجري ومن أسباب ذلك ترجمة الكثير من الكتب الفلسفية والعلمية من اليونانية والسريانية وغيرهما إلى العربية ، فتسابق الناس على تحصيل العلوم العقلية والاستدلالية ، علماً بأن المأمون الخليفة العباسي كان يرغب في الاستدلال العقلي في المذاهب ويبدي اهتمامه له، وكانت النتيجة أن ينتشر البحث الاستدلالي في الأديان وتعطى الحرية الكاملة لأصحاب المذاهب، فانتهز علماء الشيعة ومتكلموهم هذه الحرية الفكرية، فلم يتوانوا عن النشاط العلمي) (٣٥)

لقد قسم ابن رشد الناس إلى مستويات ثلاثة

العامة وسبيلهم للمعرفة والإيمان: الوعظ والخطابة والأسلوب الشعري

وأوساط الناس: وسبيلهم الجدل وحجج المتكلمين

والخاصة: وسبيلهم صناعة الفلسفة وبراهين العقل (٣٦)

وفي مقال لغولد زيهر بعنوان (العناصر الأفلاطونية والغنوصية في الحديث) (٣٧) بين فيه بالشواهد العديدة الأثر الذي تركته هذه العناصر الدخيلة ، في هذا العلم الإسلامي.

http://www.al-maktabeh.com

وكان المعتزلة يؤسسون التفسير العقلاني للقرآن الكريم وراحوا يفرقون بين التفسير الحرفي والتفسير المجازي، وكان الفلاسفة يؤسسون علم المنطق في اللغة العربية.

رفض للفلسفة وما يتبعها

هذه الفلسفة التي أدخلت بواسطة الترجمات إلى العربية وقام بمعظمها المسيحيون سببت الكثير من النقد الشديد لدى المتعصبين للإسلام بدءاً من تراجع أبي الحسن الأشعري عن فكر المعتزلة وانضمامه إلى أهل التقليد والحديث، ثم جاء بعد الأشعري أبو حامد الغزالي الذي رغم عظمته الروحية والدينية بل وحتى الأدبية والأسلوبية ، رسخ مواقف سلفه عن طريق التعليم في المدارس السلجوقية ووجه ضربة موجعة للفلسفة في أرض الإسلام، ضربة لم تقم منها حتى الآن. وهو الذي ناقض نفسه حين أورد حديث للنبي يقول فيه (أول ما خلق الله العقل) دون أن يشك في صحة نسبته (٣٨) ، وكان ذلك بعد أن بلغ تقديس العقل عند بعضهم إلى حد أنهم نسبوا إلى النبي أحاديث تحمل طابعاً أفلاطونياً واضحاً كالحديث الذي ذكرناه. حتى أن ابن تيمية قال بما معناه (من تمنطق فقد تزندق).

وينسب للغزالي ●/٧ إتلافه كتب الفلسفة ، بل وإشرافه هو شخصياً على حرق كتب ابن سينا، أحد عمالقة الفكر العالمي، بالإضافة إلى ابن رشد، وبعد أزمته النفسية الشهيرة، اغرق الغزالي في التصوف والتطرف والابتعاد عن الحياة الدنيا، وكان ينصح بشكل عام ، ثم يحذر أشد التحذير من الفلسفة لأنها تبعد الناس عن الله، بل وتؤدي بهم إلى الكفر. (٣٩)

وصدم المسيحيون بما حصل ، وهم الرواد في حركة التجديد الفكري في هذه المنطقة، حيث عبروا ذلك عن طريق الترجمات وممارسة مهن العلم. وحصل في القرن الثاني عشر شيء خطير أجهز على ما تبقى من علم وعقل لدى المسلمين ألا وهو: تحالف الفقهاء مع الطبقة السياسية الحاكمة من أجل ضبط المجتمع ومنع ظهور أي تفكير جديد بحجة أنه (بدعة) وهكذا لجموا حركة التطور وأرادوا إيقاف التاريخ.. وبالفعل فقد توقف وجمد تماماً ، واستمر الأمر على هذا النحو منذ ثمانمائة سنة، مما عكس ظلاله في كل العالم الإسلامي مشرقاً ومغرباً (ففي العراق وإيران كانوا يحرقون كتب ابن سينا والفارابي ●/٨ وفي إسبانيا كانوا يحرقون كتب ابن رشد ●/٩ هذا بالإضافة إلى كتب ابن باجه بالطبع وآخرين عديدين ، وفي سوريا ، أمر صلاح الدين الأيوبي بتصفية الفيلسوف الصوفي السهروردي ، وفي قرطبة كانوا يرمون بالكتب للنيران) (٤٠) ونقصد بالكتب هنا (تلك المخطوطات الرائعة المتراكمة في المكتبات الكبرى

التي شكلها الخلفاء الأمويون في العصر الأندلسي الزاهر). (٤١)
ويمكن القول إن بروز الفيلسوف العربي عبد الرحمن بن خلدون في القرن الرابع عشر هو أحد الاستثناءات في مرحلة الانحطاط العربي، ورغم تنقله ومطاردته أحياناً بين المشرق العربي وغربه فقد استطاع أن يبقي أثراً مهما للعرب وللعالم في ظروف صعبة حيث أعطى مفهوم التغيير الاجتماعي بعداً أكثر شمولية وعمقاً، مؤكداً على أن الظاهرة الاجتماعية تنشأ من فراغ، فلكي نفهم الظاهرة يجب علينا أن نعي البيئة الاجتماعية التي نشأت فيها، ولذلك عزا سلوك الناس وطريقة حياتهم إلى نوعية الوظائف التي يشغلونها في المجتمع، والتي تلبي عن طريقها حاجاتهم الأساسية . (فتلك الوظائف وتلك الحاجات هي مبعث التحالفات والتعاون بين فئات المجتمع) . (٤٢) وقد أوضح ابن خلدون ذلك بدقة بقوله (واعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو اختلاف نحلهم من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه...) (٤٣) هذه الفلسفة الاجتماعية لم تأخذ طريقها في الدراسة والتمحيص إلا خلال المائة سنة الأخيرة.
لعل هذا الخواء الذي رافق الحضارة العربية- الإسلامية بعد الازدهار الذي نعمت به هو الذي جعل المستشرق البريطاني إدوارد وليم في كتابه حول العادات المصرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر يقول (العرب شعب شديد الاعتقاد بالخرافات، وليس بينهم من هم أكثر اعتقاداً بها من شعب مصر، وإن الكثير من خرافاتهم تشكل جزءاً من دينهم).ويضيف بعد أن يستشهد بمقاطع شعرية يقرن بها الشاعر غزله الفاحش بتكرار اسم الله وتسبيحه وطلب غفرانه أن ((العرب أقل الناس تمسكاً بقوانينهم ، فهم يكسرونها كل يوم.. واثقين أن ترديد كلمتين (استغفر الله) سيلغي كل تجاوزاتهم)) (٤٤) .
وذهب الأمير شكيب أرسلان إلى أبعد من ذلك حيث قال (لقد ظنّ كثير من المسلمين أنهم مسلمون بمجرد الصلاة والصيام وكل ما لا يكلفهم بذل دم ولامال، وانتظروا على ذلك النصر من الله. وليس الأمر كذلك فإن عزائم الإسلام لا تنحصر في الصلاة والصيام، ولا في الدعاء والاستغفار، وكيف يقبل الله الدعاء ممن قعدوا أو تخلفوا ، وقد كان في وسعهم أن ينهضوا ويبذلوا) (٤٥)
فيما رأى د. محمد السيد سعيد أن (الممارسة الدينية قد تكون معوقة للتقدم إذا ما شجعت على الإسراف والمظهرية وقيدت الحريات الفردية وأغرقت في تشجيع الخرافة والكآبة وعتمت على الظلم وعدم المساواة وأعمت المجتمع عن تلمس حلول حقيقية لمشكلاته. وقد تشجع التقدم بل تصنعه صنعاً إذا ركزت على الزهد والامتياز في العمل والأثرة والتكافل والمعرفة والابتكار والمشاركة السياسية. وباختصار فالرؤية الدينية التي حفزت التقدم هي التي مزجت بنجاح بين التقوى الحق والمعرفة الخلاقة) (٤٦)

من عمل لحساب من:
القطرية أم القومية

هذا (الخلل) بين رقي الحضارة العربية- الإسلامية وموجة الحداثة التي بينت الكثير من مواضيع الخلل في هذه الحضارة جعل من البعض يعود إلى تاريخ أوطانه قبل انتشار العربية والإسلام مفاخراً بحضارته السابقة، نادماً على لبوسه الجديد (شفقة بالهوية العربية، لا يجب عقد أي مقارنة بين ما أنتجته مصر في مرحلتها الفرعونية من خبرات وفنون ومعارف وكذلك أخلاق وسلوك- رغم رؤيتها الميتافيزيقية للكون- بأي حال من الأحوال مع ما أنتجته بعد تعربها واكتسابها الثقافة العربية، وإن مساهماتها في كل مجالات الحياة بعد تعربها لايعدو إعادة لإنتاج فقه المعاملات وطقوس التطهر بشكل اجتراري) (٤٧)

يأتي هذا الرأي فيما إذا نظرنا للتاريخ، لا بكونه مجرد أحداث ميتة طويت صفحتها بالكامل، بل إن فيه أحداثاً تمتد آثارها لتتجاوز عصرها، وتلعب دوراً في صياغة فكر أجيال وسلوكها لم تعاصر هذه الأحداث بل تفصلها عنها قرون عديدة. يقول الكاتب عبد اللطيف البغدادي ، المعروف بابن لباد، الذي أقام في بلاط صلاح الدين الأيوبي في القاهرة عشرة أعوام ، وتوفي عام ١٢٣١م عن الإسكندرية (وفيها خزانة الكتب التي حرقها عمرو بن العاص بأمر من عمر بن الخطاب)(٤٨) وينقل نبيل فياض (٤٩) عن جمال الدين القفطي المتوفي عام ١٢٤٨م في كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) أن عمرو بن العاص أرسل إلى عمرو بن الخطاب يسأله في أمر مكتبة الإسكندرية فأجابه: إذا كانت هذه الكتب تتفق مع ما جاء به كتاب الله فلا يمس ، وإذا وجد فيها مالا يوافق كتاب الله فتحرق، فأمر عمرو بأن توزع الكتب على حمامات الإسكندرية وتستخدم كوقود لها،و استغرق حرقها ستة أشهر ، حتى استنفدها جميعاً... وكان عدد حمامات الإسكندرية آنذاك أربعة آلاف حمام.

تبقى هذه الحوادث هي الاستثناء في مجرى التاريخ، وهي حدثت وتجري في المسارات التاريخية لبلدان العالم، ولكن تتداول في الانتكاسات لمعرفة نتائجها على مسيرة التاريخ، وهو ما يجعل البعض يتنكر لهوية بلاده (من الظلم حقيقة أن نحسب مصر عربية منذ عمرو بن العاص وحتى الآن. فمنذ العام ٦٤٠م لايمكن اعتبار قوة مسلحة ومحاربة بالأساس قادمة من الخارج ، هي الوطن والهوية واستعباد الشعب المصري صاحب مؤسسات وسجل تاريخي حافل ولغة وديانات لمجرد تفضيله

للشهادة على القتال والمقاومة السلبية طبقاً لرواة المسيحية في الحرب رغم سلبياتها،ولكنه منذ العام ٨٦٨ وحتى مجيء نابليون خضعت مصر للحكم من مماليك وعسكر لا علاقة بينهم وبين الوطن ، فهي طولونية وأخشيدية وفاطمية وأيوبية إلى أخرهم من العثمانيين بتكرارات لا مبرر لها، هذا على مستوى الحكم الوطني. أما على مستوى العطاء الإنساني فمنذ دخول العرب وحتى عام ١٧٩٨م كانت منجزاتها المعرفية لاتعدو شيئاً، ففي هذا الوقت كانت جميع المدخلات المكونة للمعرفة عند المصريين هي جماع بقايا أكثرها فرعوني وقبطي مختلطاً مع ما هو وافد مع العرب) (٥٠)

فيما يرفض جمال حمدان بشكل قاطع وحاسم تصوير المصريين كما لو كانوا عرباً مستوردين من الجزيرة العربية، كما يرد في بعض الكتابات المصرية، أو أم عملية إحلال وإبدال كاملة أو حتى جزئية قد حدثت بين المصريين القدماء والعرب القادمين. إن مثل هذه النظرة غير صحيحة وليس أبعد منها عن الحقيقة سوى النظرة العكسية الغريبة التي تقلص الوجود العربي الجديد في مصر إلى مجرد قشرة رقيقة هشة على السطح لا وزن لها كماً ونوعاً. (٥١)

علينا الإقرار هنا أن وضع هوية مسيحي بلاد الشام والعراق يختلف عما كان عليه في مصر. فمنذ القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر، كان المسيحيون دُعاة الفكر العربي، في دمشق ثم في بغداد. لم تكن هذه حالة القاهرة، لأن الأقباط لم يكن عندهم ذلك التقليد. فالمسيحيون مثلوا إذاً قطب الغيرة بالنسبة إلى الحضارة العربية-الإسلامية.

هل الحضارة العربية- الإسلامية سريعة منهوبة مختطفة اختطافاً

قبل الدخول في الموضوع فإن العنوان الذي وضعته فوق هذا السطر مستدل من مقال لتوفيق الحكيم، الأديب المصري الكبير صاحب رواية (أهل الكهف) فيه حاول أن يحدد مركز الإغريق والهنود والمصريين والعرب من الحضارات العامة، وميزة كل حضارة مستمدة من عقلية الشعب الذي قام بها قائلاً:

العرب أمة نشأت في فقر لم تعرفه أمة غيرها، صحراء قفراء، قليل من الماء يثير الحرب والدماء، جهاد وكفاح لا ينقطعان في سبيل العيش والحياة، أمة لاقت الحرمان وجهاً لوجه، وما عرفت طيب الثمار وجري الأنهار ورغد العيش ومعنى اللذة إلا في السير والأخبار ، كان حتماً عليها ألا تحس المثل الأعلى في غير الحياة

الهنيئة ، والجنات الخضراء والماء الجاري، وألوان النعيم واللذائذ التي لا تنضب ولا تنتهي ، أمة بأسرها حلمت بلذة الحياة ولذة الشبع ، فأعطاها ربها اللذة ومنحها الشبع، كل تفكير العرب وكل فن العرب في لذة الحس والمادة ، لذة سريعة مختطفة اختطافاً، لأن كل شيء عند العرب سرعة ونهب واختطاف. عند الإغريق الحركة، أي الحياة، وعند العرب السرعة، أي اللذة. لم تفتح أمةٌ العالم بأسرع من العرب، ومر العرب بحضارات مختلفة فاختطفوا من أطايبها اختطافاً ركضاً على ظهور الجياد، كل شيء قد يحسونه إلا عاطفة الاستقرار. وكيف يعرفون الاستقرار . وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم أرض ولاماض ولا عمران! دولة أنشأتها الظروف ولم تنشئها الأرض ، وحيث لا أرض فلا استقرار فلا تأمل، وحيث لا تأمل فلا ميتولوجيا ولا خيال واسع ولا تفكير عميق ولا إحساس بالبناء، لهذا السبب لم تعرف العرب البناء، سواء في العمارة أو في الأدب أو في النقد، الأسلوب العربي في العمارة من أوهى أساليب العمارة التي عرفها تاريخ الفن، وإذا عاش اليوم فإنما يعيش بالزخرف ، فن الزخرف العربي أنقذ العمارة العربية، إن العمارة العربية- إلا في مصر- ما هي في رأيي سوى زخرف لا بناء ، فلا أعمدة هائلة ولا جبهة عريضة ولا وقفة قوية ولا بساطة عظيمة ولا روعة عميقة، إنما هي وشي كثير وجمال كجمال الحلي المرصع يهز البصر ولا فكر خلفه. أما فن الزخرف العربي فهو في الحق أجمل وأعجب فن للزخرف خلده التاريخ. والزخرف عند العرب وليد ذلك الحلم باللذة والترف ، كل شيء عند العرب زخرف. الأدب نثر وشعر لا يقوم على البناء، فلا ملاحم ولا قصص ولاتمثيل، إنما هو وشي مرصع جميل يلذ الحس، فسيفساء اللفظ والمعنى، و(آرابسك) العبارات والجمل ، كل مقامة للحريري كأنها باب لجامع المؤيد، تقطيع هندسي بديع، وتطعيم بالذهب والفضة لا يكاد الإنسان يقف عليه حتى يترنح مأخوذاً بالبهرج الخلاب. كذلك الغناء العربي (آرابسك) صوتي ، فلا مجموعة أصوات متسقة البناء كما في (الديتيرامب) أو (الأوركسترا) الإغريقية أو كما في (الكورس) الجنائزي المصري، ولاحتى مجرد صوت ينطلق حراً بسيطاً مستقيماً. إنما هو صوت عمل بألوان المحسنات من تعاريج وانحناءات وتقاسيم كأنها (ستالاكتيتات) غرناطية، لا يكاد يسمعه (القاضي الفاضل) حتى يستخفه الطرب ويضع نعله فوق رأسه، كان هذا في العهد الأول للموسيقى إذ كانت عند جميع الشعوب بسيطه عارية تخرج من القلب تعبيراً عما في القلب، أو رمزاً لفكرة من الأفكار، والموسيقى كالعمارة من الفنون الرمزية لا الفنون الشكلية، ولكن العرب لايحبون الرموز، ولا طاقة لهم بالفن الرمزي، ولا يريدون إلا التعبير المباشر بغير رموز، وألا الصلة المباشرة بالحس، فجعلوا من الموسيقى لذة للأذن لا أكثر ولا أقل، كما جعلوا العمارة لذة للعين لا أكثر ولا أقل، ولقد حاول الفارابي فيما أذكر التقريب بين الموسيقى العربية والموسيقى الإغريقية، وكان لابد له من الإخفاق

لأسباب قد أذكرها بعد، كذلك التصوير العربي على جماله ودقته ليس إلا مجرد تزيين وزخرف للكتب والمخطوطات ولم يُؤدَ لغير تلك الغاية (المنياتور) الفارسي. قد يكون للدين دخل في تأخر النحت والتصوير عند العرب، غير أني أعتقد براءة الدين، إن العرب كانوا دائماً ضد الدين كلما وقف الدين دون رغبات طبائعهم، لقد حرم الدين الشراب، فأحلوا هم الشراب في قصور الخلفاء، وما وصفت الخمر ولا مجالس الخمر في أدب أمة بأحسن مما وصفت في الأدب العربي، لا شيء في الأرض ولا في السماء يستطيع أن يحول بينهم وبين اللذة. أما النحت أو التصوير الكبير فليس في طبيعتهم ، لأن تلك فنون تتطلب ممن يزاولها إحساساً عميقاً بالتناسق العام مبناه التأمل الطويل والوعي الداخل للكل في الجزء وللجزء في الكل، وليس هذا عند العرب، فهم لا يرون إلا الجزء المنفصل وهم يستمتعون بكل جزء على انفراد لا حاجة لهم بالبناء الكامل المتسق في الأدب ، لأنهم لا يحتاجون إلا للذة الجزء واللحظة، قليل من الكتب العربية في الأدب تقوم على موضوع واحد متصل، إنما أكثر الكتب كشاكيل في شتى الموضوعات تأخذ كل شيء بطرف سريع: من حكمة وأخلاق ودين ولهو وشعر ونثر ومأكل ومشرب وفوائد طبية ولذة جسدية، وحتى إذ يترحمون عن غيرهم يسقطون كل أدب قائم على البناء، فلم ينقلوا ملحمة واحدة ولا تراجيديا واحدة ولا قصة واحدة، العقلية العربية لا تشعر بالوحدة الفنية في العمل الفني الكبير، لأنها تتعجل اللذة ، يكفيها بيت شعر واحد أو حكمة واحدة و لفظ واحد أو نغم واحد أو زخرف واحد لتمتلئ طرباً وإعجاباً، لهذا كله قصر العرب وظيفة الفن على ما نرى من الترف الدنيوي وإشباع لذات الحس، حتى الحكمة،وشعراء الحكمة كانوا يؤدون عين الوظيفة: إشباع لذة المنطق،و المنطق جمال دنيوي ، ولا أستغرب غضب نيتشه على أيروبيد لإسرافه بالمعنى الذي تفهمه مصر والهند من كلمتي الروح والفكر. إن العرب أمة عجيبة تحقق حلمها في هذه الحياة ، فتشبثت به تشبث المحروم، وأبت إلا أن تروي ظمأها من الحياة وأن تعب من لذاتها عباً قبل أن يزول الحلم وتعود إلى شقاء الصحراء، وقد كان (٥٢)

كتب توفيق الحكيم ذلك ليبرر عدم لحاق مصر بموجة الحداثة، مقارناً بين ماض بعيد وماض قريب، مكبراً بثقافة امتدادها آلاف السنين وثقافة معاصرة تعرضت لضغوط شديدة، بحيث أصبح اللحاق بقطار المعرفة الحداثية في مصر هو نكبتها في وقت واحد، فالتحديث المستمر كان من المستعمر نفسه، فرنسا وإنجلترا- هكذا كان مشروع رفاعة الطهطاوي . ويقول محمد عمارة عن الطهطاوي (إن هذا الفقيه الذي ذهب في البعثة المصرية إلى باريس لكي يتلو القرآن ويعظ الطلاب ويؤمهم في الصلاة ، عاد منها لكي يترجم الحضارة الأوربية وفنونها ويؤم الشرق العربي والعالم الإسلامي في تخطي العصور المظلمة والولوج إلى رحاب عصر التنوير) (٥٣)

http://www.al-maktabeh.com

أما مشروع الثورة الثقافية كعمل إنساني يطمح إلى المعرفة العقلية، ويأمل في امتصاص كل ماهو جديد لم يكن له أن يرى النور إلا من عاصمة النور، هكذا كان محمد عبده. ومن هنا نشأ خطاب التنوير والعقلانية الذي هو بالأساس خطاب نقدي لا وجود له في مراحل التاريخ الثقافي المصري منذ سيادة المسيحية في العام ٤١٥ على أنقاض مجد الإسكندرية مؤملاً في تحول ثقافي وطبقي ومعرفي، لينتهي إلى موقف حداثي مثله جميع مفكري القرن العشرين من طه حسين وحسين فوزي ولويس عوض وآخرين.

الفارق بين منوري بلاد الشام ومصر أن الأولين كان معظمهم من المسيحيين فيما كان الأمر لمصر أنهم كانوا مسلمين ممن أتيح لهم زيارة الغرب والاطلاع على حضارته وثقافته، ولنا من رفاعة الطهطاوي وطه حسين وغيرهما شاهد على ذلك.



حواشي الفصل الثالث

١- مجموعة مؤلفين: المسيحية عبر تاريخها في المشرق بيروت: مجلس كنائس الشرق الأوسط ٢٠٠١ ص ٦٠٩- ٦١٠ استيريوس ارجيريو
٢- صحيفة الشرق الأوسط: لندن ٢٠٠٣/٨/٢٢ هاشم صالح
٣- برو، د. توفيق: القومية العربية في القرن التاسع عشر دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٦٥ ص ٣٧
٤- برجاوي، سعيد أحمد: الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع ١٩٩٣
٥- توما، إميل: الحركات الاجتماعية في الإسلام بيروت: دار الفارابي ١٩٨٠ ص ٢٢
٦- الحصري، ساطع: نشوء الفكرة العربية بيروت: دار العلم للملايين ١٩٦٤ ط٥ ص ١٩٩
٧- الحصري، ساطع: نشوء الفكرة العربية مصدر سابق ص ٢٠٠
٨- حوراني، ألبرت: الفكر العربي في عصر النهضة ترجمة كريم عزقول بيروت: دار النهار ص ٣١٤-٣٣١
٩- صحيفة نفير سوريا- بيروت ٢٢ نيسان ١٨٦١ بطرس البستاني
١٠- مجلة الجنان- بيروت ج٢، ١٥ كانون الأول ١٨٧٤ مج٥ ص٢٨ سليم البستاني
١١- حوراني، ألبرت: الفكر العربي في عصر النهضة مصدر سابق ص ١٢٢- ١٢٣
١٢- شرابي، هشام : المثقفون العرب والغرب بيروت: دار النهار ١٩٧١ ص٣٠
١٣- حسين، طه: من بعيد بيروت: دار العلم للملايين ١٩٧٢ ط ٤ ص ٢١٢-٢٣٢
١٤- الأنصاري، د. محمد جابر: تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي ١٩٣٠ -١٩٧٠ سلسلة عالم المعرفة الكويتية
١٥- عبده، محمد: الإسلام بين العلم والمدنية القاهرة : كتاب الهلال ١٩٦٠ص ١٩١
١٦- مجلة المشرق- بيروت السنة السادسة والستون تموز - ك١ عام ١٩٩٢ ص ٤٢٥ د. هدى مطر نعمه
١٧- شرابي، هشام: المثقفون العرب والغرب مصدر سابق ص ٨٩-٩٢
١٨- حنا، د.عبد الله: الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان دمشق: دار الأهالي ١٩٨٧ ص ٨٢-١٢٦ ط ١
١٩- شرابي ، هشام : المثقفون العرب والغرب مصدر سابق ص ٧٦
٢٠- زين ، نور الدين زين : نشوء القومية العربية بيروت : دار النهار ١٩٦٨ ص ٥١ - ٥٢

٢١- عبده ، سمير: المسيحيون السوريون خلال ألفي عام دمشق: منشورات دار علاء الدين ٢٠٠٠ ص ١١٣
٢٢- مجلة المستقبل العربي- بيروت العدد ٢٦ ١٩٨١/٤ ص ٩٢ جوزيف مغيزل
٢٣- صحيفة السفير- بيروت ٢٠٠٢/٨/٢٠ د . ميشال السبع
٢٤- عبده ، سمير : الطوائف المسيحية في سوريا مصدر سابق ص ٦٩
25- Beton , william – superintendant : Archives of the American Board of commissioners " Lebanon– schools- monthy statement "September 1862-bhamdun-Mount Lebanon. Hougton,library . Harvard University – Cambridge- mass- U.S.A
26- A.E.E. Levant,(Syria-Liban) No 44 P 187
٢٧- حتي ، فيليب: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى المجلد الثاني بيروت: الدار المتحدة للنشر ١٩٩٢ ط ٢ ص ١٩٣
٢٨- فريتس شتيبات: الإسلام شريكا ترجمة عبد الغفار عكاوي سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٣٠٢ ص ٢٨
٢٩- حتي ، فيليب : خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى مصدر سابق ص ١٩٢-١٩٣
٣٠- مجلة الجامعة- القاهرة العدد الأول ١٨٩٩ ص ٧-٨ فرح أنطون
٣١- مجلة المسرة – حريصا أيلول – ك١ السنة ١٩٨٨/٧٤ مشير عون
٣٢- مجموعة مؤلفين المسيحية عبر تاريخها في المشرق مجلس كنائس الشرق الأوسط بيروت ٢٠٠١ ص ٨٠٥ جيروم شاهين/ مصدر سابق
٣٣- مجلة المستقبل العربي- بيروت العدد ٨١ ١٩٨٥/١١ ص ٣٥ رشدي راشد
٣٤- الطباطبائي، السيد محمد حسين: الشيعة في الإسلام دار التعارف للمطبوعات (دون تحديد مكان وتاريخ النشر) ص ٨٠
٣٥- الطباطبائي ، السيد محمد حسين: الشيعة في الإسلام مصدر سابق ص ٦٦-٦٧
٣٦- عمارة ، د. محمد : العرب والتحدي سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢٩ ص ٢٤٥
٣٧- بدوي، عبد الرحمن: التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية القاهرة : دار المعارف ص ٢١٨
٣٨- الغزالي ، أبو حامد: إحياء علوم الدين القاهرة : دار الشعب ص ٧٤
39- Hoveyda, Freydoun : L`islam Bloque . Paris : Robert Lafont 2003
40- Hoveyda, Freydoun مصدر سابق

٤١- صحيفة الشرق الأوسط- لندن ٢٠٠٣/١١/٣٠ هاشم صالح
٤٢- مكي، د. يوسف: في الوحدة والتداعي بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٣ ص ٢٠١
٤٣- ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون مصدر سابق ص ٢١٠-٢١١
44- Lane, Edward william: in account of the manners and customs of the modern Egytans written in Egypt during the years 1833-1835 (London : East- west publications 1978) P.P 222 and 288
٤٥- أرسلان، الأمير شكيب: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة ص ٤٨
٤٦- صحيفة الأهرام- القاهرة ٢٠٠٢/١١/١٠ د . محمد السيد سعيد
٤٧- صحيفة الأهرام- القاهرة ٢٠٠٠/٤/٢٤ محمد البدري
٤٨- ابن اللباد، عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار دمشق: دار قتيبة ص ٥٢
٤٩- فياض ، نبيل: يوم انحدر الجمل من السفينة بيروت: دار الكنوز الأدبية ١٩٩٧ ط٤ ص ٧٤
٥٠- صحيفة الأهرام- القاهرة محمد البدري مصدر سابق
٥١- حمدان، جمال: شخصية مصر... دراسة في عبقرية المكان جزآن القاهرة: دار الهلال ١٩٩٤ ج٢ ص٢٩٥
٥٢- مجلة الرسالة- القاهرة العدد ١٠، حزيران ١٩٣٣ ص ٦-٧ توفيق الحكيم
٥٣- عمارة، محمد: (دراسة وتحقيق) الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٣-١٩٧٧ ج١ ص ٢٩-٣٠

- ١/ يمكن تلمس التحول الكاثوليكي الذي جرى في هذه المنطقة من خلال تركيبة حلب الديمغرافية عام ١٣٢٥ والآن (فقد بلغ عدد سكان هذه المدينة في ذلك الوقت مائتي الف نسمة بينهم عشرة آلاف من الروم ثم الأرمن الغريغوريون نحو ٩٠٠٠ ثم السريان اليعاقبة ٦٠٠٠ وأقل منهم الموارنة ثم الكلدان .وكان للروم والأرمن والسريان أساقفة يعنون بأمورهم . ولم يكن بين نصارى حلب من الكاثوليك سوى بضع مئات) × فيما الواقع الحالي عكس ذلك، فالكاثوليك هم الأغلبية

× مجلة المشرق- بيروت العدد ٩ أيلول ١٩١٢ السنة الخامسة عشرة ص ٦٤٤ الأب فرنسوا تورنبيز

- ٢/ مهما قيل عن البروتستانتية فقد كان لها الفضل في أن تحبب المسيحيين العرب إلى العلم ، والحادثة التالية تبين ذلك. في كتابها (وتذكرت) أوردت الكاتبة إميلي الراسي قصة رجل بروتستانتي استدعي إلى استنابول لأمر ما فسأله

المسؤول عن هويته ومذهبه ثم أخيراً سأله هل كان متعلماً أم أمياً، فاحتد الرجل وحسب السؤال إهانة له وقال كيف تسألني هل أنت متعلم أم أمي؟ ألم أقل لك أني بروتستانتي ؟ وهل يعقل أن أكون أمياً ؟ وسحب الإنجيل من جيبه×

× صحيفة النهار- بيروت ٢٠٠٣/١١/١

● ٣/ يعتبر بطرس البستاني أحد رواد الفكر الحديث، درس في مدرسة عين ورقة في لبنان ، والتحق بالمرسلين الأمريكيين ودرس عليهم العبرية واليونانية كي يتمكن من ترجمة التوراة، كما درس الإنكليزية . أسس مدرسة في عبيه وحرر صحيفة في بيروت وعمل على تحرير ثلاث مجلات. كما ألف كتباً مدرسية في الصرف والنحو والرياضيات كانت ثورة في زمانها ، وجمع مواد ستة مجلدات من موسوعة المعارف المعروفة باسمه

● ٤/ لم يكن طه حسين عميد الأدب العربي وحسب، وليس مجرد رائد جسور لثقافة الحرية والديمقراطية والاستنارة ، بل كان له دور نظري وعملي كبير في إعادة تنظيم التعليم الابتدائي.والثانوي وتحقيق أهم تحول اجتماعي عرفته مصر منذ منتصف القرن العشرين إلى أيامنا هذه.

● ٥/ ما يلفت النظر إلى ازدراء الحكام للعلم ما قاله أحد الطلبة لمحمد علي من أنه درس علوم الإدارة المدنية في باريس ، فأجابه بحدة: (أنا الحاكم، فاذهب إلى القاهرة وترجم المؤلفات العسكرية) ×

× Heyworth – Dunne, J: introduction to the history of education in modern Egypt. London 1936 P.168

● ٦/ تتلمذ الفارابي على يد ثلاثة فلاسفة مسيحيين: الأول إبراهيم المروزي، أتى من حدود إيران ، والثاني يحيى بن حبلان، ثم انتقل من حرّان إلى بغداد عن يد أبي بشر متى بن يونس. ولما توفي أبو بشر في ٩٤٠ لم يبق له ما يأخذه عن غيره. فغادر بغداد وذهب إلى حلب حيث كان أميرها يشجع العلوم، ومات في دمشق عام ٩٥٠

● ٧/ نجد أن الغزالي الذي أحيا القيم الروحية والدينية في الإسلام يبرر الترتيب المنظم لكتابه (إحياء علوم الدين) بأنه على غرار الترتيب الذي كان قد وجده في كتاب طبي للطبيب واللاهوتي المسيحي ابن بطلان (توفي عام ١٠٦٦م)

● ٨/ قيل أن أبا نصر الفارابي أخذ طريق تفهيم المعاني الجزلة من أبو بشر متى بن يونس (المتوفي عام ٩٤٠م) السرياني المذهب وهو أحد أساتذة المنطق الذي أثر كثيراً على ما دخل الإسلام من مفهوم للمنطق متأثراً به الكثير من علماء العربية في المنطق والنحو معاً، ومن أشهر ترجمات بن يونس كتاب الكون والفساد بتفسير الإسكندر الأفروديسي وكتاب الشعر لأرسطو.

http://www.al-maktabeh.com

- ٩/ إن العا لم العربي الإسلا مي في حاجة إلى حركة تنوير تستند إلى فلسفة ابن رشد ، لأن ابن رشد هو أحد جذور حركة التنوير الأوروبي ،رغم أنه ما يزال يعامل في الفلسفة الإسلامية باعتباره فيلسوفا هامشيا ، حتى أنه في إيران على سبيل المثال يكاد لا يذ كر بين الفلاسفة الإسلا ميين

(لقد جاء ابن رشد بعد الغزالي و كرد فعل ضده،و كان على وعي تام بمدى تغلغل وسيطرة أفكار الغزالي في العالم الإسلا مي ، ينبئنا بهذا تخصصه للعديد من أعماله على هذه الأفكار وتفنيد ها)×

×صحيفة الأهالي – القاهرة ١٩٩٢/٥/٦ من مقابلة مع د.مراد و هبة



الفصل الرابع

المسيحيون العرب
بين تلاشي دورهم والتطلع إلى الهجرة


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

مسيحيون ومسلمون معاً

في بناء أوطانهم

قبل أن يوصف سكان هذه المنطقة بمسيحيين ومسلمين كانوا يخضعون لأثار تاريخهم المشترك . وقد استخلصوا منه ثقافة وحضارة وذهنية واحدة مشتركة تشكل إنسانيتهم العامة. والعالم الجديد الذي ينشئونه يمنع الهروب إلى الغيرية الدينية، فالرفقة الطويلة بين الجماعات تهيمن على الأمة والاقتصاد والعائلة والثقافة والمثل.

فالنصارى لم يكتفوا بأن تمتعوا بحقوقهم ونعموا بحماية الإسلام، وأدوا واجباتهم النقدية، بل ساهموا مساهمة فعالة في بناء الدولة الإسلامية وتوطيد أركانها وإعلاء شأنها من النواحي السياسية والعلمية. ولاغرابة في ذلك فالمسيحيون هم سكان البلاد، وأنهم فيها مواطنون تتوجب عليهم خدمتها بصدق وولاء.

واشترك النصارى في الفتوحات العربية، وكانت لهم اليد الطولى في توطيد أركان الخلافة الأموية ، وفي إنشاء الأسطول العربي الذي منح العرب تفوقاً في البحر مدة ثلاثة قرون. كما ساهموا في تدعيم أسس الدولة الإسلامية، فإنه وإن حظرت عليهم الإمارة والقيادة، إلا أنهم شغلوا مناصب عالية في التنظيم والتنفيذ، وكان بينهم الكثيرون من التجار والمزارعين ورجال الصناعة فدعموا اقتصاديات البلاد ورفعوا مستواها، فتفوقت على الدولة البيزنطية المتاخمة.

كما كان للنصارى الفضل العظيم في نقل الحضارة اليونانية إلى العرب، ولاسيما علوم الطب والفلك والمنطق والفلسفة، فترجموا الكتب وصاغوها في قوالب استطاع العرب أن يستوعبوها ويزيدوها عمقاً وتحليلاً ولم يكتف المسيحيون بالنقل والترجمة بل كانوا يؤلفون ويدّرسون ،وقد تتلمذ الفارابي على أكثر من عالم مسيحي.

وكانت العلاقات وثيقة بين المسلمين والنصارى ، فلم يكن المسيحيون منعزلين عن مواطنيهم في أحياء خاصة بل اشتركوا مع المسلمين في الحياة العامة فقامت الحضارة العربية الإسلامية على أكتافهم كما قامت على أكتاف المسلمين.(١)

إن الجماعات المسيحية التي وضعت في الهامش طيلة القرون الماضية برهنت في القرن العشرين أنها أقليات تتمتع بحيوية ودفع، تحرك الأكثرية وتحول دون جمودها ، حيث يرى مصطفى الفقي أن الأقليات في العالم العربي ليست بالضرورة أبداً نقمة، ولكنها يجب أن تكون دائماً نعمة.(٢)

ويذهب جان كوربون إلى القول أنه من الصدق والاستقامة أن نرى عند

http://www.al-maktabeh.com

ماركس خطوطاً ماسيانية تولدت لديه من أصله اليهودي، ونرى في العلمانية وفي بعض الأحيان الشيوعية السياسية العربية المعاصرة نقمة من التقدمية كانت مكبوتة منذ زمن طويل بسبب وضع الذمة العربي أو وضع القوميات أيام العثمانيين. وهنا يجول في خاطرنا ذكر العائلات الثلاث الإيديولوجية وهي بين القوى الفاعلة جداً في العالم العربي أعني حزب البعث العربي الاشتراكي ، والحزب السوري القومي الاجتماعي، ومختلف الأحزاب الشيوعية الوطنية وخصوصاً في فلسطين المحتلة. والمعروف أن مؤسسي هذه الأحزاب وأدمغتهم هم من المسيحيين . وبالرغم من اختلاف هذه الأحزاب إيديولوجيا فإنها اتفقت على العلمنة. (٣)

ويذكر في هذا الصدد ماقام به مسيحيو الشام من نهضة ثقافية في مصر منذ نهايات القرن التاسع عشر حتى ما يقرب من منتصف القرن العشرين سواء في ميادين الصحافة أو المسرح أو السينما، وهذا يؤكد أن هذه دلالات على الإسهام العربي المشترك الذي تجاوز الحدود القطرية لأنه تجاوز قبلها الحدود الدينية ،وهذا الأمر يمثل شهادة للمسيحيين العرب في إطار قوميتهم تضعهم في الموقع الصحيح تجاه العروبة التي ينتمون إليها ويعملون من أجلها .

ويورد مصطفى الفقي أسماء مثل مكرم عبيد وميشيل عفلق ونجيب الريحاني وجورج حبش ونايف حواتمه وجورجي زيدان، بالإضافة إلى عائلات مسيحية مرموقة، مثل اليازجي ومعلوف والبستاني وتقلا، فضلاً عن عشرات الأسماء اللامعة في سماء التاريخ العربي بدءاً من جبران خليل جبران مروراً بمخائيل نعيمة وسلامة موسى وخليل مطران ولويس عوض وغيرهم من الرموز تمثل قوافل من المسيحيين العرب على مختلف طوائفهم ممن شاركوا بإيجابية في الحياة السياسية والثقافية للأمة العربية وانصهروا فيها وناضلوا من أجلها. (٤)

التركيبة المسيحية في سوريا الطبيعية

لايزال للمسيحية ، بمختلف طوائفها ، وجود ملحوظ في العالم العربي اليوم في مصر والعراق، كما في الأردن ولبنان وسوريا وفلسطين. أما الجزيرة العربية وغربي مصر (إفريقيا) ، فمسيحيوها ليسوا من المحليين ، ولكنهم مغتربون عرب أو أجانب. أما في السودان فتنحصر المسيحية في جنوبها، ولكنهم ليسوا من أصل عربي(٥)

أما أكبر الطوائف المسيحية المتواجدة حالياً في المنطقة العربية فهم الأقباط في مصر والروم الأرثوذكس والموارنة. ويمكن القول أنه توجد ثلاث مجموعات مسيحية مهمة على صعيد سوريا الطبيعية، فيما هناك مجموعة واحدة في العراق تنتمي إلى السريانية بتسمياتها المختلفة مثل كلد وآشور.

والمجموعة الأولى تمثل طائفتي الروم فهم وحدهم واصلوا انتماءهم إلى العروبة وإعلانه على رؤوس الملأ بعد النصف الأول من القرن العشرين، لا لاستعرابهم أكثر من سائر المسيحيين الشرقيين، بل لأسباب تاريخية وجغرافية.. ((فإنهم يقيمون بوجه خاص في سوريا (ولكن في لبنان وفلسطين أيضاً وقليلاً في مصر) ولايجدون فائدة في التطابق مع دولة ، مع انهم ليسوا في أرض محدودة، وفي صفوفهم أكبر عدد من أنصار (سورية الكبرى). ولكن ، في الواقع، يبحث كل واحد عما يطابق بوجه أفضل مصلحته الشخصية أو الطائفية)). (٦)

شكل أفراد طائفة الروم العمود الفقري في الحركات السياسية الإيديولوجية لهذه المنطقة، ونهضت فكرة (القومية العربية) و(سوريا الكبرى) على يد أفراد من هذه الطائفة.

أما المجموعة الثانية فهي (السريان) بتسمياتهم المختلفة ، فاسم كنيسة الموارنة هي (الكنيسة السريانية المارونية) كما تشمل هذه التسمية السريان الأرثوذكس والكاثوليك والكلدان والاشوريين . وهؤلاء بحاجة إلى الوحدة ، وقد أثارها مطران السريان الكاثوليك رابولا أنطوان بيلوني (٧) وطالب بتوحيد الطائفتين المارونية والسريانية الكاثوليكية.

أما السريان الآخرين فقد أصبحوا ((مجرد جوال متناثرة في بقاع الأرض كلها، وهم الذين منحوا المنطقة الممتدة بين سيناء وجبال زاغروس اسمهم العظيم (سوريا) ويكاد الراصد المدقق لايجد في الجزيرة الفراتية اليوم، وبالتحديد في الحسكة والقامشلي مثلاً، التي كانت طوال تاريخها القديم والوسيط آرامية خالصة إلا بقايا من العشائر السريانية (تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد) وهذا المصير انتهى إليه صابئة العراق أيضاً، فضلاً عن الكلدان، من شأنه أن يفاقم ظاهرة الاندثار والانحلال للأقوام الحضارية الكبرى في مصر والشام والعراق))(٨)

لاشك أن أبلغ ما تعانيه جماعة مشرقية أصيلة كالجماعة السريانية يعبر عنه هذا التناقض الفاضح الذي باتت تتحسسه حين تقارن فرادة إسهامها الثقافي في تاريخ الحضارة العربية بضعف الانغراس السرياني الوجودي والفكري والمصيري في حاضر البعض من الأوطان العربية (٩)

كل ذلك دفع البعض إلى التفكير بقوميته وهو ما يتجلى بشكل خاص لدى الكلد- آشور في العراق.

والمجموعة الثالثة هي البروتستانتية ، صحيح لم يمر عليها وقت طويل في هذه المنطقة ، بيد أن امتدادها إلى الخارج يقوي من شأنها وهي جسر عبور لتفاهم الشرق مع الغرب بنوعية النخبة التي تضمها ، ولكنها قليلة العدد في هذه المنطقة.

يبقى عدا ذلك طائفة الأرمن بتوزعاتها الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية ، فهي موجودة منذ زمن بعيد ، ولكنها تشعر أن مستقرها الأخير في أرمينيا ، وهذا ما يخرجها عن الطوائف الأخرى.

إن حال المسيحيين في الألفية الثالثة جعل البعض يتساءل فيما إذا كانت الكنيسة منسوبة إلى الناس الذين تخدمهم؟ لِمَ انكفأت الكنائس تدريجياً وانطوت على ذاتها وعلى حاجاتها في البقاء. قد يكون لأن الأسقفية والأنانية الطائفية تتعادلان في الواقع، وكلاهما يتغذى من الخوف على الوجود،ومن الرغبة في إعطاء قيمة ذاتية للجماعة، ولأن كنائس المنطقة مقضي عليها بالزوال بمقدار ابتعادها عن وحدتها.

على أن هذا الرأي يرجع إلى الكنيسة سبب ضعف مكانة المسيحيين في مجتمعاتهم .. صحيح للكنيسة شأن في ذلك ، ولكن التطورات الحاصلة في المنطقة وعدم استقراها هو الذي دفع أبناء الطوائف المسيحية إلى الهجرة.

ثمة نقطة في المقابل تجعل الكثير من المسلمين يتساءل : هل مسيحيو المنطقة العربية أصلهم مسلمين ومن ثم تحولوا إلى مسيحيين.

ولاشك أن ما جاء في الصفحات الماضية يبين الكثير من زيف هذا القول، وقد أوضح غبطة البطريرك مكسيموس حكيم ذلك في مقابلة تلفزيونية قائلاً:

في الواقع يصعب على الرأي العام الغربي التوفيق بين هذين الانتماءين فكلمة مسيحي مرادفة لكلمة أوربي، غير عالمين إن مسيحي هذه المنطقة هم المسيحيون الأول وكانوا الأكثرين في سوريا الطبيعية وغدوا الآن أقلية متفاوتة الشأن، وتتكلم كنيستي الملكية الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية اللغة العربية، وتستعملان هذه اللغة في صلواتهما الليترجية، كذلك الشأن مع الكنيسة البروتستانتية.

أما باقي الطوائف المسيحية فإن السريان الأرثوذكس والكاثوليك والموارنة والكلدان والآشوريين يستعملون اللغة السريانية فيما طوائف الأرمن المنوعة تستعمل اللغة الأرمنية.

تضاؤل عدد مسيحي المنطقة

يقول نزار قباني (أنا أكره أن أرى أمة تموت وهي على قيد الحياة) (١٠) فيما أن واقع الأمر للمسيحيين أنهم يتضاءلون بسرعة وسط مجتمعاتهم الشرقية (عدداً أو نفوذاً) وهو ما يطرح السؤال التالي: حين تكون أكثرية من الشعب وتصبح أقلية، كما هو شأن مسيحيي سوريا بعد مجيء الحكم الإسلامي، أو كشأن يهود سوريا، بعد أن انتشرت المسيحية على حساب اليهودية، إن بنت هذه الأقليات جدران عنيفة كرد طبيعي للحفاظ على الذات ضمن الجغرافيا الواحدة، وكانت هذه الإذابة سبباً في النزوح الخارجي للأقليات.

ويمكن القول إنه انطلاقا من الخمسينات من القرن العشرين ومن إنشاء دولة إسرائيل الجائر في عام ١٩٤٨ الذي سبب قيام الثورة المصرية في ١٩٥٢ والثورة العراقية في ١٩٥٨ ، بما فيها من الانعكاسات الاقتصادية والسياسية والدينية

المعروفة ، شعر المسيحيون بأنهم مهددون يوماً بعد يوم، وفكروا في الهجرة أو في الانعزال.

ولتوضيح ما استقر عليه حال المسيحيين في الوقت الراهن نورد الأرقام والإحصائيات عن ضعف عددهم ونفوذهم في الوقت الحالي.

نبدأ بالموارنة ، فقد أصبح عددهم في بلاد الاغتراب يشكلون أربعة أخماس مجمل الموارنة ، حيث صاروا بغالبيتهم الكبرى يعيشون خارج حدود لبنان.

ويمكن تلمس ذلك من أن بعض القرى اللبنانية المارونية يصل تعداد سكانها إلى خمسمائة نفس على أرض الوطن بينما عددهم يزيد في الاغتراب على العشرة آلاف.

ومن معطيات إحصائية يستدل أن هناك مليونا من الموارنة في لبنان يخدمهم (عام ٢٠٠٣) ألف كاهن وراهب، بينما أربعة ملايين منهم في الخارج لا يخدمهم أكثر من مئتين من الرهبان ومن الكهنة الإبرشيين.(١١)

ونقلاً عن المصدر السابق فإن هناك ثلاثة ملايين من الموارنة في أرض الاغتراب اعتنقوا الطقس اللاتيني مع توالي الأيام ، وتعاقب الأجيال الجديدة بعد وصول المهاجرين الأول. ذلك أن مليوناً واحداً من موارنة الاغتراب ينضم اليوم إلى الإبرشيات المارونية الحديثة العهد. أما الآخرون فمن بينهم أساقفة من أصل ماروني وكهنة بالمئات وشعب مؤمن لجأ إلى الكنيسة الغربية التي استقبلته عندما لم يتسن للكنيسة المارونية أن تصل إليه في الوقت المناسب.

ويدل الكلام السابق أن ثلاثة أرباع موارنة الاغتراب لم يعودوا موارنة وبالتالي تخلوا عن هويتهم السريانية المارونية، وهو ما يضعف صلتهم بأجدادهم موارنة لبنان.

وطالما بقيت أرقام أعداد المسيحيين غير دقيقة في هذه المنطقة، وكان تفاوتها بين مصدر وآخر الضعف أحياناً، نورد بعضها ، على سبيل الإنارة.

فهناك ٢٥٠ ألف مسيحي في الأردن عام ٢٠٠٣ يشكلون ٥% من عدد السكان (١٢) فيما يبلغ عدد طائفة الكلدان في جميع أنحاء العالم مليون نسمة (١٣) وهناك مليون وربع المليون آشوري عراقي بينهم نصف مليون في المهجر، وكان لهم عضوان في الكونغرس الأمريكي هما أندم بنجامن (مجلس الشيوخ) وآنا أيشو (المجلس التمثيلي) (١٤)

وقد أورد الصحافي الفرنسي كلود لوريو أن عدد المسيحيين في الشرق الأوسط يتراوح بين عشرة ملايين وستة عشر مليونا وهم موزعون على الشكل التالي:

العراق بين ٦٠٠٠٠٠ ومليون ، تركيا بين مئة ألف و ١٣٠٠٠٠، سوريا بين ٩٥٠٠٠٠و ١٤٠٠٠٠٠، لبنان بين ١٣٠٠٠٠٠و ١٥٠٠٠٠٠، إسرائيل بين ١٠٥٠٠٠و ١٢٠٠٠٠، فلسطين بين ٦٠٠٠٠و ٨٠٠٠٠، الأردن ١٤٠٠٠٠و

١٦٠٠٠٠ ، إيران بين ١٢٠٠٠٠ و ١٣٠٠٠٠ ، مصر بين ٣٣٠٠٠٠٠و ٨٠٠٠٠٠٠،السودان نحو أربعة ملايين (١٥)

ولاحظ أحد الدارسين ((أن نسبة المسيحيين في فلسطين إلى مجموع السكان كانت في سنة ١٨٩٠ نحو ١٣% لكن مع بداية الانتداب البريطاني في سنة ١٩١٧ هبطت إلى ٩,٦ % وفي سنة ١٩٣١ صارت ٨,٨ أما في سنة ٢٠٠٠ فقد بلغت نسبة المسيحيين في فلسطين قرابة ١,٦ فقط ، فعددهم اليوم لا يتجاوز ١٦٥ ألفاً بينهم ١١٤ ألفاً في (إسرائيل) و ٥٠ ألفاً في الضفة والقطاع)) (١٦)

ونرى تشابه في تقلص عدد مسيحيي فلسطين مع ماهو حاصل لليهود المغاربة (ففي عام ١٩٤٨ كان في المغرب ٢٥٠ ألف مغربي يهودي من أصل سبعة ملايين نسمة، فيما أنه عام ٢٠٠٣ هناك خمسة آلاف شخص من بين ٣٠ مليون مغربي) (١٧) ولكن هؤلاء اليهود المغاربة هاجروا إلى فلسطين فيما مسيحيي تلك البلاد هاجروا غرباً إلى القارة الأمريكية.

إن المسيحية في الشرق يتضاءل عددها وينحسر نفوذها ويقل شأنها عاما بعد عام ، ولا نقول هذا الكلام جزافا، فقد تعددت الدراسات في ذلك منها ما ذكره أحد الكتاب الفلسطينيين (ثمة كارثة إنسانية وحضارية وسياسية مقبلة، بلا ريب، على فلسطين وتتمثل هذه الكارثة في أن بلد المسيح وأرض المسيحية الأولى، قبل أنطاكيا، ستصبح خلال أربعة عقود مقبلة، على وجه التقريب ، بلا مسيحيين إلا من بقايا النساك في قلاياتهم والكهان في أديرتهم والقسيسين في كنائسهم. وعلى الأرجح لن يبقى في بيت لحم، وهي مدينة المسيح، خلال العشرين سنة المقبلة، أي مسيحي في ما لو استمرت معدلات الهجرة على حالها الآن) (١٨)

مخاطر هجرة مسيحيي الشرق

تبقى الهجرة المسيحية من بلاد الشرق هاجس المسيحيين في هذه المنطقة، لأن عددهم تقلص كثيراً نتيجتها . ومن هنا التركيز على هذه النقطة لما يحمل هؤلاء من تراث حضاري وبعد تاريخي لهذه المنطقة. صحيح أن الكثير من البلدان كانت الهجرة بها كبيرة ، بل إن عدد مهاجريها باتوا أكثر عدداً من أبنائها كايرلندا ،ولكن هجرة المسيحيين يستنزفهم بشكل مأساوي يهدد بمحو وجودهم من هذه المنطقة.

(ولابد من وقف هذا النزف الحاصل في المسيحيين العرب من خلال الهجرات المتلاحقة التي غدت ظاهرة مقلقة ومرعبة في السنوات الأخيرة، ولا بد أن تتنبه الحكومات ويتنبه رموز الدين الإسلامي وعلماؤه الراشدون إلى خطورة أن نستفيق ذات يوم ومجتمعاتنا أحادية لا تعددية فيها ●/١ وبلادنا لون صحراوي واحد لا لون فيها غيره) (١٩)

إن الحؤول دون انسحاب المسيحيين من الشرق هو مسؤولية إسلامية أكثر مما هو مسؤولية مسيحية لأن المجتمعات الإسلامية بانسحاب المسيحيين ستخسر

http://www.al-maktabeh.com

عنصر التفاعل وثمار نماذج الطاقات.

ولقد كتب الأمير طلال بن عبد العزيز آل سعود بهذا الصدد قائلاً:

يتعرَّض العالم العربي لنزيفٍ بشري واجتماعي وثقافي وسياسي واقتصادي على جانب كبير من الخطورة :

هُجرة العرب المسيحيين التي لم تنقطع منذ أعوام عدة. إنه واقعُ صعب ستخرج عنه آثارٌ بعيدةُ على مصير عالمنا العربي وسيغيّر من طبيعة المنطقة ومن أسس ازدهارها وسلامها واستقرارها الداخليين إن لم يتخذ العرب، مسلمون ومسيحيون، على السواء قراراً بالتصدي لهذه الظاهرة.

وكما في زمن الأزمات الكبرى كالتي يعبرها العالم عموماً والعالم العربي خصوصاً اليوم، لابد من وقفة للمراجعة مع أسباب هذه الهجرة القاتلة للنسيج العربي. لقد شكل العرب المسيحيون إحدى ركائز البناء العربي القديم والحديث على السواء. ففي فجر الإسلام كانوا ركناً ثقافياً وسياسياً وعسكرياً من الدولة العربية التي توسعت شرقاً وغرباً حتى إسبانيا وكانوا أحد عناصر القوة الدافعة التي حملت الإسلام إلى خارج جزيرة العرب وبلاد الشام والتي شكلت أحد العناصر الحاسمة في توسع هذه الدولة ونموها وسيادتها على معظم العالم القديم . وفي عصر النهضة الممتد طوال القرنين التاسع عشر والعشرين لم يغب العرب المسيحيون عن دورهم في إعادة إحياء معالم العروبة ومضمونها الحضاري الجامع والمنفتح على الحضارات الأخرى الناهضة في مرحلة التراجع العربي. شكلوا حلقة وصل واتصال،وعمقاً ثقافياً أصيلاً في العروبة ومتقدماً في العصرنة والحداثة.

كان العرب المسيحيون ولا يزالون نتيجة لثقافتهم المتنوعة المناهل، يخلقون تحدياً مستمراً في الثقافة والفكر، وهجرتهم تلغي هذا المعنى باعتباره تنوعاً غنياً وتسلخ فئة كبرى عن أصولها العرقية والثقافية الأصيلة. عندما نتحدث عن وجود المسيحيين في العالم العربي نعني بقاءهم فيه. فهم من عناصر التكوين الأولى التي يمنع بقاؤها قيام بيئة تفترض التعصب والتطرف وبالتالي العنف المؤدي إلى كوارث تاريخية. بقاؤهم هو الرد بالفعل لا بالقول على مقولة إسرائيل في دولة الدين الواحد، والعرق الصافي ، والشعب المختار ، وكسر لأسس الفكر الصهيوني في نتائجه المعروفة والقائمة على الحديد والنار والدماء والدموع. والأهم من ذلك كله على فكرة إلغاء الآخر. بقاؤهم ترسيخ للدولة العصرية المتعددة العناصر والمتنوعة في وحدتها ونفي قاطع لعنصرية الدولة. بقاؤهم قوةُ لقضايا العرب في اتصالهم مع الغرب المسيحي اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً. أما هجرتهم فقوة معاكسة وعرضة لاستغلال بيئة تضيّق مناخات الحوار والتواصل. بقاؤهم خيارُ عربيُ باعتماد الديمقراطية وانتهاجها في الاحتكام إلى الإنسان والمواطن والعقل والحق والحرية والإبداع وتالياً إنه ميلُ مؤكد لإغناء النسيج الاجتماعي العربي والدولة العربية

العصرية . وهو خيار حاسم بتدمير منطق الحروب الأهلية كما هو حاصل في السودان وكما يُخشى أن يحصل في مصر . بقاؤهم أخيراً وليس آخراً، هو منع لاستنزاف قسم مهم من الطاقات العلمية والثقافية والفكرية الخلاقة في العالم العربي، وهو أيضاً حرصٌ أكيد على عناصر قوة اقتصادية في التجارة والصناعة والمال والتخصص المهني. باختصار ، إن هجرة العرب المسيحيين في خال استمرارها هو ضربةٌ عميقة توجه إلى صميم مستقبلنا . مهمتنا العاجلة منع هذه الهجرة، وترسيخ بقاء هذه الفئة العربية في شرقنا الواحد والتطلع إلى هجرة معاكسة إذا أمكن (٢٠)

إن ما ذكره الأمير طلال بن عبد العزيز آل سعود يعبر أصدق تعبير عما يكنه المسلمون لإخوانهم المسيحيين في هذه المنطقة من عرفان بالجميل للدور الذي قاموا به في السابق واللاحق في سبيل النهوض بالحضارة العربية، ومناشدة صادقة للحؤول دون هجرتهم من ديارهم الأصلية وترك فراغ قاتل لأهالي هذه المنطقة.

أخيراً إن الانسحاب التدريجي من الشرق للمسيحيين هو ظاهرة مجتمعية في غاية الدقة والخطورة لم يعرفها تاريخهم حتى في أسوأ أيام السلطنة العثمانية. فما يسمى اليوم بهجرة المسيحيين من الشرق هو في الحقيقة انسحاب منه لا يبرره العوز أو الخوف أو الاضطهاد، ويشكل في حد ذاته تهديداً للطابع الحضاري (خاصة للبنان) القائم على التعددية العقائدية والفكرية.



خاتمة

يضع العالم الاقتصادي المصري المعروف سمير أمين أطروحتين للبعد السياسي والإيديولوجي في العالم العربي:

الأطروحة الأولى أن عصر النهضة العربية الذي انطلقت فيه حركة الوعي في مطلع القرن التاسع عشر قد انتهى وأن مرحلة تاريخية جديدة قد بدأت.

والأطروحة الثانية إن زعامة البرجوازية الوطنية قد انتهت بانتهاء عصر النهضة، وأنه لا وجود لزعامة تحل محلها.

وكما يقول سمير أمين، فالمرحلة التالية مرحلة فراغ لايمكن للحركة الدينية أن تملأه لأنها ليست أكثر من حركة شعبية مبعثرة تنقصها القيادة والنظرة الاستراتيجية . (٢١)

وفي الأطروحتين اللتين ذكرهما د. أمين كان المسيحيون هم الرواد في ذلك، أما المرحلة التالية التي يذكرها فقد كانوا الخاسرين الأول فيها.

ففي الوقت الذي بدأت مظاهر الأصولية تعم العالم العربي، في حين كانت قبل خمسين سنة خلاف ذلك، أخافت هذه المظاهر المسيحيين الذين تحرروا من سلطة الخلافة وأهل الذمة منذ قرن ونصف ، وكانوا في طليعة علمانيي المنطقة ، وبدؤوا يشعرون بانتكاسة تجاه علمانيتهم ، وسط بحر من التكاثر السكاني أضعف من القوة العددية لهم ،ومن وصول دورهم إلى صانعي القرار.

ولهذا نشهد اليوم تراجعاً للحضور المسيحي في الحياة العامة (فالمجالات المشتركة التي يمكن أن تجمع المسلمين والمسيحيين في عمل مشترك، أعني القومية العربية والاشتراكية والأحزاب العلمانية ، فشلت في بناء دولة الإنسان والديمقراطية والحرية والمواطنة والنهضة العلمية والثقافية وتحرير فلسطين... وأدت في الآن عينه إلى إحباطات كثيرة. بل الأنكى أن الدول التي رفعت هذه الشعارات تحولت إلى دكتاتوريات لا تطاق ، وهو ما زين للناس أن الأصولية الدينية هي الحل الأمثل لكل المشاكل) (٢٢)

بين تضاؤل عدد مسيحيي الشرق وضعف نفوذهم جعل الأب الدكتور جورج مسوح يقول(ينطلق دور المسيحيين الشرقيين أولاً من إيمانهم بأهمية حضورهم في الشرق ، ومن تكلمهم بلغة القرآن الكريم، كتاب المسلمين. ونقول بأهمية حضورهم، ذلك أن الحضور هو غير موجود، فإمكان الوجود من دون الحضور قائم. ويجب تالياً ألا يكون وجود المسيحيين في الشرق العربي مجرد تراكم أعداد، أو متاحف ، أو ذكريات ، أو تقاليد عليهم أن يكونوا فاعلين في حياة أوطانهم من خلال انخراطهم في قضايا بلادهم وشعوبهم) (٢٣)

كثيرة هي النظرات المتشائمة التي ترى أن مسيحي الشرق في طريقهم إلى الزوال . ومن هؤلاء السياسي والمؤرخ الفرنسي جان بيير فالون J.P Valognes الذي نشر كتاباً عن ذلك في ٩٧٣ صفحة باللغة الفرنسية أسماه: حياة وموت مسيحيي الشرق ، صدر عن دار فيار Fayar في باريس عام ١٩٩٤

وكان هذا المؤرخ قد أمضى ردحاً طويلاً من الزمن في الشرق متتبعاً حوادثه وحالة المسيحيين وكنائسهم ونشاطهم، متعمقاً في درس تاريخهم وتطورهم.

ويعتبر هذا الكتاب موسوعة تاريخية فريدة لا تخلو من التشاؤم والخوف من المجهول لمسيحيي الشرق.



حواشي الفصل الرابع

١- يتيم ، الأب ميشيل وديك، الأب اغناطيوس: تاريخ الكنيسة الشرقية مصدر سابق ص ١٥٥
٢- صحيفة الأهرام- القاهرة ٢٠٠١/٦/٢٦ ص ٩ مصطفى الفقي مصدر سابق
٣- كوربون، جان : كنيسة المشرق العربي مصدر سابق ص ٣٩
٤- صحيفة الأهرام- القاهرة ٢٠٠١/٦/٢٦ مصطفى الفقي مصدر سابق
٥- مجلة المسرة- حريصا ك ٢- شباط ١٩٩٧ المطران كيرلس سليم بسترس ص ٦٥
٦- مجلة المشرق- بيروت السنة ٧٥ الجزء الأول ك١- حزيران ٢٠٠١ الأب سمير خليل مصدر سابق
٧- صحيفة النهار- بيروت ٢٠٠٣/٦/٢١
٨- صحيفة السفير- بيروت ٢٠٠٣/١١/١٤ صقر أبو فخر
٩- مجلة الإجتهاد- بيروت العدد ٢٠٠٢/٥٤ ص ١٧٧ الأب سمير مشير عون
١٠- مجلة الحوادث – لندن ١٩٨٧/٣/١٣ من حوار جهاد فاضل مع نزار قباني
١١- صحيفة الشرق الأوسط – لندن ٢٠٠٢/٤/٧
١٢- صحيفة الشرق الأوسط- لندن ٢٠٠٣/٤/٥ ص ٩
١٣- صحيفة الشرق الأوسط- لندن ٢٠٠٣/٧/٩ انعام كجه جي
١٤- صحيفة الحياة- لندن ٢٠٠٣/٥/٣١ مهند الحاج علي
15- Lorieux, claude : chrétiens d'orient enterres d'islam ed perrin 2001 P.367
١٦- صحيفة السفير- بيروت ٢٠٠٣/١١/١٤ صقر أبو فخر مصدر سابق
١٧- صحيفة الشرق الأوسط- لندن ٢٠٠٣/٥/٢١ ص ٢
١٨- صحيفة السفير- بيروت ٢٠٠٣/١١/١٤ صقر أبو فخر مصدر سابق
١٩- صحيفة الشرق الأوسط- لندن ٢٠٠٢/٤/٧ صالح قلاب
٢٠- صحيفة المحرر العربي – بيروت ٢٠٠٢/٢/٢ الأمير طلال بن عبد العزيز آل سعود
٢١- ذكر ذلك: شرابي، هشام (مشارك) العقد العربي القادم: المستقبلات البديلة – بيروت مركز دراسات الوحدة العربية
٢٢- صحيفة النهار- بيروت ٢٠٠٣/١٢/٧ الأب الدكتور جورج مسوح

http://www.al-maktabeh.com

٢٣- صحيفة النهار- بيروت ٢٠٠٣/١٢/٧ الأب الدكتور جورج مسوح مصدر سابق

●١/ الوجود المسيحي في هذه المنطقة مستحب من المسلمين بشكل عام . يذكر أحد الكتاب العراقيين أن السني العراقي عندما يشتري بيتاً لا يفكر بشرائه في حي سني أو يسأل من سيكون جيرانه. بصورة عامة يفضل أن يكون جيرانه مسيحيين ×

× صحيفة الشرق الأوسط – لندن ٢٠٠٣/٧/٢٤



المراجع

باللغة العربية

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ بيروت : دار الكتاب العربي
٢- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول بيروت : دار المسيرة ١٩٥٨
٣- ابن اللباد، عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار دمشق: دار قتيبة
٤- ابن جُلجُل، أبا داود سليمان: طبقات الأطباء والحكماء تحقيق فؤاد سيد القاهرة : مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ١٩٥٥
٥- ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون بيروت: دار إحياء التراث العربي ط ٣
٦- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق إحسان عباس ٨ أجزاء بيروت ١٩٦٨-١٩٧٢
٧- ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز مصر (القاهرة) المطبعة الرحمانية ١٩٢٧
٨- ابن القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ /١٢٤٨م): تاريخ الحكماء بغداد: مكتبة المثنى ١٩٥٣
٩- ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميري، العافري: السيرة النبوية تحقيق القار الأبياري الشلبي بيروت: دار الكنوز الأدبية
١٠- أتينجر، صموئيل: اليهود في البلدان الإسلامية ١٨٥٠-١٩٥٠ ترجمة د. جمال أحمد الرفاعي سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١٩٧
١١- أصيبعة ، ابن أبي، موفق الدين أبو العباس: عيون الأنباء في طبقات الأطباء تحقيق نزار رضا بيروت: دار مكتبة الحياة ١٩٦٥
١٢- افغراف، سمير نوف: تاريخ الكنيسة تحقيق وترجمة الكسندروس مطران حمص وتوابعها للروم الأرثوذكس حمص: مطبعة الفجر ط٩ عام ١٩١١
١٣- أرسلان، الأمير شكيب: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة
١٤- الأنصاري، د. محمد جابر: تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي ١٩٣٠-١٩٧٠ سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٣٥
١٥- الأنصاري، حسان بن ثابت: ديوان حسان شرح محمد عزت نصر الله بيروت: دار إحياء التراث العربي

١٦- الألوسي، أبو الثناء: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ٣٠جزءاً القاهرة: المطبعة المنيرية
١٧- الأصبهاني، أبو الفرج، علي بن الحسين: الأغاني بيروت: مؤسسة جمّال للطباعة
١٨- التوحيدي، أبو حيان : الصداقة والصديق تحقيق علي متولي صلاح القاهرة: مكتبة الآداب بالجماميز ١٩٧٢
١٩- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البخلاء بيروت: دار الفكر
٢٠- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: كتاب الحيوان القاهرة ١٩٣٨
٢١- الحداد، الأستاذ (الأب يوسف ندره الحداد): القرآن دعوة نصرانية بيروت: منشورات المكتبة البوليسية ط٣ ١٩٩٣
٢٢- الحلبي، برهان الدين: السيرة الحلبية طبع القاهرة ١٢٩٢ هـ
٢٣- الحمد، محمد عبد الحميد: إسهام السريان في الحضارة العربية حلب: دار الرها ٢٠٠٢
٢٤- الحمد، محمد عبد الحميد: دور السريان في الحضارة العربية حلب: دار الرها ٢٠٠٢
٢٥- الحنبلي، قاضي القضاة أبو اليمن القاضي مجير الدين: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل عمان: مكتبة المحتسب ١٩٧٣
٢٦- الحصري، ساطع: نشوء الفكرة العربية بيروت: دار العلم للملايين ١٩٦٤
٢٧- الخصيبي، أبي عبد الله الحسين بن حمدان: الهداية الكبرى ط١ ١٩٨٦ (دون ذكر مكان واسم الناشر)
٢٨- الدوري، عبد العزيز: التكوين التاريخي للأمة العربية.. دراسة في الهوية والوعي ط٣ بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٦
٢٩- الزركشي: البرهان في علوم القرآن تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة: دار إحياء الكتب العربية أربعة أجزاء ١٣٧٦ هـ /١٩٥٧
٣٠- الزمخشري، محمود بن عمر القاسم: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل القاهرة: مطبعة مصطفى محمد ١٣٥٤هـ
٣١- السامرائي، د. كمال: مختصر تاريخ الطب العربي بغداد: وزارة الثقافة والإعلام جزءان ١٩٨٤
٣٢- السيوطي، جلال الدين : الإتقان في علوم القرآن جزءان القاهرة: مطبعة حجازي ط ٣ ١٣٦٠هـ/١٩٤١
٣٣- الصالح، د. صبحي: مباحث في علوم القرآن بيروت: دار العلم للملايين ١٩٧٧ ط ١٠
٣٥-الطباطبائي، السيد محمد حسين: الشيعة في الإسلام دار التعارف للمطبوعات (دون تحديد مكان وتاريخ النشر)

٣٦- الطبري ، أبي جعفر محمد بن جرير: تفسير الطبري ط٢ القاهرة : مطبعة بولاق ١٩٥٦
٣٧- الغزالي ، أبو حامد: إحياء علوم الدين القاهرة : دار الشعب
٣٨- القرشي، أبو زيد محمد بن الخطاب: جمهرة أشعار العرب بيروت: دار بيروت
٣٩- الليندي ، إيزابيل: باولا ترجمة صالح علماني حمص : دار جفرا للدراسات والنشر ١٩٩٦
٤٠- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب القاهرة : المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦ هـ
٤١- النديم، أبو الفرج محمد بن اسحق: كتاب الفهرست طهران: طبعة رضا تجدد ١٩٧١
٤٢- النقاش، رجاء: الانعزاليون في مصر.. رد على لويس عوض وتوفيق الحكيم وآخرين بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨١
٤٣- أوليري، دولاسي إيفانز: علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب ترجمة وهيب كامل القاهرة : مكتبة الخانجي ١٩٦٢
٤٤- بدوي، عبد الرحمن: التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية القاهرة: دار المعارف
٤٥- براون، إدوارد: الطب العربي ترجمة داود سليمان علي بغداد ١٩٨٦
٤٦- برجاوي، سعيد أحمد: الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع ١٩٩٣
٤٧- برصوم، البطريرك ماراغناطيوس افرام الأول: الألفاظ السريانية في المعاجم العربية دمشق: مطبعة الترقي ١٩٥١
٤٨- برو، توفيق: القومية العربية في القرن التاسع عشر دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٦٥
٤٩- بيهم، محمد جميل: العروبة والشعوبيات الحديثة بيروت: دار الكشاف
٥٠- توما، إميل: الحركات الاجتماعية في الإسلام بيروت: دار الفارابي ١٩٨٠
٥١- حتي، فيليب: تاريخ العرب ترجمة إدوار جرجي ، د. جبرائيل جبور بيروت: دار غندور ١٩٧٤
٥٢- حتي، فيليب: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى بيروت: الدار المتحدة للنشر ١٩٩٢ ط٢
٥٣- حسين، طه: من بعيد بيروت: دار العلم للملايين ١٩٧٢ ط ٤
٥٤- حمدان، جمال: شخصية مصر.. دراسة في عبقرية المكان جزءان القاهرة: دار الهلال ١٩٩٤

٥٥- حمزة، نديم نايف: التنوخيون بيروت: دار النهار ١٩٨٧
٥٦- حنا، د. عبد الله: من الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان دمشق: دار الأهالي ١٩٨٧ ط١
٥٧- حوراني ، ألبرت : الفكر العربي في عصر النهضة ترجمة كريم عزقول بيروت: دار النهار ١٩٧٧
٥٨- خليل ، الأب سمير : (تحقيق) مقالة في التوحيد للشيخ يحيى بن عدي (٨٩٣-٩٧٤) جونيه: سلسلة التراث العربي المسيحي رقم ٢ عام ١٩٨٠
٥٩- داود، الأب جرجس داود: أديان العرب قبل الإسلام بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ١٩٨١
٦٠- داود، المطران يوسف: اللمعة الشهية في اللغة السريانية الموصل: مطبعة دير الآباء الدومنكيين ١٨٩٦
٦١- دفتري، د. فرهاد: الإسماعيليون ... تاريخهم وعقائدهم ترجمة: سيف الدين القصير دمشق: دار الينابيع ١٩٩٤
٦٢- ديكنسيون، د. جون ب: العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث ترجمة: شعبة الترجمة باليونسكو سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١١٢
٦٣- ديورانت، ول: قصة الحضارة الجزء الثاني من المجلد الرابع القاهرة
٦٤- زغلول، الشحات السيد: السريان والحضارة الإسلامية الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥
٦٥- زين، نور الدين زين: نشوء القومية العربية بيروت: دار النهار ١٩٦٨
٦٦- زيادة، نقولا: المسيحية والعرب دمشق: دار قدمس ٢٠٠٠ طبعة ٢
٦٧- سعيدان، د. أحمد سليم: مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١٣١
٦٨- شرابي، هشام: (مشارك) العقد العربي القادم المستقبلات البديلة بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٦
٦٩- شرابي، هشام: المثقفون العرب والغرب بيروت: دار النهار ١٩٧١
٧٠- شيخو، الأب لويس : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية الجزء الأول ١٩١٣، الثاني ١٩٢٣ بيروت: المطبعة اليسوعية
٧١- شيخو، الأب لويس : تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر بيروت المطبعة اليسوعية
٧٢- شيخو، الأب لويس: تاريخ الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين بيروت: المطبعة اليسوعية
٧٣- شيخو، الأب لويس: شعراء النصرانية بيروت: المطبعة اليسوعية ١٩٢٦

http://www.al-maktabeh.com

٧٤- شيخو، الأب لويس: المخطوطات العربية لكتبة النصرانية بيروت: المطبعة اليسوعية ١٩٢٤
٧٥- عبده، سمير: السريانية – العربية الجذور والامتداد دمشق: دار علاء الدين ٢٠٠٠
٧٦- عبده، سمير: المسيحيون السوريون خلال ألفي عام دمشق: دار علاء الدين ٢٠٠٠
٧٧- عبده، سمير: سريان ولكن سوريون دمشق: منشورات دار حسن ملص ٢٠٠٢
٧٨- عبده، سمير: لغة السوريين لغات دمشق: منشورات دار حسن ملص ٢٠٠٣
٧٩- عبده، سمير : الطوائف المسيحية في سوريا دمشق: منشورات دار حسن ملص ٢٠٠٣
٨٠- عبده، سمير: اليهود السوريون ط٢ دمشق: منشورات دار حسن ملص ٢٠٠٤
٨١- عبده، محمد: الإسلام بين العلم والمدنية القاهرة: كتاب الهلال ١٩٦٠
٨٢- علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام عشرة أجزاء بيروت: دار العلم للملايين ١٩٧٨
٨٣- عماره، د. محمد: (دراسة وتحقيق) الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٣-١٩٧٧
٨٤- عماره، د. محمد: العرب والتحدي سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢٩
٨٥- غرتاس، ديمتري: الفكر اليوناني والثقافة العربية ترجمة د. نقولا زيادة بيروت: المنظمة العربية للترجمة ٢٠٠٣
٨٦- فريتس، شتيبات: الإسلام شريكاً ترجمة عبد الغفار مكاوي سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٣٠٢
٨٧- فياض، نبيل: يوم انحدر الجمل من السفينة بيروت: دار الكنوز الأدبية ١٩٩٧ ط٤
٨٨- قرألي، الخوري بولس: السوريون في مصر القاهرة : المطبعة السورية ١٩٢٨
٨٩- قنواتي، الأب الدكتور جورج شحاته: المسيحية والحضارة العربية بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٩٠- كوربون، جان: كنيسة المشرق العربي ترجمة المطران (ومن ثم البطريرك) اغناطيوس هزيم بيروت: منشورات النصر-١٩٨٠

٩١- لوبون، غوستاف: حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر القاهرة: طبع عيسى البابي الحلبي
٩٢- متز، آدم : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ترجمة د. محمد عبد الهادي أبو ريدة بيروت ١٩٦٧
٩٣- مجموعة من المؤلفين: المسيحية عبر تاريخها في المشرق بيروت: مجلس كنائس الشرق الأوسط ٢٠٠٠ الأب سمير خليل، استيريوس أرجيريو،جيروم شاهين
٩٤- محمد، د . ماهر عبد القادر: حنين بن اسحق.. العصر الذهبي للترجمة بيروت: دار النهضة العربية ١٩٨٧
٩٥- مكي، الطاهر أحمد (تحقيق): امرؤ القيس حياته وشعره مصر: دار المعارف ط٢ ١٩٧٠
٩٦- مكي، د . يوسف: في الوحدة والتداعي بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٣
٩٧- نخبة من الأساتذة : قاموس الكتاب المقدس بيروت: دار المشعل ط٦
٩٨- هيكل، محمد حسين: حياة محمد ط ١٣ القاهرة (دون تاريخ)
٩٩- يتيم، الأب ميشيل . ديك، الأب اغناطيوس: تاريخ الكنيسة الشرقية حلب: مطبعة الإحسان ١٩٦٣
١٠٠- يعقوب الثالث، البطريرك اغناطيوس: الشهداء الحميريون في الوثائق السريانية دمشق (بدون تاريخ واسم الناشر)
١٠١- يعقوب الثالث، البطريرك اغناطيوس: البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية جونية: مطابع الكريم الحديثة ١٩٦٩

مجلات

١٠٢- مجلة المشرق- بيروت: السنة ٦ ١ نيسان ١٩٠٣
١٠٣- مجلة المشرق- بيروت: السنة ١٥ أيلول ١٩١٢ العدد ٩ الأب فرنسوا تورنبيز
١٠٤- مجلة المشرق- بيروت: السنة ٣٠ شباط ١٩٣٢ الأب هنري لامنس
١٠٥- مجلة المشرق- بيروت: السنة ٣٠ نيسان ١٩٣٢ الخوري يوسف فارس
١٠٦- مجلة المشرق- بيروت : السنة ٣٢ نيسان- حزيران ١٩٣٤ جان لاسوس
١٠٧- مجلة المشرق- بيروت: السنة ٣٤ ت١- ك١ عام ١٩٣٦ الخوري اسحق أرمله
١٠٨- مجلة المشرق – بيروت : السنة ٤٢ ك٢- آذار ١٩٤٨ حبيب الزيات
١٠٩- مجلة المشرق- بيروت: السنة ٦٦ تموز- ك١ عام ١٩٩٢ د.هدى مطر نعمه

١١٠- مجلة المشرق- بيروت: السنة ٧٥ الجزء الأول كانون الثاني – حزيران ٢٠٠١ الأب سمير خليل
١١١- مجلة المسرة- حريصا: شباط ١٩٥٨ العدد ٤٣٢ حنا الفاخوري- خليل الحر
١١٢- مجلة المسرة- حريصا: كانون الثاني ١٩٦٦ العدد ٥١١ الاكسرخوس يوسف نصر الله
١١٣- مجلة المسرة- حريصا: نيسان ١٩٦٦ العدد ٥١٤ الأرشمندريت يوسف نصر الله
١١٤- مجلة المسرة- حريصا: حزيران ١٩٧٤ العدد ٥٩٦ إبراهيم مدكور
١١٥- مجلة المسرة – حريصا: كانون الأول ١٩٧٦ السنة ٩٢ الأرشمندريت يوسف نصر الله
١١٦- مجلة المسرة –حريصا: ايلول- ك١ السنة ١٩٨٨/٧٤ مشير عون
١١٧- مجلة المسرة – حريصا: ك٢- حزيران السنة ١٩٩٠/٧٦ الأب سمير خليل
١١٨- مجلة المسرة- حريصا: تموز- آب السنة ١٩٩٤/٨١ الأب سهيل قاشا
١١٩- مجلة المسرة- حريصا: ك٢- شباط ١٩٩٦ السنة الأب جورج باليكي
١٢٠- مجلة المسرة- حريصا: ت١- ت٢ عام ١٩٩٦ العدد ٨٢٤ رابولا التغلبي
١٢١- مجلة المسرة- حريصا: ك٢- شباط ١٩٩٧ المطران كيرلس سليم بسترس
١٢٢- مجلة الرعية- بيروت: العدد ٣٠٧ ك ٢ عام ١٩٩٦ من حوار مع البطريرك مار نصر الله صفير
١٢٣- مجلة الرعية- بيروت: العدد ٣٥٠ كانون الثاني ٢٠٠٠ كريستيان الحلو
١٢٤- مجلة الرعية- بيروت: العدد ٣٥١ شباط ٢٠٠٠ كريستيان الحلو
١٢٥- مجلة الرعية- بيروت: العدد ٣٥٢ آذار ٢٠٠٠
١٢٦- مجلة الرعية- بيروت: العدد ٣٥٤ أيار ٢٠٠٠
١٢٧- مجلة المستقبل العربي- بيروت: العدد ٢٦ ١٩٨١/٤ جوزيف مغيزل
١٢٨- مجلة المستقبل العربي- بيروت: العدد ٨١ ١٩٨٥/١١ رشدي راشد
١٢٩- مجلة المستقبل العربي- بيروت: العدد ٢٧٥ ٢٠٠٢/١
١٣٠- مجلة المستقبل العربي- بيروت: العدد ٣٠٢ نيسان ٢٠٠٤
١٣١- مجلة الاجتهاد- بيروت: العدد ٢٠٠٢/٥٤ الفضل الشلق، الأب مشير عون
١٣٢- مجلة الجنان- بيروت: ج٢، ١٥ كانون الأول ١٨٧٤ مج٥ سليم البستاني
١٣٣- مجلة الكلمة- بيروت: العدد ٨/٣٢ صيف ٢٠٠١ محمد محفوظ
١٣٤- المجلة البطريركية : العدد ٧ شباط ١٩٦٣
١٣٥- مجلة النشرة- عمان: العدد ١٥ صيف ٢٠٠٠ الأرشمندريت الدكتور

قيس صادق، عواد علي
١٣٦- مجلة العربي: النشرة- عمان: العدد ٢٩٢ آذار ١٩٨٣ محمد علي زركان
١٣٧- مجلة علامات- جدة: ربيع الآخر ١٤٢٤ حسن غزالة، عبد الوهاب الحكمي، محمود إسماعيل عمار، عبد الوهاب الحكمي
١٣٨- مجلة المؤرخ العربي- بغداد: العدد ١٩٧٨/٩ محمد مرسي عرب
١٣٩- مجلة الجامعة- القاهرة: العدد الأول ١٨٩٩ فرح أنطون
١٤٠- مجلة الرسالة- القاهرة: العدد ١٠، ١ حزيران ١٩٣٣ توفيق الحكيم
١٤١- مجلة الحوادث- لندن: ١٩٨٧/٣/١٣ من حوار جهاد فاضل مع نزار قباني

صحف

١٤٢- صحيفة نفير سوريا- بيروت: ٢٢ نيسان ١٨٦١ بطرس البستاني
١٤٣- صحيفة المحرر العربي- بيروت: ٢٠٠٢/٢/٢ الأمير طلال بن عبد العزيز آل سعود
١٤٤- صحيفة الأهالي- القاهرة: ١٩٩٢/٥/٦ من مقابلة مع د. مراد وهبه
١٤٥- صحيفة سومر- بيروت: العدد ٢ ١٩٩١/١١/١٨
١٤٦- صحيفة سومر- بيروت: العدد ١١-١٢ كانون الثاني ١٩٩٣من مقابلة مع جبرا إبراهيم جبرا
١٤٧- صحيفة الحياة – لندن: ٢٠٠٣/٥/٣١ مهند الحاج علي
١٤٨- صحيفة الحياة – لندن: ٢٠٠٣/٩/١٦ أحمد المسلماني
١٤٩- صحيفة الحياة- لندن: ٢٠٠٤/١/١٥ محمد صالح الغامدي
١٥٠- صحيفة الشرق الأوسط- لندن: ٢٠٠٢/٤/٧
١٥١- صحيفة الشرق الأوسط- لندن: ٢٠٠٢/١١/١٥
١٥٢- صحيفة الشرق الأوسط- لندن: ٢٠٠٣/٤/٥
١٥٣- صحيفة الشرق الأوسط- لندن: ٢٠٠٣/٤/٧ صالح قلاب
١٥٤- صحيفة الشرق الأوسط- لندن : ٢٠٠٣/٤/٧
١٥٥- صحيفة الشرق الأوسط- لندن: ٢٠٠٣/٥/٢١
١٥٦- صحيفة الشرق الأوسط- لندن: ٢٠٠٣/٧/٩ أنعام كجه جي
١٥٧- صحيفة الشرق الأوسط- لندن: ٢٠٠٣/٧/٢٤
١٥٨- صحيفة الشرق الأوسط- لندن: ٢٠٠٣/٨/٢٢ هاشم صالح
١٥٩- صحيفة الشرق الأوسط- لندن:٢٠٠٣/٨/٣١ أحمد عثمان
١٦٠- صحيفة الشرق الأوسط- لندن: ٢٠٠٣/١١/٣٠ هاشم صالح

١٦١- صحيفة الأهرام- القاهرة: ٢٠٠٠/٤/٢٤ محمد البدري
١٦٢- صحيفة الأهرام- القاهرة: ٢٠٠٠/٧/١٢ د. محمد أسعد عبد الرؤوف
١٦٣- صحيفة الأهرام- القاهرة:٢٠٠١/٦/٢٦ مصطفى الفقي
١٦٤- صحيفة الأهرام- القاهرة:٢٠٠١/١٢/٢١ سامي خشبه
١٦٥- صحيفة الأهرام- القاهرة: ٢٠٠٢/٧/٧ عبد الله التطاوي
١٦٦- صحيفة الأهرام- القاهرة: ٢٠٠٢/١١/١٠ د. محمد السيد سعيد
١٦٧- صحيفة السفير- بيروت: ٢٠٠١/١٠/٥ علي حرب
١٦٨- صحيفة السفير- بيروت: ٢٠٠٢/١/١٥
١٦٩- صحيفة السفير- بيروت: ٢٠٠٢/٩/١٦ د. خليل أحمد خليل
١٧٠- صحيفة السفير- بيروت: ٢٠٠٢/٨/٢٠ د. ميشال السبع
١٧١- صحيفة السفير- بيروت: ٢٠٠٣/١١/١٤ صقر أبو فخر
١٧٢- صحيفة النهار- بيروت: ٢٠٠١/٣/٢٤ من تصريح للمطران جورج خضر
١٧٣- صحيفة النهار- بيروت:٢٠٠٢/٩/٢٧ الأب سليم عبو
١٧٤- صحيفة النهار- بيروت: ٢٠٠٣/٦/٢١
١٧٥- صحيفة النهار- بيروت:٢٠٠٢/١١/١
١٧٦- صحيفة النهار- بيروت:٢٠٠٣/١٢/٢٧ الأب الدكتور جورج مسوح

باللغة الأجنبية

177- A.E.E. levant (Syrie – Liban) No 44
178- Beton, william – Superintendant: Archives of the American Board of commissioners " lebanon – schools- monthy statement " september 1862- Bhamdun- mount lebanon. Hougton library Harvard University – Cambridge- mass U.S.A
179- guérin,daniel: Fascisme et grand capital, Paris , maspero 1975
180- Heyworth- Dunne,J: introduction to the History of education in modern Egypt .London 1936
181- Hoveyda, freydoun: L`islam bloque. Paris : Robert lafont 2003

http://www.al-maktabeh.com

182- jeffery,arthur : The foreign vocabulary of the qur'am. Baroda: oriental institute 1938
183- Lane,edward william: in account of the manner and customs of the modern Egyptans written in Egypt during the year 1833-1835 (London : East- West publications 1978)
184- Lorieux, claude: Chrétiens d'orient enterres d'islam ed perrin 2001
185- Syria culture in the seventh century . London, Aram magazine Vol 1 (1989) .



الفهرس


مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان